مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ النَّحلِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة النحل

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة النحل

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾
وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ
تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

افتتح الله تبارك وتعالى سورة النحل بخبر يحمل قوة الوعيد والإنذار من لدنه عَزَّ وجل ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فتصدرت السورة والآية الكريمة بفعل الإتيان والحصول ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بل جاء الجزم به في صيغة الماضي، الذي يفيد تحقق الوقوع، وحصول الأمر الذي تُنذَرون منه وبه ﴿أَتَىٰٓ﴾ فكأنه قد حل بكم الذي تُوعدون به. والموعودون به هو ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وهو اقتراب وقوع الساعة، وما فيه من الحساب والعذاب للكافرين، وقد تم الوصف له بأقوى أساليب الإنذار ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فلا يقع في النفس، ولا في العقل إلا شيء مخيف، ووعيد عظيم رهيب، ففي تسميته بأمر الله تعالى غاية التخويف والإنذار والوعيد والتهديد. وقد ارتبط الوعيد بالنهي عن استعجال الوعيد، ليتأكد به عظمة وقوة ذلك الأمر الموعودون به ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فلا تطلبوا حضور عذابكم أيها المشركون قبل حينه ووقوعه، مما يفيد عظيم الإنذار والتهديد والوعيد، فقد قَرُب أمرُ اللهِ تعالى فلا تستعجلوه بتماديكم في الكفر، ومحاربة دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم يقرر الله تبارك وتعالى كماله وتنزهه عن الشريك الذي يُشرك

المشركون به في عبادتهم لربهم سبحانه وتعالى ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزه وترفع وتعاظم عَزَّ وجل عن إشراكهم، وادعائهم أن لله تعالى شريك.

ثم يخبر الله تعالى عن عظمته، وعظمة مُلْكِه وتدبيره، الذي ينتفي به الشريك والمثيل، فسبحانه وتعالى عما يُشركون، فقال جَلَّ جلاله ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي يُنَزِّلُ الملائكة بما تحمله من الوحي الذي تحيا به القلوب والعقول، وأن ذلك الإنزال هو من أمر الله تعالى، بما يتضمنه من الأحكام والتشريع على من يصطفيه الله تعالى من عباده، وأن مضمون الرسالة هو ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ لينذر به الرسل: بأن الله تعالى هو الاله الواحد الأحد، فلا معبود بحق إلا هو عَزَّ وجل، فعليهم أن يتقوا الله تعالى ويخافوا عقابه وعذابه، وأن ينتهوا عن شركهم وكفرهم. وسَمَّى اللهُ تعالى الوحي روحاً، لأنه يُحي القلوب بالإيمان من موت الكفر.

وقد بدأت الآية الكريمة بفعل التنزيل ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ أي: تتنزَّل الملائكةُ بأمر الله تعالى. ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن المعنى: تنزل الملائكة بأمره، أي: أن أمر الله كله روح، قال الزجاج: الروح ما كان فيه من أمر الله حياة النفوس بالإرشاد. وقال الحسن وقتادة رحمهم الله تعالى: أنه الرحمة، وقال مجاهد رحمه الله تعالى: أرواح الخلق، وقال ابن زيد رحمه الله تعالى: أنه القرآن[١] وهذا الدلالات هي من غزارة بيان كلمة الروح في هذا السياق التي جمعت كل ما تحيا به النفوس، فبالرحمة تحيا النفوس والبهائم والنبات والأرض والحيوان، وكل ما يحتاج إلى الحياة، فإن الحياة والحركة تدوم برحمته، وأن الدين يحيا بالقرآن الكريم، وقد سماه الله تعالى بالروح، كما في سورة الشورى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ فبالقرآن تحيا القلوب.

وكذلك الروح التي في البدن، فهي التي يحيا بها الإنسان ويعيش، وكذلك الروح بما يَنْزِلُ به جبريل عليه السلام، فيحيا به الدين، ويحيا به الحق، ويحيا بتطبيقه الإنسان، ويمتنع عنه به العذاب، وكذلك قد سمى الله تبارك وتعالى جبريل عليه السلام بالروح، كما قال تعالى في سورة مريم ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٣/٤)

فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ وفي هذا غزارة بيانية، وإعجاز بلاغي عظيم، لشمولية دلالة الروح، إذ استوعبت به جميع الدلالات والمعاني المتعاضدة في المعنى وفي المقصد من غير تعارض ولا تضاد.

وأخبر الله تعالى بأن اختياره واصطفاءه من عباده خاضع لمشيئته ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ فليس لأحد من خلقه أن يُرشح، أو يختار، أو أن يُشير بأحد، أو أن يُعيّن أو يحدد، أو يحصر الأمر في نوع أو فئة من الناس، بل خص الله تعالى الخيار له وحده لا شريك له، فليس لأحد حق الاعتراض، أو التفضيل بين العباد على من فضله الله تعالى واصطفاه لرسالته. ليعلم العباد أن الأمر كله لله الواحد القهار.

ثم بين الله تبارك وتعالى مهمة الرُّسل، وهي ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ فمهمة المرسلين هي الإنذار، وأعظم ما يُنذرون الناس عنه هو الشرك، وأعظم ما يأمرون الناس به هو التوحيد، توحيد الله تعالى في الملك والعبادة والألوهية والربوبية. فينذرون العباد بأنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ فليعلم الناس وليؤمنوا بأنه لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، فيلزمهم توحيد الله ربهم عَزَّ في علاه، وإفراده بالعبادة، ويلزم العباد أن يتقوا الله تعالى، بالخوف من عقابه لهم، مما يفيد التحذير لهم من الشرك، والخوف من عاقبة الشرك، وما يترتب على ذلك. فإن كلمة ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ قد جمعت وجوب العمل بما أمر به سبحانه وتعالى، والخوف من العصيان والتمرد، ومن عدم تحقيق مقتضيات توحيد الله تعالى. كما بينت دلالة ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ ﴾ أن مهمة المرسلين هي الإنذار، وليسوا مكلفين بإلزام العباد بتحقيق التوحيد، والطاعة لله تعالى، فكل نفس بما كسبت رهينة، فلن يتضرر المرسلون بمعصية العاصين، وكفر الكافرين. مما يفيد أن مهمة الداعية للحق والخير هو البيان، وتوجيه الناس للخير، وترغيبهم فيه، وإنذارهم من مسلك الكفر والعصيان. وألا يحزن الداعية على من أبى وتولى، ولا يكترث بمن عصى.

ثم ينتقل البيان الرباني إلى إيضاح دلائل الألوهية والربانية، بأنه سبحانه وتعالى هو الذي خلق السماوات والأرض ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وكلمة ﴿ خَلَقَ ﴾ تعني الإنشاء والإيجاد والإبداع بما ليس له مثيل، فالخلق إنشاء من العدم، من غير سابق لمثله. فيقرر الله تعالى للعباد أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وبالتالي كل موجود هو من خلق الله تعالى، فكيف تعبدون مخلوقاً، وتجعلونه شريكاً للخالق. بل ومن دقائق البيان والإيضاح أنه سبحانه وتعالى خلق

السماوات والأرض ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي هو ضد العبث، فإن الله تعالى إنما يخلق لحكمة وغاية، وقصد حكيم، فإنه عَزّ وجل مُنَزَّه عن العبث.

وقد شملت دلالة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ العالم العلوي، وشملت ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ العالم السفلي، فجمعت الكلمتان، أو الاسمان جميع الخلائق، فأغنتا عن التفصيل، والتعداد، وهي غاية في الإعجاز البياني. ثم ينزه الله تبارك وتعالى ذاته عن شركهم، وافترائهم الكذب ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ فتعالى وتنزه جَلَّ جلاله عن شرك من افترى الشريك لله تعالى فأشرك. فإن مَن خلق السماوات والأرض بالحق مُتَنَزِّه ومتعالي ومترفع عن الشرك، وعن شركهم الذي لا يليق بمن خلق السماوات والأرض، فسبحانه وتعالى عما يشركون.

ومن غزارة وقوة المعالجة أن الله تعالى لفت انتباه العباد عامة، والمشركين والكافرين خاصة إلى خلق الكون كله في كلمتين: السماوات والأرض، والتي يدل خلقها على عظمة ما خلق وأنشأ، وعلى قوته، ووحدانيته عَزَّ وجل، ثم نزه تبارك وتعالى نفسه عن صنيعهم واعتقادهم من الشرك﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ فهو استدلال وحجة لا يزيغ عنها، ولا يتغافل عنها إلا متعمد الكفر. فتعطي هذه الدقة في الترتيب البياني للاستدلال المنهجية العملية له، وكيفية سياق الأدلة، وأهمية ترتيب عملية التدرج الرُّتَبِي للأدلة، لتحقيق الإقناع، وأنه منهج رباني كريم. بما يؤكد ويبين أن هذا الدين هو دين رباني، وقائم على الإقناع والعلم من الحجج والبراهين.

وبعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض، وتنزيه ربنا لذاته الكريمة سبحانه وتعالى عن الشرك، يستمر التدرج في إيضاح دلائل الألوهية والربوبية، واثبات انفراده عَزَّ وجل بخلق هذا الإنسان الذي حصل منه الشرك مع خالقه، وكل ذلك في ترابط بياني عظيم ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ لقد خلق اللهُ تعالى الإنسان من نطفة، فأنشأ وأبدع هذا الإنسان على غير مثال سابق، لأن دلالة كلمة ﴿خَلَقَ﴾ تعني الإنشاء والإيجاد والإبداع بما ليس له مثيل، فالخلق إنشاء من العدم، من غير سابق لمثله. وكلمة ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ اسم لجنس هذا المخلوق الذي جعل مادة خلقه التناسلية ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ وهو الماء المهين الضعيف، الذي يخرج من بين الصلب والترائب، فيتنقل في أطوار نموه حتى يكون إنساناً كامل الخلقة في صورته وهيئته، فينطق ويتكلم، ويشاهد ويبصر، ويسمع ويفكر، وقادر على الحركة والتصرف، والفهم والأخذ والعطاء، ثم بعد كل هذا الإنعام والإبداع ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ فإذا بهذا الإنسان المخلوق والمتكون من النطفة الصغيرة فإذا به كثير المناكفة والمجادلة فيما يأمره الله تعالى به، فإنه أمر يدعو إلى التعجب، لأن ﴿فَإِذَا﴾ أفادت المفاجأة والتعجب من أن حال هذا الإنسان على عكس ما كان يجب أن

يكون عليه من الطاعة والامتثال للحق، فكان منه ذلك الخصام والعناد الذي كان مثاراً للعجب. فإن مجادلته في توحيد خالقه مثار للتعجب من حاله. بل حتى كلمة ﴿ خَصِيمٌ ﴾ أفادت المبالغة في الخصومة، أي: شديد وكثير الخصومة والمجادلة.

ثم أكد تبارك وتعالى بأن هذه الصفة ظاهرة بالوضوح والبروز البائن في سلوكه، حيث وصف خصامه بأنه ﴿مُّبِينٌ ﴾ فخصومته ومجادلته بينة واضحة جلية. وكلمة ﴿مُّبِينٌ ﴾ تعطي معنى الإفصاح والوضوح والظهور في جداله وبيانه عما في نفسه وتفكيره. فهي تُعطي دلالة النطق والكلام. وفي هذا غاية البلاغة البيانية في دلالة اللفظة التي بينت حال هذا الإنسان في منطوقه وتفكيره ومجاهرته في الخصومة والعناد، وكذلك في مجادلته مع خالقه تبارك وتعالى.

فعجيب هذا الإنسان المخلوق من نطفة ضعيفة، وضئيلة في حجمها وشكلها ومادتها، ثم يتدرج بعد ذلك في الخلق والتكوين عبر أطوار متتابعة ومتلاحقة، ليكون إنساناً في أحسن تقويم، ثم تحصل منه بعد ذلك المخاصمة الواضحة في وحدانية ربه. بما يفيد أن إدخال الشرك كان أمراً مخالفاً لتكوينه الفطري، فيعصي ربه الذي أنعم عليه بالخلق والإنشاء، فإذا به ينكر الوحدانية لله عَزَّ وجل في ألوهيته وعبادته، ولا يطيعه ولا يطيع رسوله. فلو فكر الإنسان في وجوده وأطوار تكوينه لأدرك أن الله تعالى وحده هو الذي خلقه، وهو الذي يميته، وأن من خلقه من تلك النطفة قادر على إعادته بعد موته، فليس الإعادة بأصعب من الإنشاء ابتداء. فهو استدلال قائم على الحجة من كل وجه.

وقد تدرج البيان من ملكوت السماوات والأرض إلى حال الإنسان نفسه، ثم ينتقل به البيان في تسلسل وتدرج عظيم إلى نعمة ما يعايشه من الدواب والأنعام، وعلاقته الوطيدة بها، واستفادته منها، وتسخيرها له من ربه عَزَّ وجل، ليستثير عنده أوجه العلاقة، التي لا يمكن أن تكون من غير مُوجِد لها، ومهيئ للإنسان ما يحتاجه في حياته، فإنه امتنان عطاء لهذا الإنسان، مع لفت الانتباه والتفكر إلى الترابط بين وجود هذه الأنعام ومقدار وتنوع حاجته لها، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فمن الذي وازن بين الحاجة البشرية وبين إيجاد ما يحتاج إليه هذا الإنسان؟

فقد تدرج البيان في إقامة الحجة من حال خلق الإنسان إلى حال خلق الأنعام، فكان التدرج في غاية من الإبداع في الاستدلال وقوته ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ ومن قوة السياق، وبلاغة تراكيب الألفاظ وحُسن البيان، أنه حال اعتبار الأنعام معطوفة على خلق الإنسان، فإنها تعطي دلالة في الخلق والتكوين، بأنها مثل الإنسان من نطفة، ثم حصل التدرج في نموها،

حتى أصبحت حيواناً يدب على الأرض، غير أنها خلاف الإنسان في طبيعتها، وفي الهدف والغاية من خلقها، وباعتبار أنها جملة مستقلة مستأنفة، فإنها مخلوقة من أجل الإنسان كما قال تعالى ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ ﴾ فأوجد الله تعالى الأنعام، التي هي: الإبل والبقر والغنم، امتناناً بها على هذا الإنسان، فإنها مخلوقة لأجلك أيها الإنسان، لتقضوا بها حاجتكم ومصالحكم، وتحققوا بها منافعكم.

بل من بلاغة البيان أن ابتدأ النص الكريم بالتعميم ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ ﴾ لتستوفي جميع المنافع من غير تفنيد وتعداد، ثم ذكر سبحانه وتعالى منفعتين ظاهرتين للعناية ولفت الانتباه، وهي منفعة الدفء ﴿ فِيهَا دِفۡءٞ ﴾ ومنفعة الأكل ﴿ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ وأوسط بينهما سبحانه وتعالى جميع المنافع ﴿ وَمَنَٰفِعُ ﴾ فجاءت بين منفعتين عظيمتين، هما: الدفء، ومنفعة الأكل، وذلك لإظهارهما من بين عموم المنافع، بل من مزيد الإظهار أن جاء الفصل بينهما إفراداً وإظهاراً لكل واحدة منهما على حدة ﴿ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ وقد وردت كلمة ﴿ وَمَنَٰفِعُ ﴾ بصيغة الجمع، فاستجمعت جميع مفردات المنافع من غير استثناء.

فيا أيها الإنسان إن لكم في الأنعام من المنافع ما تتخذونه دفئاً من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، فتتخذون من ذلك ما تستدفئون به من البرد، وكذلك ما تتخذونه من الثياب وعموم الملابس، والفرش، وما تبنون به من البيوت، وخصها بالذكر من بين جميع المنافع لبيان عظيم شأنها، وشدة حاجة الإنسان لها. ثم أورد تبارك وتعالى عموم ما يحصل به النفع والانتفاع من غير تخصيص ﴿ وَمَنَٰفِعُ ﴾ لتستوفي جميع المنافع، كالألبان، والأجبان، والسمن، وما يتعلق بمنافع ركوبها، وحمل الأثقال عليها، والانتقال بها وعليها من مكان لآخر، ثم ذكر منفعة عظيمة ظاهرة، وهي الأكل ﴿ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فمن تلك الأنعام تأكلون وتتغذون. فخص سبحانه وتعالى الأكل منها للعناية ولفت الانتباه، ولأنها من أعظم المنافع، وللدلالة الواضحة على الانسجام بين قوة الحاجة ووجودها بينكم. وأورد سبحانه وتعالى الأكل بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ ليفيد استمرار الأكل منها، من غير انقطاع، لتكاثرها بتوالدها. أليس في ذلك آية وعبرة وحجة وموعظة لكم أيها الناس؟ أليس في هذا غاية الإعجاز البياني؟ فتتقون الله تعالى بطاعته، وإفراده بالربوبية والألوهية والعبودية.

ثم ذكر سبحانه وتعالى مزيداً من مفردات المنافع القلبية والنفسية، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ فإن لكم فيها جمال الرؤية في مسيرها حين تعود من مراعيها مساء، وحين تسرحون بها صباحاً. وكذلك لكم فيها جمال بما تتجملون وتتزينون به منها، وسواء ما كان بركوبها، أو باستحسان هيئتها، وكثرتها، وكذلك بما يكون من منافعها فيما بينكم، وخص من ذلك وقتين وحالين ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أي: وقت أن تردونها إلى حضائرها مساء، ووقت ذهابكم ورواحكم بها إلى مراعيها، فتسرحون بها صباحاً إلى المراعي لترعى فيها. ومن غزارة البيان ودقته، وقوة بلاغته أن كل وصف منها يشمل مفردات المنافع العديدة. فكلمة ﴿ جَمَالٌ ﴾ يعني: الزينة، التي تمثل جميع وعموم ما يتجمل به الإنسان، أو يحمل به أشياءه عليها. ويقع الجمال من خلال الرؤية البصرية، وسواء كان ذلك من رؤية جمال الشيء في ذاته، أو من جمال كثرته، أو ما يتم اتخاذه منها للزينة والجمال والبهاء في البيوت من الفرش والأغطية، وما تلبسونه، وتتجملون به، وما ينجم عن ذلك من الراحة القلبية والنفسية لكم، وكذلك يشمل جمال سيرها، وكثرتها، وما تُحدثه تلك المناظر من الجمال المبهج لكم. مما يدل على عناية منهج الإسلام بالجمال والتجمل، وأنه أمر يراعي الفطرة البشرية.

ومن دقة البيان أن نسب السياقُ وقوع استشعار الجمال على الإنسان الذي خُلقت له تلك الأنعام ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ فالجمال الذي فيها ومنها هو لكم، فأنتم الذين تنعمون وتتجملون بالأنعام. فإنه امتنان عظيم من الله تعالى على الإنسان بهذه النعمة العظيمة الجليلة، ليدل على أن ذلك آية على وحدانية الله تعالى، وعلى ربوبيته وألوهيته. وفيه كذلك إظهار الطبيعة البشرية في محبة الجمال، وأنه سبحانه وتعالى لم يذم أو يحقر تلك المشاعر، بل قررها لهم.

ومن الإعجاز البياني كذلك ارتباط الجمال بالسير بها، لأنه الأظهر والأبرز، وجعل ذلك في وقتين مهمين، تجتمع فيه الأنعام ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ فكلمة ﴿ حِينَ ﴾ أفادت الوقت، وكلمة ﴿ تُرِيحُونَ ﴾ أي: وقت مجيئها من مراعيها ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أي: وقت سيرها وذهابها إلى مراعيها. وذكر القرطبي والشوكاني رحمهم الله تعالى عن تقديم مجيئها على ذهابها: وقدم الإراحة على التسريح لأن منظرها عند الإراحة أجمل، وذواتها أحسن. لكونها في تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب، وخص هذين الوقتين لأنه وقت نظر الناظرين إليها[١] ومن غزارة دلالة النص الكريم هو وُرُود الرَّواح والسَّراح بصيغة المضارع

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٨/١٠) والشوكاني، فتح القدير (١٤٨/٣) وهو المنقول عنه.

﴿ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴾ الذي يدل على الدوام والاستمرار وعدم الانقطاع، فهو دأب الأنعام كل يوم، فيتكرر رؤية الجمال الذي يصاحبه التَّنَعُّم القلبي والنفسي صباحاً ومساءً ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴾ مما يفيد: استثارة الذهن للتأمل والتدبر في هذا التسخير، وهذا الترابط، وهذا البيان العظيم الحكيم، أفلا تعتبرون، وتتقون الله تعالى أيها الناس. فسبحان من خلق الجمال وأشاد به، وأبان رؤيته في الأنعام، وأظهره عليها، وخص وقت رواحها وتسريحها، ووقت تجمعها وتكاثرها، وأبان وخص وقت قوة أثر جمالها على ما دونه، فَقَدَّم ذروة الأثر حين رواحها على وقت تسريحها، فورد الترتيب على مقتضى رُتْبَت الجمال وأثره على ما دونه حين تسريحها. فهي بلاغة في البيان، وقوة في لفت الانتباه، من خلال دقة الترتيب في التقديم والتأخير، فقد أوضح التقديم والتأخير أن قوة جمال الأنعام وذروته يتمركز في نشاطها حين عودتها من مراعيها، بعد أن شبعت وارتوت، فتغذت، لتزداد جمالا حين عودتها على جمالها حين تسريحها لمراعيها. وربط بين الجمال وقوته بتقديم الأكثر ظهوراً على الأدنى منه. وأثبت أن في كل من الرواح والتسريح جمال، غير أنه عند الرواح أكثر وأظهر. وفي ذلك دقة متناهية في الترتيب بالتقديم والتأخير، فسبحان من أعجز ببيانه عباده، ليكون في بيانه آية وحجة ودلالة.

ثم يتدرج البيان بالمخاطبين إلى نوع آخر من تسخير الأنعام للأنام، بأنها تحمل أحمالكم من بلد إلى بلد، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي: فتحملون عليها أمتعتكم وتجارتكم ولوازمكم الثقيلة، والتي تعجزون عن حملها على أكتافكم إلى مسافات بعيدة، لتبلغوا بها مرادكم، فسمى الله تعالى ما تحمله بعض الأنعام بالأثقال ﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ ﴾ وذلك للفت الانتباه إلى حجم وثقل ما تحمله، بما يفيد العجز البشري من أن يتحمل حَمْلَهَا الإنسان حتى يبلغ بها مقاصده من الأماكن والبلدان ﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ ﴾ فإن بلوغكم البلاد البعيدة لا يتحصل لكم إلا بمشقة عالية، لِثِقَل ما تحملونه معكم من الأمتعة وغيرها من حاجاتكم، فلن تبلغوا مقاصدكم من تلك البلدان من دون وغير ما تحمله لكم أنعامكم من الإبل إلا بمشقة مضنية، وتعب لا تطيقونه. فبرحمة من الله تعالى خلق وذلل لكم تلك الصعاب، وسَهَّل عليكم مشقة السفر، وما تريدون نقله من بلد إلى بلد من أثقالكم بتلك الأنعام، فتحملكم، وتحمل أثقالكم.

ثم يلفت الله تعالى عباده إلى عظيم رحمته بما سخره لعباده ﴿ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ فإن هذا التسخير هو من رحمة الله تعالى بكم أيها الناس، مما يوجب عليكم شكر ربكم سبحانه وتعالى، وطاعته

وتوحيده، وصرف العبادة له، فليس هناك غيره عَزَّ وجل سخر وهيأ لكم تلك الأنعام إلا الله تبارك وتعالى. وفي هذا تعليل للربط بين الحاجة والتسخير لها، فلولا رحمة الله تعالى بكم لما هيأ لكم ذلك، فإدراك هذه التهيئة يبين لكم رحمة الله عَزَّ وجل، وأنه خالقكم، وخالق الكون كله.

وقد بدأ البيان الكريم بأداة التوكيد ﴿إِنَّ﴾ ثم يليها التنبيه إلى ربوبيته سبحانه وتعالى ﴿رَبَّكُمْ﴾ فهو ربكم ورب جميع المخلوقات. ثم بيان عظيم أسمائه وصفاته ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فالرؤوف أي الكثير العطف والإحسان، والمخفف عن عباده ما لا يطيقون، فيسخر لهم ما يرفع عنهم المشقة، ولا يكلفهم بالتكاليف الشاقة، وهي غزارة الرحمة. والرحيم من صيغ المبالغة، الذي يفيد كثير الرحمة، أي: أن الله تعالى ذو الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء، ومن رحمته بكم أن خلق لكم الأنعام لتحملكم وتحمل أثقالكم. واللام في قوله تعالى ﴿لَرَءُوفٌ﴾ تفيد التوكيد، لتعطي تأكيداً على ما دل عليه اسم الجلالة ﴿لَرَءُوفٌ﴾ من الإشفاق على الإنسان، وسواء من حيث عدم تكليفه بما يشق عليه من العبادات، أو من رفع المشقة عنهم بتسخير مخلوقاته لهم، مِن الأنعام وغيرها. والرأفة تحمل دلالة الإشفاق مع الرحمة، والرأفة أخص من الرحمة، والرحمة أعم من الرأفة، فتشمل جميع الخلائق. وقدم الأخص على الأعم للعناية والاهتمام، وتبيانا وتأكيداً لها.

ثم يتدرج البيان القرآني الكريم إلى كشف المزيد من التسخير والإنعام على الإنسان، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يمتن اللهُ تعالى على عباده بأن خلق لهم ما يستعينون به في ترحالهم، من ركوب المذكورات من الخيل والبغال والحمير، حتى تندفع عنهم المشقة، وترتفع عنهم الكلفة والتعب، فذكر عَزَّ وجل أصنافاً ثلاثة ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ فهذه الأصناف الثلاثة متوافقة في خدمة التنقل، وخدمة حمل الأثقال لكم ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ وفي تخصيص الركوب دون المنافع الأخرى، ما يفيد رفع المشقة الذاتية، لأشخاصكم، لأن الركوب هو أبرز منافعها ومقاصدها المتعددة، وذلك لخفة التنقل بها، مع تفاوت سرعتها في سيرها وجريها، وبحسب نوع الحاجة ونوع القدرة المطلوبة للحاجة، بخلاف الإبل فإنها لا تكون في التنقل القصير والسريع.

ثم عطف البيان الكريم الزينة على الركوب ﴿وَزِينَةً﴾ أي: من مزيد التفضل على رفع مشقة السير على الأقدام فإنها زينة لكم، تتزينون بها في المظهر، وفي التملك لها، وهي جمال في حسن خلقتها، وجمال في منظرها. فإن الزينة هي في ذات الأصناف الثلاثة، فهي زينة في حجمها، وشكلها، وصورتها، وتقاسيم جسمها، وارتفاعها وطولها، واتساق ظهورها، وألوانها، وشعرها، فليس فيها شيء إلا وهو زينة لا عيب ولا نقص فيه، فإن في انفرادها زينة، وفي تجمعها زينة، وفي مشيها وحركتها زينة ومتعة، وفي امتلاكها زينة، مما يبين عظمة ما

امتن الله تعالى به على عباده، وعظيم ما خلق، تنوعاً وحجماً وسرعة وقدرة. وإن في تنوع ما خلق عَزَّ وجل، وتناسبه مع حاجة الإنسان إليه في حياته آيات وعِبَر ودروس، تدل وتُرشد الإنسان على أن لهذا الكون خالق ومدبر عظيم، فإن له كمال العظمة والكبرياء، وعظيم السلطان والجلال، وأنه رَبَّ كل شيء ومالكه، وأنه واحد لا شريك له، ولا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم يتدرج البيان إلى تعميم خلقه لِمَا لم يحيطوا به علماً، فقال عَزَّ وجل ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأثبت تبارك وتعالى للمخاطبين أنه مع هذه المخلوقات المذكورة المعروفة لديكم، فإنه يخلق ما تجهلون معرفته من المخلوقات، فكل مجتمع من الدنيا فيه مزيد من المخلوقات التي لا يدركها المخاطب، لتفاوتها. إضافة إلى ما يستجد من المصنوعات كالطائرات والسيارات وغيرها. قال السعدي رحمه الله تعالى بعد أن ذكر قوله تعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو ما يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكره لم يعرفوه، ولم يفهموا المراد به. فيذكر سبحانه وتعالى أصلاً جامعاً، يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة، وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيراً في قوله تعالى ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾[١]

فمن غزارة الدلالة في قوله تعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنها تضمنت واتسعت لما لا يعرفون مما ليس لهم القدرة على إدراكه في قابل الأجيال والأزمان القادمة والمتعاقبة. وبالتالي سيستجد ما لا نعرفه اليوم، كما استجد في وقتنا ما لم يدركه من سبقنا من الأجيال. فسبحان الله العظيم، الذي أظهر الإعجاز في بيانه، كما أظهره في خلقه وسلطانه.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى إعجازه في خلقه، وإعجازه في التناسق بين حاجة الإنسان وبين ما خلق من الأنعام والدواب وغيرها من المخلوقات، ينتقل البيان الحكيم الكريم إلى الجانب القلبي والمعنوي، المتعلق بالهداية، بعد أن ذكر عَزَّ وجل الجانب الحسي ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فإن على الله تعالى هداية من قصد ورغب في طريق الحق والهداية والاستقامة، فإن الله تعالى متكفل بتوفيق وهداية الإنسان إليه، وهو الإسلام ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وَعْدِهِ المحتوم، وتفضله الواسع، وقيل: وعلى الله بيان قصد السبيل، والسبيل هو الإسلام، وبيانه بإرسال الرسل، وإقامة الحجج والبراهين، والقصد في السبيل

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٤٩)

هو كونه موصلاً إلى المطلوب، فالمعنى: وعلى الله بيان الطريق الموصل إلى المطلوب[١] فقد تكفل تبارك وتعالى بدلائل معرفة الحق، من خلال المرسلين، والآيات والحجج والبراهين، وكذلك توفيق وهداية من ابتغى الهدى والحق. وجملة ﴿ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ تشمل المقصود الأول وهو الإسلام، وتستوعب كل طريق للحق والخير، لأن السبيل يعني: الطريق: والقصد يعني: الاستقامة. وبالتالي تستوعب جميع طرق الحق والخير، فإن من رغب في تعلم القرآن وفقه الله تعالى وهداه، ويسر له ذلك، ومن أراد المزيد من الطاعة، وفقه الله تعالى لذلك، وأن من تحرى الصدق، وفقه عَزَّ وجل لذلك، لتستوعب جميع مفردات وآحاد مقاصد الحق والخير كلها، وعلى رأسها الإسلام. فعلى الله تعالى هداية قاصد الطريق المستقيم.

وفي تدرج البيان من المحسوس إلى الجانب القلبي والمعنوي ارتقاء بالعقل وبالبيان، بما يؤكد أهمية ذلك في الجانب الدعوي والتعليمي والإرشادي، بل ويقدم منهجه سبحانه وتعالى تطبيقاً منهجياً في أساليب البيان والتعليم، والارتقاء بالعقل وفق تدرج ارتقائي عظيم الأثر والبيان. وهذه الجملة الكريمة ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أقوى بيان في وصف استقامة المقصود، لأن القصد هو الطريق الذي لا عوج فيه، وفي تظافره مع كلمة السبيل، أعطى قوة في البيان، وقوة التأكيد في تحققه، وقوة في دلالته. من أن منهج الإسلام مستقيم لا عوج فيه، وأن الله تعالى يُعين ويُوفق من أراده. وبالتالي فإن من قصد طاعة الله تعالى، يوفقه جَلَّ في علاه إن كان الطالب مخلصاً في نيته لله عَزَّ وجل.

ولما ذكر تبارك وتعالى السبيل المستقيم ذكر الطريق المنحرف باعوجاجه وانحرافه عن الحق ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ ومن السبيل سبيل جائر، وهو الذي عَدَلَ عن القصد، إذ لَعِبَت به الأهواء، فانحرف عن الطريق المستقيم، فيشمل بذلك جميع أهل الأهواء المختلفة، التي نأت عن الحق، وابتعدت عنه. وفي هذا تنبيه وتحذير من السُّبُل الجائرة. ليتبين أن هناك من الناس من يتبع الأهواء الباطلة، فلا تغتروا بهم يا طالبين الحق، واحذروهم، واسلكوا سبيل الاستقامة الواضحة. وكذلك هو تحذير وتنبيه من مسالك الباطل.

ثم بين تبارك وتعالى أن هذا الاختلاف لا يعني العجز عن هداية جميع الخلق، وإجبارهم على الهداية، وقصرهم عليها قصراً ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فلو أن الله تعالى أراد من المنحرف العاصي أن يستقيم لألزمه ذلك، ولطَوَّعَهُ بما أراد، فجعله مُلتزم بالطاعة كما أراد الله تعالى، ولكن قضت حكمته أن أعطى العباد مشيئة يحاسبون عليها. مما يبين أن انحراف من انحرف لا يعني خروجه عن قدرة الله تعالى، ولكن اقتضت حكمة الله تعالى أن يجازي كل نفس بما كسبت. فأوضح وأبان سبحانه وتعالى طريق الحق المستقيم،

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/١٤٩)

الذي يسير بمن يسلكه إلى الجنة، ويوفق ويهدي من أناب إليه. وأما من عصى فإن عاقبته سوء المصير. وبالتالي فإن مما يجب معرفته من هذا البيان الرباني، أن الله تعالى حكيم، وعادل، فلا يظلم أحداً أبداً، وأنه عَزَّ وجل أبان الطريق المستقيم الذي يسعد به الإنسان في الدنيا والآخرة، وأن من أراد الهدى وفقه الله تعالى وسدده، وأعانه عليه، وأن الله تعالى جعل للإنسان ما يميز به الصواب من الخطأ، والحق من الباطل، وأن للإنسان مشيئته، وأن الله تعالى لو أراد أن يلزم العباد كلهم بالإسلام لألزمهم، وذلك لقدرته وسلطانه، ولكن لكل امرئ ما اكتسب.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

ويستمر البيان من الله تعالى لعباده نحو لفت الانتباه إلى دلائل ومظاهر بديع خلقه، الدالة على ملكه وربوبيته وألوهيته، وأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ووجوب إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ فهو الذي أنزل الماء الذي ارتفعت واعتلت به السحب في السماء، لأن كل ما ارتفع وعَلَى فقد سما. وقد بدأ النص الكريم بحصر إنزال المطر في مشيئته وقدرته وإرادته سبحانه وتعالى، فقال جَلَّ جلاله ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾ هو الذي أنزل من السماء ماء، فإنه هو ربكم لا

غيره يُنَزِّل الماء من السماء. فيقرر سبحانه وتعالى لعباده حصر إنزال المطر في مشيئته وقدرته وإرادته، فيتبين للمخاطبين أنه لا معبود بحق إلا من أنزل لكم الماء من السماء، وأغاثكم به تبارك وتعالى.

ثم يبين عظيم امتنانه عليهم، ورحمته بعباده، بأن حصر مقصد إنزال المطر لكم أيها الناس جميعاً ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم ﴾ فهو على الأصل لكم، فأنتم المعنيون به، وإن استفاد منه غيركم، كالأنعام والنبات وسائر الكائنات الحية، فإن استفادتها منه عائد لكم، ومن أجلكم. ففي البيان دقة تحرير المقصد، بأقل عبارة، وأعمق معناً ومقصداً، وأدق وأجمل بيان، فظهر بذلك بلاغة الإعجاز، والمعاني، والدلالات من كل وجه، فسبحان الله العظيم. كما أظهر البيان عظيم التدبير والتكريم لهذا الإنسان بهذا التسخير العظيم. فإن في كل شيء له آية وحجة بالغة.

ثم أوضح تبارك وتعالى امتنانه على الناس بهذا الماء من وجهين عظيمين ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ فمن المطر الذي ينزل من السماء شراب لكم، وإنبات للشجر الذي ترعى منه أنعامكم ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ فمن هذا الماء الذي ينزل من السماء، ما يحصل به إنبات الزروع، الذي ترعون فيه مواشيكم ﴿تُسِيمُونَ ﴾ بمعنى ترعون. وفي تخصيص الشراب منه دون بقية الاستخدامات الأخرى للإنسان، كالغُسل والغسيل، والتنظيف والطبخ، ما يفيد التعظيم والبيان لشأن الشُّرُب، إذ يرتبط بشرب الماءِ حياةُ الإنسانِ وبقائه على قيد الحياة، وذلك لما يحصل به من الارتواء، فيرتوي جوف الإنسان وبدنه. فما يشربه الإنسان هو أعظم مقاصد الماء وأوله وأبرزه. والشرب هو اسم لما يُشرب.

ومن غزارة البيان ودقته تكرار لفظة ﴿مِّنْهُ﴾ التي أفادت التبعيض ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ فإن مِن مفردات الاستخدام والاستعمال للماء، هو شربكم منه الذي يمثل الوجه المباشر والأهم، ثم ذكر سبحانه وتعالى شُرب الأشجار ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ليدل على أن هناك مفردات أخرى من الاستخدام، ولكن أقواها وأهمها هو شرب الإنسان ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ وأعقبه شرب الزروع ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ وكذلك من استخدامات الماء استقاء الشجر من الماء. وأفادت ﴿وَمِنْهُ ﴾ أن من أبرز استخدامات الماء لغيركم هو سقيا الشجر، ثم يدخل غيره من الاستخدامات الأخرى لغيركم، كشرب الحشرات والدواب، والأنعام. وتكررت ﴿مِّنْهُ ﴾ مرتين، فيما يخص شربكم للماء، وفيما يخص سقيا الشجر الذي ترعى فيه مواشيكم، وذلك لإظهار قوة الحاجة لهذين الأمرين من بين الاحتياجات الأخرى: ما كان مباشراً لكم، وما

كان مباشراً لأشجاركم التي تحتاجون الماء لها، من أجل رعي مواشيكم فيها، فيبرز ويظهر بذلك قوة حاجتكم لمباشرة الماء، وقوة الحاجة لمباشرة الماء فيما تحتاجونه لسقيا مزارعكم، ولرعي أنعامكم منها. وفي هذا إظهار وإبراز الأهم، بما يدل على قوة الترتيب الذي لا يكون إلا من عليم خبير.

ومن دقائق البيان: أن كل ما ينبت من الأرض فهو شجر، ومنه المرعى، ولذلك قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: والمراد بهذا الشجر: المرعى. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: كل ما نبت على الأرض فهو شجر[1] وبالتالي فإن الشجر عام، والمراعي التي ترعى فيها المواشي جزء من العام، وهي أبرزها في هذا الموطن.

ثم يتدرج البيان العظيم إلى فروع الإفادة من ماء المطر، وما يكون به السبب في الخير ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن الله تبارك وتعالى ينبت ويُخرج بهذا الماء الزرع، وهو عام لكل ما ينبت من الأرض، ثم أفرد الزيتون والنخيل والأعناب، ثم خص الثمرات بصيغة العموم ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ فإن في هذا الإنبات من ماء المطر، وهذه العلاقة بين السبب الذي هو الماء، وما يكون منه من الزرع والثمار، وما تنعمون به لحُجَّةٌ وآية واعتبار لقوم يتأملون ويتفكرون، فيستنتجون من ذلك أن لهذا الكون إله واحد، هو الخالق والمدبر والحاكم الذي لا يستحق العبادة إلا هو عَزَّ وجل.

وقد بدأت الآية الكريمة بإضافة الإنبات له سبحانه وتعالى ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم ﴾ فإن الله تعالى هو الذي يُخرج النبات من الأرض، فلو شاء لما أخرج لكم ما تحرثون وتبذرون من بذور في الأرض، ومن كرمه بهذا الإنسان وهو الغني عن خلقه عَزَّ وجل أن جعل علة الإنبات من أجل هذا الإنسان ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم ﴾ فأنتم المقصودون بهذا الإنبات، وهذا الامتنان، فيا له من كرم وعناية تستوجب عظيم التقدير له عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى عباده في سياق عظيم من قوة البيان وغزارته وإعجازه ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ ﴾ فذكر الزرع الذي يشمل عمومه واختلافه، والذي هو غذاء لكل ما يدب على الأرض، وخص به الإنسان بالرغم من اشتراك غيره معه في الانتفاع كالأنعام والدواب والهوام والحشرات. ثم خص منها سبحانه وتعالى بالذكر أنواعاً من الأطايب على سبيل المثال والامتنان بهذا التنوع في الطعم والشكل والتكوين ﴿ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ ﴾ ثم أشار سبحانه وتعالى إلى سائر الثمرات ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ فأورد

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٦/٤)

سبحانه وتعالى التعميم بعد التخصيص لما في ذلك من زيادة التنبيه. ثم تلى ذلك الاستدلال على وحدانيته وربوبيته وألوهيته سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن في إنزال الماء من السماء، وكذلك ما في حالة وأطوار الإنبات لآية ودلالة عظيمة، وبرهان وحجة على وحدانية الخالق، وانفراده بالربوبية والألوهية، وأن له كمال القدرة والسلطان، وجمال وكمال الإحسان على هذا الإنسان ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لقوم يتأملون ويتدبرون في مخلوقات الله تعالى، وتدبيره للكون، بما يفيد أن من أهمل جانب التفكير الذي يقود إلى الاستدلال فقد عطل عقله، وترك الحق، وعدل عنه، وعاداه. مما يعني ويفيد أهمية التفكر والتأمل، وأن من تفكر وتأمل وَحَّد الله تعالى، وأطاعه، وطلب والتمس رضاه تبارك وتعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم في تدرج بديع إلى تنبيه العباد إلى عظيم ما سخره للعباد، والاستدلال بخلق آياته العظام، واتقان صنعها، وامتنانه العظيم العجيب بتسخيره الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم الثابتة، والسيارة في أرجاء السماء، تحت قهره وسلطانه وعظيم تدبيره، وحكمة تصريفه لها. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فبدأت الآية الكريمة بلفت الانتباه إلى جانب التسخير ﴿وَسَخَّرَ﴾ الذي يفيد التذليل والقهر، ونسب التسخير له مباشرة سبحانه وتعالى، فهو الذي طَوَّع، وذلل وقهر وأمر، فتسخرت المذكورات بإرادته وأمره عَزَّ وجل: من الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم على ما يريده سبحانه وتعالى طواعية وتذليلا. وفي هذا لفت الانتباه إلى قدرته، وعظيم سلطانه وتدبيره سبحانه وتعالى.

ثم خص الناس بمنافع ما سخره، فعينها بقوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ فأفادت ﴿لَكُمُ﴾ التخصيص والاهتمام، بأنكم المخصوصون بهذا الفضل من التسخير والتذليل للمذكورات، وفي هذا بيان عظيم لكرمه سبحانه وتعالى، وعظيم عنايته بهذا المخلوق الذي هو الإنسان، إذ تسخرت طواعية تلك المخلوقات وغيرها لهذا الإنسان، انعماً وإكراماً منه تبارك وتعالى لهذا الإنسان. وذكر من مخلوقاته تلك المتصفة بالنور والضياء، وهي الشمس والقمر والنجوم، وما ينجم عنها من أثرين عظيمين، هما: النهار والليل، فذلك النهار الذي يخرج من الليل في تدرج بديع، وما يحدث بين السبب المسبب، فينقشع الليل بقوة ضياء الشمس، ثم يجيء الليل بغياب ضوء الشمس، وخروج نور القمر والنجوم، ليكون النهار ضياء لتحصيل المنافع من التكسب والتنقل وغيرها من المنافع التي لا تُعد ولا تُحصى. ومجيء الليل الذي هو راحة وسكون للأجسام والعقول، وراحة للأبدان، ومع ذلك فيه النجوم المسخرة من الله تعالى ليهتدي بها الناس في ظلمات الليل، فيعرفون بها الاتجاهات، وساعات الليل، وأوقاتهم، وحاجاتهم المختلفة. وفي هذا بيان لعظيم صُنعته سبحانه وتعالى، وجمال تدبيره وتسخيره، ودقة ما سخره من حيث الحركة، والتلازم، والتعاقب، من غير تأخير ولا تقديم. وكل ذلك

هو لهذا الإنسان، الذي كان الأولى به أن يتعلق قلبه بطاعة ربه تبارك وتعالى، الذي سخر له ما فيه مصلحته من عظيم مخلوقات هذا الكون العظيم، وأن يتأمل في هذا التدبير المتناسق العظيم، والذي يدل على عظمة خالقه تبارك وتعالى، وعظمة قدرته وتدبيره جَلَّ في علاه، وأنه لا أحد يمكن أن يكون له شيء من ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، فكيف يعبد هذا الإنسان مخلوقاً صامتاً، لا حيلة ولا قوة له، ويترك من خلقه وسخر له الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم.

ومن بديع البيان أن ذكر الله تعالى التسخير مرتين: الأول: عن الليل والنهار والشمس والقمر ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ فجمعها تحت بيان واحد من التسخير، ولكن أفرد النجوم بالتخصيص من بين تلك الآيات العظيمة ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فأفرد تبارك وتعالى النجوم، للمزيد من لفت الانتباه لها، لصغرها مع كثرتها، ولأن النهار أقوى بوضوحه، والليل مُلفت الانتباه بسواده، وهيبته، فيكون الالتفات لما في النجوم من آيات معرفة الأوقات والاتجاهات، إضافة لجمال توزيعها وتناثرها في السماء. فلفت سبحانه وتعالى بحكمة تعليمه وتنبيهه، لما في النجوم من آيات عظيمة، كتحديد الاتجاهات، وتوقيت الزمن في الليل، وما في حركتها من بديع الدقة، وما فيها من الآيات العظيمة، التي تسير وفق ضبط وانضباط عظيم، ودقة لا يمكن أن تكون إلا من خالق عظيم، منفرد بالربوبية والألوهية والعبودية.

ثم أكد تبارك وتعالى هذا التسخير بأنه ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فهو عَزَّ في علاه الذي أمر وقَدَّر وحكم ودبَّر هذا التصريف بحكمته، وعظيم مشيئته التي أظهرت عظيم خلقه وسلطانه وتدبيره سبحانه وتعالى. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ فإن في خلق هذه الآيات العظيمة، وتسخيرها لحجج وبراهين لمن يتعقل ويفكر ويتدبر، لأنه يأتي عن التعقل: التدبر والتفكر والاستنتاج الذي يقود صاحبه إلى الحق والحقيقة، بما يفيد أن الذي يعطل عقله، ولا يستفيد منه، فإنه في ضلالة، وفي تيه من أمره وعن رشده، مما يبين نعمة وفضل العقل، وأهميته في الاهتداء، وأن على الإنسان أن يوظف عقله في تَدْبُّرِ الحق والتمسك به.

ثم يعطف الله تبارك وتعالى آيات الخلق ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ على ما سبق من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، لبيان المزيد من الآيات الدالة على أنه عَزَّ وجل هو الخالق الصانع المدبر، الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، فهو المالك المسخر المحيي والمبدع للكون من غير سابق له، فيقول تبارك وتعالى عطفاً على ما سبق ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ وكذلك سخر لكم ما ذرأ لكم، مما خلق لكم في الأرض من الدواب والثمار، فإن خلقها آية

قائمة بذاتها، وملفتة للنظر والفكر، وكونها لكم، وأنتم المخصوصون بها ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ آية ثانية عظيمة، فكونها لكم، تفيد أنها مسخرة لكم، من حيث التذليل، ومن حيث اتساقها وتوافقها مع حاجتكم، وفيها رفع للمشقة عنكم، فكل ذلك آيات عظيمة ملفتة للفكر والتأمل. وآية أخرى عظيمة، وهي أنه مع اتحاد أصل الذرء إلا أنها قد اختلفت في ألوانها تلك المخلوقات ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾ فهناك إبداع عظيم في اختلاف ألوان المخلوقات، بل حتى في تعدد درجة اللون الواحد، وإعطاء كل مخلوق ما يناسبه من الألوان ومن الدرجة المناسبة له، فلا تجد لوناً لا يتناسب مع شكل وحجم المخلوق، بل إن ألوان المخلوقات في تناسق بديع ودقيق. فإن جميع ذلك آية وحجة وبرهان دال على أن الله تعالى رب كل شيء ومالكه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ففي جميع ذلك حجة قاطعة لأُناس يتذكرون.

وقد ورد في هذه الآية الكريمة التذكر ﴿لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ لأن التفكر فيما أشار الله تعالى إليه من اختلاف الألوان يحتاج إلى أن يستعيد تذكر الألوان فيعيد فيها التأمل، فينظر إلى اختلاف تلك الألوان في جنسه، وفي الحيوان، وفي النبات، فيحتاج إلى التفكر والتأمل لاستعادة الألوان بعملية التذكر. فإن في خلق الله تعالى إبداع إعجازي كما أن في سياق بيانه إعجاز بياني باختيار اللفظ الدقيق الذي يتناسب مع مقاصد التوجيه الكريم، وحاجة الْمُوجَّه، وأداة التحليل التي هي العقل واحتياجها. مع التأمل في اختلاف ألوانها الذي يتطلب أيضاً التفكر في اختلاف الألوان في الجنس الواحد، وكذلك تباين اختلاف درجة اللون بين الأجناس بما يناسبها، فيضفي عليها ذلك الاختلاف جمالاً يوائم حجمها وشكلها، فمن تأمل وتعمق في التأمل، سيدرك عمق ما دلت عليه الآية، وشدة ما يحتاجه من عمق التذكر، فسبحان من أعجز بكلامه عباده.

ومن جميل البيان أن كلمة ﴿ذَرَأَ ﴾ تفيد معنى: الخلق والإنشاء، ومنها الذرية، ذرأ لكم الذرية، ففي الفعل اتساق بينه وبين كل من له ذرية، من الإنس والجان، والحيوان. وكذلك تدل كلمة ذرأ على الإنماء، وعلى الإنبات كما دل عليه قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ أي: مما خلق. فالحرث هو: الزرع، وأما الأنعام فهي: الإبل والبقر والغنم.

ثم يتدرج النص الحكيم إلى بيان تسخير الله تعالى للبحار، وما فيها من مخلوقات عظيمة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى

ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يلفت اللهُ تعالى انتباه عباده إلى دلائل ومظاهر بديع إنشائه في خلق وتسخير البحر ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ وقد بدأ النص الكريم بحصر تسخير البحر في قدرته ومشيئته وإرادته سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ﴾ فهو وليس غيره الذي ﴿ سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ وكلمة ﴿ سَخَّرَ ﴾ أفادت التذليل والقهر، وقد نسب سبحانه وتعالى التسخير له مباشرة، بجملة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ﴾ فهو الذي طَوَّع، وذلل وقهر وأمر، فإن تسخير البحر وما فيه من مخلوقات بأمره وإرادته عَزَّ وجل، ووفق ما أراده طواعية وتذليلا. وفي هذا لفت الانتباه إلى قدرته، وعظيم سلطانه وتدبيره سبحانه وتعالى.

ثم خص الإنسان بما سخر من المنافع، فعينهم بقوله تعالى ﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً ﴾ وكذلك ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ إنها عناية خاصة بجنس الإنسان، وامتنان عظيم من الله تعالى لهذا الإنسان، فلسان الموقف والبيان هو: ما موقفك من ربك أيها الإنسان تجاه هذا التسخير العظيم؟ فإن المحصلة من ذلك التسخير هو تحقيق العبودية لله تعالى بشكره والثناء عليه ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فأفاد ذلك التخصيص والتنصيص من الله تعالى: عنايته عَزَّ وجل بالإنسان وبشؤونه، وأنه محل رعاية وعناية واهتمام من ربه تبارك وتعالى. فإنكم أنتم المخصوصون بهذا الفضل من التسخير والتذليل للمذكورات. وفي هذا بيان لعظيم كرمه سبحانه وتعالى، وعظيم عنايته بهذا المخلوق الذي هو الإنسان، إذ سَخَّر وطَوّع البحار وما فيها لهذا الإنسان، فإن الإنسان هو المعني بذلك، انعاماً وإكراماً منه تبارك وتعالى للإنسان. وقد ورد لفظ ﴿ ٱلْبَحْرَ ﴾ بصيغة المفرد، ليتبين أن جميع تلك البحار على مختلف أشكالها وأحجامها وسعتها وامتدادها فإنها تشكل جنساً واحداً، وأن كل المذكورات من المسخرات في البحار هي موجودة في جنسه أينما أبحرت فيه. وهذه دقة وإعجاز بيان في علة إفراد البحر، وتعداد مكوناته، وبيان وجه العلاقة بين تسمية البحر بجنسه، وإفراد بعض مكوناته بالذكر.

فإن الله تعالى بحكمته ورحمته هيأ لهذا الإنسان جميع سُبُل الحياة والمعاش في الدنيا، ومن ذلك تهيئة وتسخير البحر له ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ ويتضمن تسخير البحر تهيئته للإنسان من كل وجه، ليبتغوا فيه وبه من فضله المتنوع والمتعدد سبحانه وتعالى، فتصطادون منه الأسماك التي لا حصر لأنواعها وأحجامها وأشكالها وطعمها، فتأكلوا منه لحماً طرياً لطيفاً ليناً، وتأخذوا من مكنوناته، من غير أن يحصل منه لكم أذى. وكذلك من أوجه تسخيره سبحانه وتعالى أن هيأ البحر للسفن. وجعل للحيتان والأسماك فيه حياة واسعة

متعاقبة، فلا تتناقص بأكل الإنسان لها، إذ تتوالد وتتكاثر في مساحة البحر الواسعة، فتصطادوا منه ما تشاؤون دون عناء منكم لصيدها.

ثم بين عَزَّ وجل علة تسخيره، وأنواع تسخيره، فمن ذلك ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فخلق البحر، وخلق ما فيه من أنواع الأسماك لتأكلوا منه ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فإن من صفات أسماك البحر التي تصطادونها أن لحمها ليناً وطرياً، أي: رقيقاً لطيفاً، وفي ذلك إرشاد العباد إلى تأمل رخاوته، وامتنان من لدنه سبحانه وتعالى به لهم ، بما يفيد أن طبخه لا يحتاج مشقة ولا وقتاً طويلاً. وكذلك مما سخره لكم في هذا البحر استخراج الحلية التي تتزينون بها، أو تُزينون بها ما تريدون من أشيائكم ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي تستخرجون من البحر زينة تتحلون وتتجملون بها، أي: بلبسها أو إلباسها لممتلكاتكم، وهي اللؤلؤ والمرجان، وغيرها مما في البحر، وفي هذا إشارة إلى أن هذا الدين هو دين جمال وتجمل، وأن التجمل أمر يتناسب ويتوافق مع الطبيعة البشرية والفطرية، وأن الله تعالى بدينه القويم لا يمنع ولا يُزّهد في الحلية والزينة بالقدر المشروع، الذي شرعه الله تعالى في دينه، وأن هذا الدين لا يحارب الفطرة البشرية التي فطر اللهُ الناس عليها، وإنما يضبطها في مسلكها بما شرع.

ومن لطائف البيان ودقته أن وردت كلمة الاستخراج للزينة بصيغة الكثرة والتكرار ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ﴾ التي تبين وتنبه الْمُخَاطَب إلى أن تحصيلها متصف بالكثرة التي لا تنتهي ولا تنقص مهما أخذتم وجمعتم منها، لتغطي وتلبي حاجتكم المستمرة التي لا تنقطع، بما تستخرجونه من البحر، ومع ذلك فهي مسخرة، ومتيسرة لكم، فيمكنكم تحصيلها بِسُبُل التحصيل، وإن إيجادها وخلقها هو من أجلك أيها الإنسان. كما يدل صياغة الفعل ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ﴾ على الاستمرار في الاستخراج، بما يدل ويفيد على كثرة الحلية التي في البحار، وأن تكرار استخراجكم لها لا يُنقِصُها، وبالتالي فإنها لا تنتهي بأخذكم منها، فإن استمرار الخلق والإيجاد مستمر، نعمة وآية من الله تعالى وفضل. فإن في هذا البيان من الله تعالى ما يستثير ويسترعي الانتباه والفكر إلى عظمة الخالق، وكثرة إنعامه على عباده، وعظيم خلقه وتدبيره، والموازنة بين الحاجة ووجودها. وكل ذلك يلزم منه أن يُوحد الإنسان ربه جَلَّ جلاله، وأن يعبده محبة له عَزَّ وجل، وخوفاً من عقابه. فيمتثل لرسوله صلى الله عليه وسلم

ثم يَلفِتُ تبارك وتعالى نظر العبادِ إلى التأمل في السفن، أثناء إبحارها فوق سطح البحر، إذ طَوَّع ذلل البحر لتلك السفن، فسارت فيه متنقلة من مكان لآخر بكل يسر وسهولة ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فقد أورد تبارك وتعالى النظر والتأمل بكلمة ﴿وَتَرَى﴾

التي يتحقق بها نظر البصر في آية تسخير البحر لتلك الفلك التي تجري فيه، ثم لينتج عن هذ الرؤية البصرية رؤية البصيرة بالتأمل والتفكر في هذا التسخير العجيب العظيم. بما يفيد أن من دواعي خلق الحواس والعقل هو تحصيل الاستدلال للإنسان بالخلق على الخالق العظيم، فيحصل بذلك الإيمان بالخالق عَزَّ وجل، وطاعته، والاستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من التنزيل والحجج والبراهين، وأن من لم يستخدم عقله وحواسه فيما خُلقت له فقد حاد بحواسه عن الحق، وسلك بها مسلك الجهل والباطل.

فحث تبارك وتعالى على تأمل الفُلك في جريانها على سطح البحر ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ التي هي السفن، وهي ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي: تشق البحر، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: المخر في كلام العرب: صوت هبوب الريح إذا اشتد هبوبها، وهو في هذا الموضع صوت جري السفينة بالريح إذا عصفت، وشقها الماء حينئذ بصدرِها[1] فشمل المعنى سيرها وهي تشق البحر بصدرها، مع صوت هبوب الريح إذا اشتدت هبوبها، فجمعت وحوت دلالة ﴿مَوَاخِرَ﴾ صوت الريح وقوته، وكذلك صوت جري السفينة بالريح، فإنه أمر هذا التسخير يستثير التعجب والتأمل، الذي يلزم أن يتحقق به الإيمان والتصديق بما أمر الله تعالى به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يؤكد أهمية التدبر، وأن هذا الدين هو دين علم وتدبر وتفكر، ودين يقوم على الحقائق والبراهين التي لا يزيغ عنها إلا معاند ومكابر للحق الواضح المستبين.

ثم بعد تخصيص التسخير أورد تبارك وتعالى التعميم بنعمة نيل الفضل وطلبه، فقال تعالى ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لتطلبوا رزق الله تعالى بهذا الإبحار في البحر، مع البيان والتذكير لهم بجليل نِعَم البحر، بما يحققه لكم من عموم فضله من الأرزاق المختلفة. وبما يتحقق به من عموم فضله عَزَّ وجل، من خلال سيركم بالبواخر فيه ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وورد الفضل بصيغة العموم، ليشمل كل ما يمكن تحقيقه من أنواع رزقه عَزَّ وجل: كالصيد والمتاجرة به، واستخراج الحلية من البحر، وتجارة نقل الناس والدواب والأنعام والأرزاق المختلفة من مكان لآخر، ومن مجتمع لمجتمع غيره، بل وجميع أصناف ما يبتغيه الإنسان من التجارة في البحر، وعبر البحر. ثم لفت ونبه تبارك وتعالى إلى أن المطلوب من العباد هو شكره سبحانه وتعالى على هذا الإنعام والتفضل، وهذه النعم العظيمة الجليلة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فلعله يحصل منكم الشكر والثناء على الله تعالى بما هو أهل له، ويشمل الشكر عموم الطاعة بجميع أنواعها القولية والعملية والاعتقادية. والشكر يكون تلفظاً باللسان، واعتقاداً بالقلب، والعمل بالصالحات من الطاعة، والامتثال لله تعالى بما أمر، والانتهاء عما نهى عنه، فهو الذي أنعم ورزق. مما يوضح للمؤمن بأن إنعام الله تعالى غايته الشكر

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/١٨٨)

والحمد والثناء على الله تعالى بما أعطى وأنعم، وأن يستخدمه في طاعته عَزَّ وجل. فإنها مدرسة الإيمان والخير والعبودية والتواضع والشكر للمنعم عَزَّ وجل.

وقد ورد الحث على الشكر بأسلوب الترغيب إذ أفادت **(لعل)** الحث والترغيب والتحضيض لهم على مداومة الشكر. وورد الشكر بصيغة المضارع المستمر، ليفيد الشكر الدائم المستمر؛ الذي لا ينقطع. وقد جمع الله سبحانه وتعالى للإنسان هذه النعم التي لا تحصى ولا تُعد. اللهم وفقنا لشكرك وذكرك بما يرضيك عنا.

ثم يتدرج البيان الحكيم إلى مُوجِب التأمل في عظمة تسخير الله تعالى للأرض وما عليها من الجبال الرواسي، التي جعلها الله تعالى أوتاداً للأرض فلا تهتز ولا تضطرب، فيتأذى الإنسان. قال عَزَّ وجل ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي: فجعل ربكم الجبال في الأرض ثابتة ومُثبتة لها عن الاضطراب والاهتزاز والحركة، وذلك رحمة بالإنسان، وكذلك جعل فيها أنهاراً من المياه التي تجري في ربوع الأرض، وكذلك جعل في الأرض طُرُقاً ومسالك كثيرة، حتى يسير من خلالها الإنسان، ويتنقل بين أرجاء الأرض بيسر وسهولة.

وكلمة ﴿ وَأَلْقَىٰ ﴾ بمعنى وجعل، أي: وجعل في الأرض رواسي، خاصة وقد ورد عطف الرواسي على الأنهار والسُّبُل، لتعطي دلالة الخلق ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا ﴾ ولكن كل كلمة في القرآن لها دلالة دقيقة في استخدامها دون غيرها، فلا يمكن أن تحل غيرها مكانها من الكلمات، وذلك لما تحمله كل كلمة في سياقها من مقاصد ومعاني، فأفادت كلمة ﴿ وَأَلْقَىٰ ﴾ شد الانتباه إلى وجود الجبال وكأنها طُرحت وأُلقيت على الأرض القاء، وذلك لبروزها وارتفاع قوامها فوق سطح الأرض، وكأنها أُنْزِلَت فرُكِّبت فوقها، وهذا من جميل البيان ودقة توظيف اللفظة والكلمة، بما يحقق المقصد والمراد. وقد سمى الله تعالى الجبال في هذا السياق بما يناسب علة وجودها ﴿ رَوَٰسِيَ ﴾ وهذا من بديع السياق وإعجازه، لأن الرواسي من الإرساء، والتثبيت، والتمكين، ورسوخها في أماكنها، مما يدل على ثبات الجبال، وأن للأرض حركة، فثبت الله تعالى حركتها بالجبال. ثم ذكر تبارك وتعالى علة تثبيت الأرض بالجبال الرواسي، بأنها من أجلك أيها الإنسان، حتى لا ترتجف بك الأرض ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي: حتى لا تضطرب بكم أيها الناس، لأن الميد هو التحرك. ولم يقتصر البيان من الله تبارك وتعالى على مفعول وأثر تثبيت الجبال للأرض فقط، بل أكد أنها من أجلكم أيها الناس، وذلك بإضافة ﴿ بِكُمْ ﴾ فأنتم المقصودون من هذا التثبيت أيها الناس، فإنها رحمة ربكم بكم. فلقد أكرم الله جَلَّ في علاه هذا الإنسان، وأخبر وبَيَّنَ وأوضح إكرامه له بأنعام وغايات

وعللٍ عظيمة، وعناية بشأنه عناية فائقة جليلة كريمة، فما موقفك أيها الإنسان تجاه من اعتنى بك هذه العناية الجليلة، فإن الواجب أن يكون حال الإنسان مع الله تعالى مثالاً للطاعة والاستقامة، والائتمار بما أمر، والانتهاء عما نهى، وأن يلهج اللسان والقلب بالحمد والشكر له سبحانه وتعالى.

ثم ذكر عَزَّ وجل نعمة تسخير الأنهار ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ التي إذا تأملها الإنسان أدرك عظمة وجودها، ونعمة فضل ما فيها، وفضل تسخيرها وتسخير ما فيها، إذ كيف شق الله عَزَّ وجل لها المجاري في الأرض، فأصبحت تجري الأنهار بمائها نحو البحار، دون أن تنضب، أو أن تفيض، فتتجاوز مسارها، فيغرق الإنسان، والمزارع والمنازل، بل إنها تسير في سكون وأمان، لينتفع بها الإنسان في حياته وشؤونه المختلفة. ثم تلى ذلك بيان آية السُّبُل ونعمة الطُّرُق البرية، بعد ذكره عَزَّ وجل للطرق المائية ﴿وَسُبُلًا﴾ أي: الطرق الظاهرة للعيان في الأرض، ومعالمها الكثيرة والمتنوعة، حتى أنك لتجد تلك الممرات والْسُّبُل بين الجبال وبين الهضاب، ليمر من خلالها الإنسان بدوابه ورواحله. وقد وردت الْسُّبُل ﴿وَسُبُلًا﴾ بصيغة الجمع، ليدل على كثرتها وتعددها في الأرض.

ثم أوضح وبين تبارك وتعالى علة ذلك ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لعلكم بهذه الطرق تهتدون لمرادكم، وفي ذلك ربط الْمُخاطَب بين وجودها وعلة وجودها، وبين أنها وسيلة لكم من الله تعالى، لتهتدوا بها في تنقلكم، وفي أسفاركم. وفي ذلك لفة الانتباه إلى هذه النعمة العظيمة التي تستوجب شكر لله تعالى، والثناء عليه بما هو أهله، والاستدلال بها على قوة ودقة تدبير الخالق، الموصلة إلى استشعار عظمته وهيبته وجلاله، وجلال سلطانه، وقوته وقدرته عَزَّ وجل. وكما أن للدنيا سُبلاً للاهتداء فإن للآخرة سُبُلاً للاهتداء، والتي جاء بها الرُّسُل، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يتدرج البيان إلى سبب وعلة خلق المعالم والنجوم ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فلفت سبحانه وتعالى فكر وعقل الإنسان إلى أمرين آخرين، يستفيد منهما الإنسان في حياته دون أن يعي فضل الله تعالى عليه بها، **فالأولى: المعالم** ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ وهي: الأمارات والعلامات التي في تلك الطرق والْسُّبُل فيهتدون بها، لأنها علامات للأمكنة التي يقصدونها، فلا يتوهون ولا يضيعون في الأرض أثناء سفرهم وتنقلهم، فيهتدون بالنجوم في أسفارهم ليلاً، وأما في النهار فيهتدون بتنوع أشكال المعالم. فإن المتأمل يجد حتى الجبال بأشكال وأحجام مختلفة، بالرغم من كثرتها، لتكون عوناً للإنسان على الاهتداء، فلا يتوه في الأرض، فضلاً عن تعدد السبل واختلاف أشكالها. فهناك معالم الأودية، والجبال، والزروع، والأشجار، والهضاب، واختلاف التضاريس.

وأما الثانية فهي: النجوم ﴿ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ أي: وبمواقع وحركة النجوم يهتدون بها من حيث الاتجاهات، ومن حيث الوقت، وقد ورد الاهتداء عاماً، ليشمل الاهتداء بها نحو وجهتهم التي يقصدونها، والاهتداء بها في الليل إلى القبلة، والاهتداء بها لمعرفة فصول السنة، للحرث والزرع، ومواسم العام. ومن جميل وغزارة البيان وإعجازه أن ذكر الله تعالى أولاً العلامات عموماً ﴿ وَعَلَٰمَٰتٖ ﴾ لتشمل كل علامة وأمارة في الليل أو في النهار، ثم أفرد سبحانه وتعالى علامات الليل ﴿ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ لِيُمَيزها عن علامات النهار، فيدرك الْمُخَاطب، فضل تلك العلامات، وأنه مع ظلمة الليل يقصر البصر عن إدراك علامات النهار، خاصة إن كانت صغيرة، أو من ذات الألوان والأشكال، كالجبال أو المزارع والأشجار، المتميزة باختلاف الألوان والأحجام. فأظهر سبحانه وتعالى لهم علامات تتناسب مع ظلمة الليل، وهي النجوم في السماء، التي يراها السائرون في مسيرهم، بل ولا يستطيع أحد أن يخفيها عن أحد، فإنها نعمة جليلة عظيمة، تدل على عظمة من خلقها، وتدل على عظمة تدبيره سبحانه وتعالى، وتنسيق خلقه ومخلوقاته بما يحقق المنافع لهذا الإنسان في ليله ونهاره. فإن الذي خلق هذا الخلق على هذا المنوال حكيم عزيز قادر عظيم جليل، إذ أحسن كل شيء خلقه ودبَّره أحسن وأكمل تدبير، فإنه لا يستحق أن يُعبَدَ غيره أبداً، أو أن يكون له شريك في الخلق والملك والعبادة، إنه الله تعالى الخالق، رَبَّ كل شيء ومالكه، فهو الذي يجب ألا يُعبد سواه، ويجب أن يطاع بما أمر، وأن يُنْتَهى عما نهى عنه، فسبحانه وتعالى عما يُشركون.

ثم بعد هذا التفصيل البياني، والاستدلال العظيم، ينتقل البيان الكريم إلى المقارنة بالحقائق المذهلة، والتي تُثبت خطأ وزيغ المشركين ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فهل يستوي الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة، وقدر ورتب سيرها، وعلاقة بعضها ببعض على نسق محكم ومعجز في تكوينه، وفي أدائه، وتناسقه وتناسبه، فهل يستوي هو والعاجز عن أن يخلق شيئاً من ذلك. لينطلق الجواب التلقائي، بانه حتماً لا يستويان، فيتبعه الرد التلقائي: كيف إذاً تجعلون العاجز كالقادر؟ وكيف تجعلون العاجز شريكاً للقادر؟ أو أن العاجز وسيلة للوصول إلى القادر؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تذكَّرون هذه الآيات، فتفهمونها بالتأمل والتفكر. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: فإنها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرد التذكر لها[١] إنها محاكمة عقلية عظيمة، تدل على أن منهج هذا الدين قائم على العلم والبراهين، وعلى إرجاع المخاطب للحق من خلال إعادته إلى التدبر والتفكر والتذكر، وأن هذا الدين ليس هو مجموعة من الأفكار المبنية على الظن والتخمين، والهوى. كما أن هذا البيان العظيم والغزير بقوة المحاجة يُعطي المؤمن درساً وتعليما في منهجية المحاجة وقواعدها، وكذلك يُقدِّم للمؤمنين منهجية الاستدلال بالحجج والبراهين والأدلة، وأن تكون مخاطبة

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٥٤/٣)

المدعوين إلى الإسلام بالحقائق، لأنه دين الحقيقة الواضحة الجلية. وفي هذا توبيخ وتقريع لمن سلك مسلك الجهل، ولم يستخدم عقله وحواسه في إدراك الحقائق.

وقد بدأ منهج الاستدلال بصيغة السؤال التقريري ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ والذي يُقرر المشرك بخطأ تفكيره ومسلكه، ويرده إلى الحقيقة القلبية والعقلية رداً مقنعاً، من خلال تأمل الآيات الحسية التي انطلق منها الخطاب، كما هو في الآيات السابقة، والتي لا ينكرها عاقل. ويتدرج بالمخاطب من خلال الاستدلال المتدرج إلى أن يصل به إلى السؤال الإعجازي الاستنكاري، عن مدى ذهول العقول عن الحق الواضح بالحجج والبراهين، والتعلق بالباطل الذي لا حقيقة له أصلاً، ولا له أدنى برهان، فقد أورد الحق تبارك وتعالى السؤال الاستنكاري للمساواة أولاً، والتي كانت عالقة في أذهان المشركين، والكافرين عموماً. فبعد السؤال التقريري ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ يتدرج البيان بالمخاطبين إلى الاستنكار بأسلوب اللوم والتأنيب الذي يستثير الحق في قلوبهم ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فإنه يفيد العتاب، مع التقريع على ما ذهبت إليه عقولهم من الاتجاه إلى الباطل، فهو سؤال عن غياب التذكر لهذه الحجج والبراهين من الآيات الواضحة أمامهم، والتي يعايشونها في حياتهم بجميع أنواع حواسهم. فإنه إعجاز في الأسلوب، وإعجاز في تدرج البيان، وإعجاز في السياق، وفي طريقة الاستدلال، مع غزارة منهجية البيان، وقوة حجته.

ومن لطائف عمق البيان أن الله تبارك وتعالى ذكر الأوثان عند إيراد السؤال الاستنكاري وكأنها متصفة بالعقل ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ وذلك لحكمة عميقة، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾: يعني الأوثان، وإنما عَبَّر عنها ب**(من)** ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ لأنهم نحلوها العقل والتمييز ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ يعني المشركين، يقول: أفلا تتعظون كما اتعظ المؤمنون[1] فخاطبهم بما يعقلون، فعلى اعتبار أن تلك الأصنام تعقل وتميز، فإنها عاجزة عن الإيجاد والخلق، كيف وهي لا تعقل، وإنما هي جمادات. وقد أثبت سبحانه وتعالى عجزها وانتفاء عقلها وتمييزها عند المقارنة بقوله تعالى ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ فنفى عنها القدرة وأثبت لها العجز، فهل الذي يخلق كمن هو عاجز عن الخلق والتدبير.

ثم بعد الاستدلال من الله تعالى بآياته وحججه وبراهينه العظيمة على الخلق والتدبير والتسخير، يتدرج بهم البيان إلى إظهار مجمل نِعَمِهُ سبحانه وتعالى على خلقه ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٤)

﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلو أردتم حصر نِعم الله تعالى بأن تعدوها، فلن تستطيعوا ذلك أبداً لكثرتها، ثم بعد التنويه والتذكر بعموم نِعَمَهُ سبحانه وتعالى، ينص ويخص نعمتين أخريين، عظيمة القدر، وجليلة النتيجة، ألا وهي نعمة المغفرة، ونعمة الرحمة منه عَزَّ وجل، وأعْظِم بها من نعمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فمع هذه النعم التي لا تُعد ولا تحصى، فإنه يغفر ويتوب على عباده، وتمتد رحمته إليهم ليلاً ونهاراً، ولولا ذلك لعاقبهم مباشرة على كفرهم وشركهم وذنوبهم، ولكن من رحمته عَزَّ وجل أنه حليم، لا يباشرهم بالعقوبة، بل من رحمته تبارك وتعالى أنه يريد لهم نعيم الآخرة، كما أنعم عليهم في الدنيا بنعمه التي لا تُعد، وإحسانه الذي لا يُحد، فأنزل الكتب، وأرسل الرسل، وأقام الحجة، فيعاقب من تجبر وتكبر على طاعته بعد بيانها وإقامة الحجة والبراهين الساطعة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي كثير المغفرة والرحمة، لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه، والقصور عن إحصائها، والعجز عن القيام بأدناها. ومن رحمته إدامتها عليكم، وإدرارها في كل لحظة، وعند كل نفس تنفسونه، وحركة تتحركون بها[1] ومن دقة البيان أن تصدرت المغفرة والرحمة بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ فإن مغفرته ورحمته متأكدة، لا ريب ولا شك ولا قصور فيها، وتأكيدها منه سبحانه وتعالى هو نوع من أنواع رحمته بعباده، فهو كثير المغفرة، وكثير الرحمة، وفي هذا استدعاء للناس أن يتوبوا إليه عَزَّ وجل، ويستغفرونه، فإنه يجمع لهم بين المغفرة والرحمة، اللهم لك الحمد على أنك غفور رحيم، اللهم اغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الراحمين.

ثم بعد الاستدلال من الله تعالى بآياته وحججه وبراهينه العظيمة على أنه الخالق، المدبر، والمسخر، وإثباته جَلَّ جلاله أنه المتفرد بالخلق والتدبير، يتدرج إلى حثهم على التوبة والاستغفار، بتأكيد مغفرته ورحمته تبارك وتعالى للعباد، ثم يتدرج بهم البيان إلى إثبات تفرده كذلك بعموم ودقائق العلم، الذي لا يحيط به إلا هو عَزَّ وجل، وهي الحقيقة التي تمثل الثمرة التي يجب أن يدركوها ويعوها تماماً، لأنها الْمُوجِبة للخوف والرجاء في السر والعلانية ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فإن الله تعالى يعلم منكم ما تُضمرونه وتُخفونه في أنفسكم، فتُسرُّون به بالإخفاء والتكتم عليه، وكذلك يعلم ما تُظهرونه وتعلنون به، فإنهما أمران وحالتان متساويتان في علم الله تعالى، فلا يخفى منكم عنه شيء، فإن الإخفاء منكم عنده عَزَّ وجل علانية. وقد دلت الآيات والحجج والبراهين السابقة على علمه الشامل تبارك وتعالى، فالذي أنشأ الكون من العدم، وخلق تفاصيل الإنسان الظاهرة والباطنة، فإنه لا تخفى عليه من شأن هذا الإنسان شيء أبداً. فسبحان الله العليم العظيم الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم

(1) الشوكاني، فتح القدير (١٥٤/٣)

مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ثم يتدرج البيان من الله تعالى إلى تجلية شأن المعبودات، وشان من يعبدونها من دون الله تعالى، بعد أن برهن وفصل وقطع عزَّ وجل بقوله تعالى ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾ انتفاء القدرة عن تلك المعبودات من دون الله تعالى أن تخلق شيئاً، بأدق البيان وأقوم الحجج، ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ فكل معبود من دون الله تعالى من الأصنام والأوثان، والأموات والأحياء لا يخلقون شيئاً البتة، فإن ذلك الأمر ممتنع عليهم، بل إن غيرهم هم الذين قاموا بنحتهم وتصميمهم وتصويرهم، فارتقى الاستدلال الكريم في الإفهام والبيان إلى أن تلك المعبودات قد انتفى عنها أن تكون آلهة بسببين تعرفونهما تماما أيها المشركون ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ فالأول ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ فإن تلك المعبودات عاجزة وقاصرة عن الخلق والإيجاد، وأن الذي لا يستطيع أن يخلق شيئاً، عاجز أن يجلب نفعاً، أو أن يصد ويرد ضراً، ولو كان مثقال ذرة، بل من عجزهم أن غيرهم نحتهم وكونهم، وهو السبب الثاني ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ فغيرهم يُجَسِّمُهم بنحتهم وتصويرهم، ثم يُعبَدُون من دون الخالق سبحانه وتعالى، الذي خلق الكون كله. ليقود هذا الاستدلال المشركين إلى الاعتراف والإقرار بأنهم لم يعقلوا الصواب، حتى وإن لم يعترفوا نطقاً، فإنهم يدركون ويعرفون ذلك في قرارة أنفسهم، ويُقِرُّون به في قلوبهم بهذا البيان العظيم الذي فضح زيفهم وأجلاه. فقد جاءهم الصواب، والتصويب والتصحيح البليغ من لدن حكيم عليم.

ثم يزيد الله تعالى من عمق البيان والكشف والتحليل لتلك المعبودات ﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ فهذه الأصنام أموات إذ لا روح فيها، فلا حركة لأجسادها، فإنهم ﴿ أَمۡوَٰتٌ ﴾ ثم أكد ذلك بقوله عزَّ وجل ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ ﴾ أي: لا حياة فيها ابتداء، إذ لا روح فيها أصلاً، حتى تتمكن من الحركة والفعل، والتفاعل والتجاوب معكم. فلم تثبت فيها الحياة أصلاً. ثم أكد سبحانه وتعالى ذلك بصفة أخرى: وهي الشعور، فقال تبارك وتعالى ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ فلا يدرون متى تكون الساعة، فإن

دلالة ﴿أَيَّانَ﴾ تفيد معنى: متى؟ لينتج عن ذلك سؤال في ذهن كل أحد، وهو: فكيف تعبدونها إذاً؟ وكيف ترجون منها نفعاً، أو دفع ضر، أو أن تخبركم بأمر؟ بل أنتم تدركون ذلك منها، وهي لا تدرك شيئاً مما يحيط بها.

ومن بلاغة البيان أنه اشتمل على وجهين من الاستدلال، فإن جملة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ تقع على الأصنام، وتقع كذلك على الكفار، فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وما تدري أصنامكم التي تدعون من دون الله متى تُبعث. وقيل: إنما عُني بذلك الكفار، أنهم لا يدرون متى يُبعثون[١] وبهذا عالج النص الكريم وجهين من الحقائق بنص واحد كريم. فما أبلغ كلام رب العالمين. فإنه غاية في البلاغة والبيان.

فبعد إقامة البيان بالحجة البالغة على خطأ تفكيرهم، وبُعد المشركين عن الحق، وجنوحهم عن الصواب، يُخبر الله تعالى بأنه الواحد الأحد، الذي لا إله غيره، ولا معبود بحق إلا هو ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ فيقررهم الله تعالى بالحقيقة التي أثبتت لهم بها أن ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فلا معبود يستحق العبادة سواه عَزَّ وجل، فهو إلهكم، سواء أرضيتم واعترفتم، أو أنكرتم وكفرتم، فإن النص الكريم يُقررهم بالحقيقة التي هي ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ولكن قلوب هؤلاء الكفرة الفجرة منكرة للحق، لا تريد أن تؤمن وتعترف بخطأ ما هم عليه، فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ فإن الذين كفروا بالآخرة، المنكرون بالبعث بعد الموت، قلوبهم جاحدة مستنكرة للحق، غير قابلة للإيمان به، وأن العلة في ذلك ليس جهلاً منهم بل ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: متعاظمون في أنفسهم عن قبول الحق، وملتزمون بالجحود. فالمانع لديهم عن قبول الحق هو استكبار أنفسهم وتعاليها على الاعتراف لله تعالى بالحق.

فإن الذين لا يؤمنون بالآخرة وما يتضمنه ذلك من الجنة والنار والحساب والعقاب، هم منكرون للبعث بعد الموت، فترتب عليه عدم الإيمان بالآخرة، فقلوبهم جاحدة للحق، وأنهم متعاظمون في أنفسهم عن سماع الحق من غيرهم. مما يفيد أن استعظام النفس على الحق مهلكة للمستعظم في كل أمر وشأن. مما يبين خطورة التعاظم، فإذا كان التعاظم النفسي قد منع المتعاظم عن الأخذ بما ينجيه من النار، فإنه لما دونه أكثر أثراً. مما يفيد أن يحذر الإنسان من هذه الخصلة الذميمة، والخطيرة على صاحبها.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/١٩٧)

ثم يتدرج البيان الرباني إلى الإخبار والإعلام بدقة علمه عَزَّ وجل بهم، فيما يخفون وما يعلنون، فقال تبارك وتعالى ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ فلا جرم، أي: حقاً وصدقاً أن الله تعالى يعلم ما يخفونه في أنفسهم، وما يعلنون به ويُظهرونه، فإن ما يبطنونه مساوياً لما يظهرونه في علم الله تعالى، ثم يقرر الله جَلَّ جلاله تكبرهم على الحق الذي يُوجب عليهم انتفاء محبة الله تعالى لهم بسبب تكبرهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ فنفى الله تعالى محبته لكل مستكبر، سواء من المشركين أو من غيرهم. ولما أن الذي يمنعهم من الإيمان هو الاستكبار، انتفت عنهم محبة الله تعالى وتوفيقه.

ومن بلاغة البيان وغزارة سلطانه، أن ورد سياق النفي حكماً وتقريراً وقاعدة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ لتكون قاعدة في معالجة الإنسان لسلوكه، فإن محبة الله تعالى منتفية عن المستكبر على الحق. فإن مالت النفس للكبر فواجب المؤمن أن ينهاها ويمنعها، بقوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ وإن أراد معالجة مسلك أحدٍ من الناس بسبب كبره، وعظه بقول الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ فإنها قاعدة عظيمة جليلة في تهذيب النفس والسلوك، وقاعدة علاجية لكل من يجد في نفسه شيئاً من الاستكبار.

ومن تماديهم في الكفر، واستحواذ الجحود والكبر على نفوسهم أنهم يُسَمُّون ما أنزل الله تعالى بالأساطير ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ فإذا قيل لهؤلاء المنكرون للآخرة، المستكبرون عن الحق، الجاحدون له ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ ﴾ أي: ما الذي أنزل ربكم على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم؟ فإنهم يعرضون عن صدق الجواب، ويذهبون إلى التهكم والجحود والنكران ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي: أن القرآن العظيم مأخوذ من كتب المتقدمين، على سبيل التهكم والتندر، أي: أن الذي تقولون بنزوله هو من كتب المتقدمين. وبالتالي ينكرون نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقرآن العظيم، ويتهمونه بالكذب صلى الله عليه وسلم.

وجملة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم ﴾ لم تُحدد القائل لهم، مما يدل على أن دعوة المؤمنين متداولة في مجتمع المشركين، عن طريق سؤال المؤمنين لهم عن هذه الحجة البالغة عندما يلتقي بعضهم ببعض، سواء في المنازل أو في الأسواق أو عند اللقاء في المناسبات والتجمعات، وسواء بين المؤمن وقريبه، أو صديقه وجاره. ماذا تقولون في الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؟ فكيف تردون الذي أنزل عليه من الله تعالى؟ فيجيبون

بقولهم ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إنها مأخوذة من كتب الأقدمين، فليس فيها ما تعتقدون. وقد ذكر علماء التفسير ومنهم القرطبي رحمهم الله تعالى: أن القائل بأنها أساطير هو: النظر بن الحارث، وأن الآية نزلت فيه، فقد اشترى قصص كليلة ودمنة من الحيرة، ويقرأ منها على قريش، ويقول ما يقرأ محمد على أصحابه إلا أساطير الأولين. وقيل بأن المؤمنين هم القائلون لهم، اختباراً، فأجابوا بقولهم: أساطير الأولين. والأساطير هي الأباطيل والتُّرَّهات[1] ويؤكد أن المؤمنين هم القائلون ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ هو تقريرهم بالربوبية، فيقولون لهم ﴿رَبُّكُمْ﴾ بل ويقررون أن ما أُنزل هو من عند الله تعالى، وذلك بإثباته في سؤالهم للجاحدين ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ وجملة ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لم تحدد قائلاً بعينه، بل أفادت الجمع، بما يؤكد أن هذا الجواب أصبح متداولاً بين جميع المشركين، فكأنهم تواطؤا عليه.

ثم يبين تبارك وتعالى جزاء قولهم هذا، وكفرهم بما جاءهم من الحق، فقال تبارك وتعالى ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فبكفرهم، وقولهم أن ما أنزل الله تعالى من الحق هو أساطير الأولين فإن ذلك يُحمّلهم ذنوبهم كاملة ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ليحملوا آثامهم مستوفاة من غير نقص يوم القيامة، فيحاسبون عليها، ويجازيهم الله تعالى بما يستحقون من لعذاب، فكونها كاملة يعني أنه لا يُكفَّر عنهم منها شيئاً أبداً، على ما يصيبهم من المحن والابتلاء، كما يُكفَّر عن المؤمنين بما يصيبهم من الابتلاء والمحن.

ويُضاف إلى آثامهم آثام غيرهم ممن ضَلُّوا بسببهم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ويحملون كذلك أوزار الذين أضلوهم مما هو متعلق بسعيهم في إفساد غيرهم، فيصبح عليهم خطيئة أنفسهم، وخطيئة إضلالهم لغيرهم، لأن هناك أوزاراً لغيرهم متعلقة بالكفر، وأوزاراً متعلقة بمعاملاتهم وتعاملهم مع غيرهم، كظلم الآخرين والبطر والأشر وغير ذلك من الذنوب. وهذا من عدل الله تعالى حتى مع الكافرين الجاحدين، فإن جملة ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ﴾ تفيد التبعيض، فلا يحملون جميع أوزار من أضلوهم، بل ما يخص ضلالهم عن الإيمان، أي: بما يناسب حجم إضلالهم لغيرهم بالكفر. لأن صنيعهم هو إضلال غيرهم ﴿يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يضلون الناس عن الحق بالباطل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بالجهل، فانتفى العلم عما يقومون به. فأضلوا

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٤/١٠)

غيرهم بغير دليل. وتقبل أولئك الكفر والإنكار للحق بغير دليل، وفي هذا تأكيد وبيان لظلمهم أنفسهم، وظلمهم لغيرهم، فاستحقوا كامل أوزارهم، ومن أوزار مَن أضلوهم.

ثم يحذرهم الله تعالى بأسلوب التخويف والذم لفعلهم ومسلكهم، ليقلعوا عما هم عليه ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ فبئس ما يحملونه من آثام عظيمة. بل ومن شدة التحذير وأهميته وقوته أن مطلعه كان بحرف التنبيه ﴿أَلَا ﴾ الذي يفيد لفت الانتباه، لما بعده مما اشتمل عليه التوجيه الكريم من التحذير والذم. وجملة ﴿سَآءَ ﴾ تفيد بئس ما تحصلوا عليه من الإثم، الذي يبلغ بهم مبلغ تدهور الحال والمصير، وكلمة ﴿يَزِرُونَ ﴾ تفيد ما أثقلوا به أنفسهم من الإثم والذنب العظيم، وورد الوزر بصيغة الجمع، ليفيد كثرة ما أثقلوا به أنفسهم من الذنوب، فهما كلمتان ﴿سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ استوفت بها دقة البيان كمال ذم الحال الذي هم فيه، والحال التي يصيرون إليها، واستوفت أعلى درجات التحذير، مما يبين أن الله تعالى يحب من عباده الطاعة والامتثال، ولا يحب ولا يريد منهم الكفر، إذ ينهاهم ويحذرهم بألوان وأنواع وأشكال ودرجات النهي والتحذير.

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وينتقل السياق والبيان الكريم إلى التعريض بأن يكون حال هؤلاء الصادين عن دين الله تعالى كحال من سبقهم من الأمم التي كفرت، بما يفيد الإنذار بصيغة المماثلة والاقتداء بغيرهم، فيحل عليهم ما حل بأمثالهم من قبل، وكذلك فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، بأن حال هؤلاء الكفار كحال من سبقهم. فقال تبارك وتعالى ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فقد حصل من الذين قبلهم

من الأمم المكر من أعداء الدين، بالكيد والعمل والقول المنافي للحق. فاستأصل القوي العزيز سبحانه وتعالى بنيان المكر من أسفله، من حيث لم يشعروا إلا وقد أحاط بهم عذاب الله تعالى.

فبد البيان من الله تعالى بوصف حال من قبلهم، وكيف أن الله تعالى أهلكهم، بأسلوب غاية في الإعجاز البياني، والتصوير البديع. فقد بدأ النص بأداة التحقيق ﴿ قَدْ ﴾ التي تفيد التحقق، وتأكيد لما بعدها، بأنه قد حصل ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فقد حصل من الذين قبلهم من الأمم المكر من أعداء الدين، بصنعهم الكيد، وهو العمل والقول والتدبير والخداع المنافي للحق والحقيقة، فيكون ظاهره النفع والنصح، وباطنه السوء والتخذيل، فيكون مكر هؤلاء هو بمخادعة الناس وإظهار النصح، والادعاء بأن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو أساطير الأولين، فإن هذا الفعل وغيره من أفعال لمكر والخداع مماثل لمن سبقهم من المكذبين الجاحدين، فاجتثهم الله تعالى بمكرهم من حيث لا يحتسبون، وبما يفيد التحذير والتنبيه والوعيد لهم من أن يكون حالهم مماثل لحال من سبقهم من الماكرين الجاحدين للحق المبين.

ثم يبين الله تعالى أنه قد هدم مكر الماكرين السابقين من الأمم على الرغم من قوة مكرهم ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ فقد استأصل القوي العزيز سبحانه وتعالى بنيان المكر من أسفله، وقد شَبَّه سبحانه وتعالى صنيع مكرهم في هيئته بالبنيان الذي تأسس بأساس قوي، بل وجعلوا له سقفاً، ليكون متكاملاً في هيئته وبنيانه، فكان تشييد بنيان المكر والكذب والخداع بقوة وشدة، ليكون بذلك مقنعاً بصحته وصوابه، وهو خلاف الحق ومصادماً له. ولكن بقوة الله تعالى وقدرته استأصل هذا الباطل من المكر من قواعده وأساسه، حتى لم يصبح له أثر، فمحاهم كما صنع بقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون.

وأما نتيجة هذا الاستئصال لقواعد وبنيان المكر فقد كان في صورة مدمرة ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ فانهدم عليهم سقف مكرهم، وعُذِّبُوا بمكرهم عذاباً شديداً وشاقاً ومؤلماً. فكان مكر الله تعالى بهم أكبر من مكرهم بدينه وبأنبيائهم والمؤمنين. وكلمة ﴿ فَخَرَّ ﴾ تدل على هيئة الاجتثاث، بأنه سقوط متسارع، فلا مجال للهروب والخروج منه البتة، لعدم قدرت سقفهم على مقاومة قدرة الله تعالى وعذابه، فأصبح السقف هاوياً عليهم، لأن كلمة خَرَّ كما قال الراغب الأصفهاني، أنها تعني: سقط سقوطاً يُسمع منه خرير، والخرير يُقال لصوت الماء والريح، وغير ذلك مما يسقط من عُلُو[1] ومن دقة الوصف أن تضمن البيان جهة السقوط ﴿ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ فالسقف خر عليهم من فوقهم، فليس لهم مجال يهربون منه، فلو كان من جهة

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (١٤٤)

أخرى لربما خرج البعض من الجهة المقابلة، ولكن لا يقابل السقف إلا الأرض، ليصور قوة الهلاك في أدق وأقوى صورة، وأروع بيان، وأجمل بلاغة تصويرية.

بل ومن دقائق السياق أن الله تعالى قدم لفظ ﴿عَلَيۡهِمُ ﴾ على ﴿ٱلسَّقۡفُ ﴾ فقدم المفعول به على الفاعل ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾ ليدل على سرعة الأداء والتنفيذ، وأنهم هم المقصودون بهذا البيان، وشد الانتباه لحالهم والسقف يخر عليهم وله خرير ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فحل بهم العذاب فجأة ومباغتة، دون مقدمات تُشعِرُهُم بأن هناك أمر كائن، مما يدل على عظمة قدرة الله تعالى، وسرعة هلاكه لهم، ليكون في هذا البيان عبرة وعظة للمشركين، ولغيرهم من الكفرة والملحدين.

وفي هذا تنبيه وتحذير وترهيب للكافرين في عهد النبوة، وفي كل زمان ومكان، بأن الله تعالى قوي عزيز، ومحيط بخلقه تمام الإحاطة وأكملها، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه يعلم ما يمكر به العباد، وما يبطنون ويسرون في نفوسهم، وما يعلنون. وفيه كذلك أن المكر السيء عائد على أهله وأصحابه، وأن الله تعالى ينصر الممكور به على الماكرين، وأن على من مُكر به أن يستعين بالله تعالى، فإنه خير ناصر، وأقوى معين عَزَّ في علاه.

وبعد بيان حال الماكرين الجاحدين في الدنيا، يخبر الله تعالى بما سيكونون عليه في الآخرة. فقال جَلَّ جلاله ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي: ويوم القيامة يجدون من الله تعالى الخزي الذي تتحقق به الندامة ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ ﴾ فيوم القيامة يجدون الخزي الذي يمثل الانكسار والإهانة والذل، والاستصغار، المضاد لاستكبارهم وجحودهم في الدنيا، فَيُظهر الله تعالى فضائحهم من المكر، وما أخفته ضمائرهم، فينالهم الخزي والمهانة والعذاب الشديد. بل وأخفى وأبهم الله سبحانه وتعالى تفاصيل الخزي ومقداره وهيئته، للمبالغة في تعظيمه، وتأكيد شناعته وقوته، لأن التهديد المبهم لنوعه يستثير ذهن ومخاوف الْمُهدد به من ويلاته، ويستحثه على التراجع من شدة الخوف الموعود به إن كان هناك مجال للتراجع ما لم تبلغ الحلقوم.

ثم يوم القيامة يُورد الله تبارك وتعالى السؤال عليهم فيما كانوا يُشركون ﴿وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ ﴾ فإنه سؤال يبين عجزهم وحقارتهم، وحقارة ما كانوا يشركون به مع الله عَزَّ وجل ﴿وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ ﴾ فيبدأ السؤال بدلالة ﴿أَيۡنَ ﴾

التي تحمل التعجيز، واستشعار كامل الخسارة، فإن ﴿أَيۡنَ﴾ سؤال عن وجودهم، وعن تأخرهم، وعن مكانهم، وإظهار كمال العجز فيما كانوا يعبدون من دون الله تعالى، لتزداد الإهانة والتهكم بهم مما كانوا فيه، ومما هم فيه من حال الخزي يوم القيامة. ويأتي سياق السؤال على نمط ما كانوا يعملون ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ فيقررهم الله تعالى بشركهم به سبحانه وتعالى، بأنهم جعلوا لله تعالى شركاء ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ فأين الذين كنتم تُشركونهم في ملكي وعبادتي، وتَدَّعُون أنهم يقربونكم إلى الله زلفا. وكأن حال الموقف يقول: فهل ترون لهم مكاناً ومكانة هنا؟ أو هل ترونهم وترون لهم شفاعة؟ فهل ترون لهم وجود وحضور؟ فكل شيء ينفي أن يكون لله تعالى شريك في ملكه، فسبحانه وتعالى عما يقلون علواً عظيما. فإنه سؤال عظيم الأثر والألم عليهم، لفداحة الشرك، وعظيم عاقبته. فإين الشركاء الذين كنتم تخاصمون فيهم ومن أجلهم ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ﴾ فأين من أشركتموهم في عبادتي ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ﴾ أولئك الشركاء الذين كنتم تعاندون وتخاصمون وتجادلون الحق فيهم وعنهم، ومن أجلهم، فتعاندون الحق المبين من أجلهم.

فيسكت أولئك المشركون، خجلا وندامة واعترافاً، فيجيب أهل العلم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيذكر الله تعالى ما يكون من أخيار الناس وفضلائهم الذين كانوا يعظون بالحق وينصحون لهم، مما يدل على فضل ومنزلة أهل العلم الداعين للخير ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيقول أهل العلم الذين هم السادة في الدنيا والآخرة، الذين وحدوا الله تعالى في عبادته وربوبيته ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيقررون وقوع ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾ الذي هو العار والذل والهوان والفضيحة، وكذلك السوء ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ الذي هو العذاب السيء والمهين بأنه اليوم محصور في أهل الكفر ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلن ينال الخزي والسوء اليوم غير الكافرين بالله تعالى. وفي هذا وصف دقيق لأهل الكفر يوم القيامة، وتحذير للمشركين وعموم الكافرين من هذه الحقيقة التي سيقابلونها كما وصفها سبحانه وتعالى لهم.

ثم يصف الله تعالى حال مفارقة أولئك الكافرين الحياة الدنيا، وانتزاع أرواحهم من أجسادهم من قِبَل الملائكة الموكلة بذلك ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن

سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فعند احتضار أولئك الكافرين، ومجيء الملائكة لانتزاع أرواحهم، وهو قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ حين وأثناء قيام الملائكة بانتزاع أرواحهم من أجسادهم، وهي الملائكة التي تتوفاهم بقبض أرواحهم، وذلك حال ظلمهم لأنفسهم بالكفر والشرك والمكابرة والعناد، وهو قوله عَزَّ وجل ﴿ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ فهم ظالمي أنفسهم بالكفر، والجحود، وعدم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، والامتثال لأمره، فظلموا أنفسهم بتحقق العذاب والخزي لهم ﴿ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ ﴾ أي: فأظهروا السمع والطاعة والانقياد، أي: أظهروا مظاهر الذل والخضوع والخنوع والاستسلام، قائلين للملائكة ﴿ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ ﴾ فاستسلموا لأمر الله تعالى حين رأوا الموت، وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى، وما كانوا يعملون من المعاصي من الجحود للحق، وتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك من المعاصي. وهذا النفي منهم بقولهم ﴿ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ ﴾ هو رجاء أن تخفف عنهم الملائكة انتزاع أرواحهم، لِمَا يجدونه من شدة سكرات الموت.

فَيُقَال لهم من قبل الملائكة ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فإن الله تعالى عليم بما كان منكم من الكفر والجحود، فإن ما أمرنا الله تعالى به حقيقة وصدقاً، وأما أنتم فتكذبون. فبدأت الملائكة جوابهم بأداة النفي ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ ليس الأمر كما تقولون وتَدَّعُون. ومن جميل قول الملائكة: انتقالهم مباشرة بعد نفي ادِّعاء المكذبين إلى تقرير علم الله تعالى بحقيقة أمرهم المخالف لمنطوقهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فأسندوا علم حقيقة هؤلاء المكذبين إلى الله تعالى، بأنه عَزَّ وجل ﴿ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ وذكروا علم الله تعالى لما كان منهم بصيغة المبالغة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ ﴾ أي: كثير ودقيق العلم، بما ينتفي معه غياب شيء عنه عَز في علاه. فلن يخفى عليه من أمركم شيء، مهما كان صغيراً، فأخفيتموه عن غيركم، وأسررتم به. وليتأكد بذلك لهؤلاء المكذبين الكافرين أن الله تعالى ما أوكل للملائكة هذا الأمر، وبهذه الشدة في انتزاع أرواحهم إلا وهو عليم بهم، وبحالهم، وبما كان منهم من الكفر والجحود، وأن الأمر ليس كما يَدَّعُون من نفي عمل السوء. مما يكشف للكافرين حالهم يوم القيامة، وكذلك حال نزع أرواحهم، وما سيكون منهم في أدق التفاصيل، ليكون في ذلك إنذار وبلاغ وتخويف وترهيب ووعيد وتهديد، فواجبهم بعد هذا البيان من الله تعالى التحرز من هذا الموقف، وموقف يوم القيامة بالتزام الطاعة والامتثال لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ويقال للكافرين عند الموت ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ فادخلوا من أبواب جهنم المقدرة لكم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ دائمين، ولابثين فيها، فلا خروج لكم منها أبداً ﴿ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ فبئس المرجع الذي هو مثواكم ومستقركم ومقامكم الذي تقيمون فيه آبدين مُؤبدين، والذي هو مثوى المتكبرين على الله تعالى، وعلى دينه، وعلى رُسُلِه. فإنه بيان واضح مبين، لواقع كل متكبر على الله تعالى، فإن مصيره هو جهنم خالدين فيها أبدا.

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ ﴾

سبق في هذه السورة أن أخبر الله تعالى بحال الكافرين عندما تتم مواجهتهم بما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو قوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ فإذا قيل لهؤلاء المنكرون للآخرة، المستكبرون الجاحدون للحق ﴿ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ ﴾ أي: ما الذي أنزل ربكم على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فإنهم يُعرِضُون عن الجواب الصادق، ويذهبون إلى التهكم والجحود والنكران ﴿ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، على سبيل التهكم والتندر. أي: أن الذي تقولون بأنه مُنَزَّلٌ من عند الله تعالى هو من كتب المتقدمين. وبالتالي ينكرون نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم. بينما كان رد المؤمنين ما قاله الله تعالى عنهم ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا من الإبداع في المقابلة بين حال الكافرين وحال المؤمنين. إذ يقول المؤمنون خير الكلام، وأجمل الرد، ليتضح الفرق الشاسع والبون العظيم بين الفريقين في وصف الحق الذي جاء من عند الله تعالى، فالمؤمنون يجيبون حين يُسأَلون بما قاله الله تعالى عنهم ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي: الخير كله، الذي لا شر فيه أبداً، فقد جاء قولهم: مُستجمع للفضل كله، فشمل جميع الخير الذي لا نقص فيه ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ فإن كلمة ﴿خَيْرًا﴾ استجمعت كمال الوصف وجميل الثناء، وقد أظهر قولهم الشمول لكل ما أنزل الله تعالى، فإنه بركة ورحمة وفضل وسعادة، ودال على كل خير، ومحذر عن كل شر، فهو هداية وتوفيق لمن تبعه. وقد سماهم الله تعالى بالمتقين ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ وفي هذا تزكية لهم بأجمل الوصف والمراتب، لأن التقوى هي جماع الخير الاعتقادي والعملي، فإنها تجمع بين الخوف من الله تعالى، وبين الرجاء فيما عند الله تعالى، فتتحقق بها المهابة في قلوبهم من لله تعالى، فتنزجر بذلك عن المعاصي، وتمتلئ القلوب بالرجاء فيما عند الله تعالى، فتندفع نحو الطاعة.

ثم بعد الاجماع بكلمة ﴿خَيْرًا﴾ استطردوا في التفصيل البليغ الشامل الوافي، فقال تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا مثوبة وأجراً، وحياة طيبة، وكرامة لهم من الله تعالى في الآخرة. وقد وردت الحسنة عامة، ليدل على سعة العطاء، فإن من سعة العطاء أن دلالة ﴿حَسَنَةٌ﴾ لم تُحصر في نوع، أو مقدار، بل جاءت مطلقة عامة لتشمل جميع الحسن والْحُسن الذي خلا من الشر، فتشمل الرزق والتوفيق للطاعة، واليقين الذي يسعد به المؤمن في الدنيا، والتوكل والتفويض إلى الله تعالى الذي تطمئن به قلوب المؤمنين. وأما في الآخرة فخير يجدونه من عند الله تعالى ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ فمثوبة الذين أحسنوا في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما أُتُوا في الدنيا، فالجنة في الآخرة خير من جميع ما حوته الدنيا. ثم امتدحوا الدار الآخرة في حق المتقين ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فامتدحوها بأعظم مدح ﴿وَلَنِعْمَ﴾ فكلمة: نعم، تستوفي مجامع المدح، كما أن: بئس، تستوفي مجامع الذم. فلنعم الدار الآخرة، التي هي دار المتقين، فليس هناك دار أعظم داراً للمتقين من الآخرة. وهذا من بلاغة البيان إذ استوفى كمال الإفصاح والبيان لما أنزل الله تعالى، ولحال المتقين في الدنيا والآخرة.

ثم يتدرج الوصف لدار المتقين بأنها ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فأنعم بدار المتقين التي هي ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنات

استقرار وثبات، قال أبو عبيدة أي: في جنات خُلْد، يُقال عَدَن فلان بأرض كذا، أي: أقام[١] وهي في وسط الجنة الذي هو أعلاها، فهي إقامة دائمة لا تنقطع، وتعني كذلك وسط الجنة الذي هو أعلاها، أي: أعلى درجة في الجنة، وسقفه عرش الرحمن جَلَّ وعَز، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها[٢] ثم يبين الوصف المزيد من إيضاح أحوالهم فيها ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ فيدخل هؤلاء المتقين تلك الجنات، التي ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ ولهم في هذه الجنات ما تشتهيه أنفسهم، فبمجرد اشتهاء النفس للشيء يكون حاضراً عندها كما اشتهته وتصورته ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ فبمثل هذا الجزاء العظيم يُثيب الله تعالى المتقين، الذين هم أهل خشيته وتقواه. وفي هذا أكمل وأجمل تصوير لما أعده الله تعالى للمتقين، وفي هذا الوصف بيان للحقيقة التي سيؤول إليها المتقون، وقد اشتملت على الترغيب بالبيان، وبالبشارة لمن اتقى الله عَزَّ وجل. اللهم اجعلنا والمسلمين من المتقين.

ثم يخبر الله تعالى عن حال المتقين عند الاحتضار ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فسمى الله تبارك وتعالى المتقين بأطيب الأسماء ﴿طَيِّبِينَ ﴾ لتشمل: جميع الصفات الطيبة المباركة، وقد جمع ابن الجوزي رحمه الله تعالى أقوال أهل العلم في معناها، بأنها: الإيمان، وطاهرين من الشرك، وأن أفعالهم وأقوالهم زاكية، وكذلك سهولة خروج أرواحهم، فكانت وفاتهم طيبة، وطيبة أنفسهم بالموت، ثقة بالثواب[٣] وفي هذا مدح وثناء من الله تعالى على المتقين، وبيان لهيئة موتهم، وأنها تكون على أحسن حال، وأن نفوسهم تطيب بالموت ولا تنزعج منه، لأنها مستبشرة بعظيم الخير من الله تعالى. وفي الآية من البيان أن الملائكة هي التي تتوفى الأنفس، بما يأمرها الله تعالى به ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾

ثم يخبر الله تعالى بمبدأ لقاء الملائكة بمن حانت وفاته ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فيبدؤونهم بما يسرهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ﴾ فيسلم عليهم ملك الموت بالسلام، والذي

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٨/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٠/٨) ملخص

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٤/٤)

يحمل في دلالته: الأمن والأمان عليكم مما تكرهون وتخافون، ولا يمنع أن يكون هذا السلام يجتمع عند قبض أرواحهم، وعند دخول الجنة. ثم يبشرونهم بالجنة قبل نزع أرواحهم ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: صيروا إلى الجنة، وابدؤوا طريقكم إلى الجنة ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: بما كنتم تعملون من الطاعة في الدنيا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الملائكة يأتونه بالسلام من قبل الله، وتخبره أنه من أصحاب اليمين[1] الذين هم أصحاب الجنة، الفائزون بها.

ثم بعد بيان حال المؤمنين وقبله بيان حال الكافرين يُعقب الله تعالى على تمادي المشركين في كفرهم، بالرغم مما جاءهم من البينات والحجج والبراهين. ومن بديع البيان أن الله تعالى وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم عن صورة حال المشركين، بما يفيد التعريض للمشركين بما هو عليه حالهم. وكأن حالهم في العناد هو حال من ينتظر ساعة الموت وحالتها، أو ساعة وقوع العذاب. وورد البيان بأسلوب الاستفهام الإنكاري لحالهم بعدما تبين لهم الحق ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ هل ينتظرون حتى يحين وقت قبض أرواحهم، وحينها لا تنفعهم التوبة ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، أو ينتظرون حتى حلول العذاب بهم ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ وهو العذاب في الدنيا، وحينها لا تنفعهم التوبة، ولا وقت لهم للعمل والطاعة. إنه سؤال استنكار عن شناعة عنادهم. فيكون هذا تحذير وإنذار وتهديد للمشركين، ثم يبين الله تبارك وتعالى أن حالهم هذا كحال من سبقهم من الأمم ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فبمثل تلك الأفعال من أهل الكفر كان فعل من كان قبلهم، فإنهم فعلوا مثل ما فعل هؤلاء الكفرة المعاندين، فأخذهم العذاب. وفي هذا ترهيب وإنذار، وتحذير ووعيد لهم. وهذا البيان والإنذار هو من رحمة الله تعالى بالناس، لأنه لا يريد لهم الكفر، فوعظهم وأنذرهم بجميع أنواع المواعظ والنذر، ولكن الكبر والحسد والتعالي وتزيين الشيطان هو عدو الإنسان.

ثم يخبر الله تعالى عن عدله بتلك الأمم، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ فلم يظلمهم الله تعالى بما أصابهم من العذاب، بل حقق العدل فيهم، بإرسال الرُسُل،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١٤/١٤)

والبراهين والحجج ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ فالظلم قد وقع منهم على أنفسهم، بالعناد والمكابرة، فاستحقوا العذاب الذي يتوافق مع معصية الكفر.

ثم يخبر الله تعالى بما وقع عليهم ﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ فأصابهم بسبب سيئات أعمالهم العذاب، ومن بديع البيان، وبلاغة كلام رب الأنام أن كَنَّى عن الجزاء الذي أصابهم بسيئاتهم، فجعل سيئاتهم هي التي أصابتهم ﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ فسيئاتهم أوقعت عليهم ما يستحقون من العذاب، فبسبب سيئاتهم وقع عليهم العذاب، ثم بين تبارك وتعالى حجم العذاب الذي أصابهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ وأحاط بهم العذاب، بما يعطي صورة التفاف العذاب عليهم، بأنه قد التف بهم، وأحاط بهم من كل جانب، وكذلك جعل سبحانه وتعالى الإحاطة من جهة ما كانوا به يستهزئون من وقوع العذاب. فجعل سبحانه وتعالى الذي كانوا يستهزئون به هو الذي أحاط بهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ كناية عن ما نتج عنه من حلول العذاب، بسبب استهزائهم، فكان أسلوباً بديعا في تصوير العلاقة بين العذاب وأسبابه، فإن أسباب العذاب التي فعلوها وقاموا بها هي التي أوقعتهم فيه.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بالمزيد عن جحود المشركين، ويكشف عنادهم وتعنتهم مع نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ قال المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء: فلو شاء الله أن لا نعبد غيره لما عبدنا الأصنام ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ وفي هذا إقرار منهم أنهم يعبدون من دون الله تلك الأصنام. ثم أضافوا أباءهم السابقين، فشهدوا عليهم بذلك، وشهدوا على أنفسهم أنهم توارثوها من غير علم ولا برهان ﴿ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ وهم الذين كانوا على ما هم عليه من الشرك. فيؤكدون مسارهم في الشرك بمسار من سبقهم.

ثم يُقِرُّون بما صنعوا، ويُقررون افتراءهم التحريم لما لم يحرمه الله تعالى ﴿ وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ وذلك تحريمهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والحرث. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: من السوائب، والبحائر، ونحوهما مما حرموه. ومقصدهم بهذا القول المعلق بالمشيئة الطعن في الرسالة. أي لو كان ما قاله الرسول حقاً من المنع من عبادة غير الله، والمنع من تحريم ما لم يحرمه الله، حاكياً ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما أراده منا، فإنه قد شاء ذلك. وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. فلما وقع منا العبادة لغيره، وتحريم ما لم يحرمه كان ذلك دليلاً على أن ذلك هو المطابق لمراده، والموافق لمشيئته، مع أنهم في الحقيقة لا يعترفون بذلك، ولا يقرون به، ولكنهم قصدوا ما ذكرنا من الطعن على الرسل[1] فهم يقررون على أنفسهم وقوع المخالفة من الشرك، ومن التحريم، ويستدلون بأنه لو لم يرد الله تعالى ذلك لما حصل منهم، وتغافلوا عن أن الله تعالى لا يريد ذلك، بدليل إرساله رسوله صلى الله عليه وسلم، الذي يعرفونه تمام المعرفة، ولا يُعيبون عليه شيء، وجاءهم بالدلائل والبراهين والحجج. وقد عَلِمَ الله تبارك وتعالى من عباده، أن منهم مؤمن، ومنهم كافر، وخلق الجنة للمؤمنين، وخلق النار للكافرين. ولو أراد أن يجبرهم على الإيمان لأجبرهم، ولكن جعل للإنس والجن مشيئة، لمن شاء منهم أن يستقيم، وهذه المشيئة لا تخرج عن مشيئة الله تعالى، فلو شاء لألزمهم ومنعهم من ذلك، ولكن ليتحقق من كل أحد ما يسلكه ويختاره بنفسه، ليستحق بالمقابل ما يستحقه من الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فمهمة المرسلين جميعاً تقرير توحيد الله تعالى واجتناب الطاغوت في جميع أعمال وأقوال ومعتقدات العباد ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ فحصر العبادة في الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ وابتعدوا واحذروا من عبادة غير الله تعالى. والطاغوت هو وصف لكل ما عُبد من دون الله عَزَّ وجل. وقد جمع وصف الطاغوت ما ذكره العلماء، حيث قال مجاهد رحمه الله تعالى: الشياطين، وقال ابن السائب رحمه الله تعالى: الكهنة، وقال مقاتل رحمه الله تعالى: الأوثان[2] فقد استوفت دلالة الطاغوت كل ما يُعبد من دون الله تعالى. فهؤلاء المؤمنون اجتنبوا كل معبود غير الله تعالى، فوحدوا ربهم عَزَّ وجل.

ثم يخبر الله تعالى بأن هذه المنهجية التي هم عليها هي نفس منهجية الكافرين من الأمم السابقة، فلو كان الله تعالى قد رضي من تلك الأمم شركهم لما أهلكهم ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فكان مسلك

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٦١/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠/٧)

أهل الكفر من الأمم السابقة هو الإشراك بالله تعالى، وتحريم ما لم يحرمه الله تعالى، وجادلوا بالباطل، فأهلكهم الله تعالى، فلو كانوا كما زعم مشركي العرب لما أهلك من كان قبلهم.

ثم يبين تبارك وتعالى حدود ومهمة ومسؤولية الرسل ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فليس على الرسل إلا البلاغ الواضح، وبيان الحق، والنهي عن الباطل، بالأدلة والبراهين، وليس عليهم هداية التوفيق، بل واجبهم هو هداية الدلالة على مراد الله تعالى، فيما أمر، وعما نهى. فلن يتضرر المرسلون عموماً بما يكون من غيرهم من البشر. وورد البيان عن المرسلين بصيغة الاستفهام الإنكاري ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ بما يفيد نفي هداية التوفيق، وأن ليس من واجبهم ذلك. وفي هذا رفع الحرج عمَّا ليس من مقدور المرسلين، ولا من خصوصية رسالتهم، وفي ذلك رد على المشركين فيما يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم، وما يشيرون إليه من مشيئة الله تعالى. فحصر مسؤولية المرسلين في البلاغ المبين، رداً عليهم في كل ما يطلبون من الرسول. وأن محمداً صلى الله عليه وسلم كمن سبقه من المرسلين، فكلمة ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ تجمع جميع المرسلين، بما فيهم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. وفي نفس الوقت يحمل هذا البيان من الله تعالى تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يجد ويواجه من أهل الكفر والزيغ والضلال.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ويستمر السياق والبيان من الله تعالى في كشف حقائق المشركين، وحقيقة رسالته سبحانه وتعالى لعباده، وإبطال ما يثيره المشركون من شُبه وأباطيل، فقال جلَّ جلاله ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا

أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فبمزيد من التفصيل يكشف الله تعالى أباطيل ومزاعم المشركين في تدرج بلاغي وبيان عظيم، فبدأت الآية الكريمة بتقرير بعثات المرسلين للأمم السابقة ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ فأثبت الله تعالى أنه بعث في كل أمة من الأمم رسولاً، وأسبق وتصدر البيان بأداة التحقق ﴿ وَلَقَدْ ﴾ بأنه قد تحققت بعثات المرسلين إلى أممهم، فيبين ويؤكد لعباده سبحانه وتعالى أن هذا الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم هو مبعوث لأمته، وللناس كافة، فكما بعثناك للناس جميعاً في أمتك بعثنا من قبلك المرسلين في أممهم. فيقررهم ويستنطقهم هذا البيان الرباني بأنه: أين الغرابة في هذا الأمر؟ ثم بَيَّن تبارك وتعالى مهمة الرسل أجمعين ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ فمهمة المرسلين هو تقرير توحيد الله تعالى، بعبادته وحده لا شريك له، وإبطال الشرك، والافتراء على الله تعالى مما يحرمون ما لم يحرمه الله تعالى على عباده. وفي هذا تكذيب لقول وافتراء المشركين، ودحض لفريتهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾ فكيف يأمرهم بالتوحيد والإخلاص له عَزَّ وجل، ويشاء لهم الشرك، ويقرره لهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فمشيئته تعالى الشرعية منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك، على ألسنة رُسُلِهِ، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدراً، فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة، وحكمة قاطعة[1] فقد عَلِمَ الله تبارك وتعالى من عباده، أن منهم مؤمن، ومنهم كافر، وخلق الجنة للمؤمنين، وخلق النار للكافرين. ولو أراد أن يجبرهم على الإيمان لأجبرهم، ولكن جعل للإنس والجن مشيئة، لمن شاء أن يستقيم، وهذه المشيئة لا تخرج عن مشيئة الله تعالى، فلو شاء لألزمهم ومنعهم من ذلك، ولكن ليتحقق من كل أحد ما يسلكه ويختاره بنفسه، ليستحق بالمقابل ما يستحقه من الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فقد جعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، كما قال عَزَّ وجل في سورة التكوير ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ فمن شاء اتخذ سبيل وطريق الاستقامة الذي يتحقق له به النجاة. وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٩٠)

عباده، ويعلمهم الحق وسبيله، حتى يعلموا ما يجب عليهم، وما هم عليه. وأن ذلك لا يعني أنهم خارجون عن مشيئته سبحانه وتعالى. كما يصحح بهذا البيان أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم. وفي سورة الشمس، قال تعالى ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ فعرفها وأفهمها بما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها.

وقال الله تعالى في سورة التكوير ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فليس لأحد الانفراد بالمشيئة المستقلة، والمنفردة عن مشيئة الله تعالى فكل مشيئة تحت سلطان مشيئة الله تعالى. بما يفيد: أن الله تعالى لو شاء أن لا تكفروا، لجعلكم مؤمنين بقدرته وسلطانه، فلا تعتقدوا بكفركم أنكم خرجتم عن سلطان ربكم ومشيئته. فإنكم تحت قبضته. بما يصحح مفاهيم العباد عن المشيئة، بأنها مشيئة مقيدة بمشيئة الله تعالى.

ثم أوضح تبارك وتعالى حال الناس مع أنبيائهم في الطاعة والقبول، وفي المعصية والكفر، فقال جَلَّ جلاله ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ فمنهم من آمن واهتدى بتوفيق الله تعالى وإرشاده وعونه له، ونسب الله تعالى هدايتهم له عَزَّ وجل، امتناناً وبياناً وتنويهاً لتفضله على من اهتدى، وأن عليه لزوم الشكر والثناء على الله تعالى، وكذلك لزوم الدعاء، بأن يثبته الله تعالى على الحق الذي وفقه وهداه إليه عَزَّ في علاه ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ ومنهم من كفر فاستحق أن يُضله الله تعالى عقوبة له. فلإصراره على الكفر حقت عليه الضلالة، فلزم الضلالة جزاء له على كفره، وعدم استجابته للحق. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أي: وجبت في سابق علم الله، فأعلم عَزَّ وجل أنه إنما بعث الرسل بالأمر بالعبادة، وهو من وراء الإضلال والهداية[١] فإن الله تعالى لا يُضل عباده ابتداء، بل يكون الإضلال عقوبة لمن أنكر الحق، ورضي بالكفر، فإن الله تعالى يُحق عليه الضلالة جزاء له على تماديه وطغيانه. لأن الله تعالى ما أرسل المرسلين إلا ليريد لعباده الإيمان، كما قال تعالى في سورة الزمر ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ فلا يرضى الله تعالى الكفر لعباده أبداً. ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ كما أن الله تعالى لا يظلم عباده، كما قال عَزَّ وجل في سورة فصلت ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فوصف تبارك وتعالى قضاءه بكمال العدل. فلن يظلم ربكم أحداً من العباد، فلن يزيد سيئة أو يُنقص حسنة، بل يوفي كل نفس بما كسبت. فلن يعاقب أحداً إلا بذنبه الذي

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٥/٤)

اكتسبه. مما يفيد أن عمل العباد هو مناط الحكم. بل أورد سبحانه وتعالى انتفاء ظلمه عن عباده بصيغة المبالغة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ فدلالة ﴿بِظَلَّٰمٍ ﴾ تفيد المبالغة في نفي الظلم عن أحكامه وقضائه عَزَّ في علاه.

ثم يوجه الله تعالى عباده إلى التأمل والتفكر فيما حل بالأمم التي كفرت ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فامشوا في الأرض وتأملوا فيما حل بالأمم السابقة، لتكون لكم آية وعبرة وزجراً عن الكفر، فأمر بالسير في الأرض للاعتبار ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ فتأملوا كيف هي نهاية ومآل الذين كذبوا رُسُلي، بما أصابهم من العذاب الذي حاق وأحاط بهم، فأهلكناهم بكفرهم. مما يفيد أنه سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده الكفر، ولا يريده لهم، ولو أراده لهم لما بعث المرسلين، ولما عذب الكافرين وأهلكهم. وكلمة ﴿فَسِيرُواْ ﴾ تفيد أهمية إنشاء السفر للعبرة التي تحقق للإنسان مصلحته، بل أعظم مصلحة في الدنيا والآخرة، وهي النجاة من النار، ودخول الجنة بالإيمان والاستسلام لله تعالى. وأفاد الأمر ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أهمية سبر أحوال الأمم، وعقد الأسفار والبحث، من أجل الوصول للحقيقة التي تُنجي العبد من النار، مما يدل على عظمة الإيمان وأهميته، وأنه جدير بأن يتحمل الإنسان المشاق من أجل أن يدركه ويأخذ به، ولو تكبد من أجله الأسفار، وليدرك كل من وفقه الله تعالى للإسلام أنه قد حصل على الخير العظيم من غير عناء.

ودلالة كلمة ﴿فَٱنظُرُواْ ﴾ تبين أهمية التأمل والتدبر، والوقوف على ما يحقق الإيمان. وهي تفيد نظر البصر بالمشاهدة والمعاينة، وكذلك نظر البصيرة بالتأمل والتفكر والتدبر. مما يبين فضل الله تعالى في تمكين الإنسان من الحواس التي تُوصله إلى الحق، ومعرفته، وإدراكه إدراكاً حسياً وقلبياً بعد توفيق الله تعالى.

وكلمة ﴿كَيۡفَ ﴾ تستثير الذهن ليتصور الإنسان مَشَاهِد الأمم وأحوالها، وما حصل لها من النكاية والعذاب، فدلالة لفظة ﴿كَيۡفَ ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور تلك المواقف من الأمم، وما حل بها، فيتأملها ويتصورها وكأنها حادثة أمامه، بل وكأنه يعيش تلك اللحظة. ولفظة ﴿كَيۡفَ ﴾ لفظ استفهام، يتوصل به إلى الدليل من خلال حال الأمم، فهو استفهام سيأخذ بصاحبه إلى مشاعر التهويل من أحوال تلك الأمم، وحال أمته فيما لو أصابها ما أصابهم، أي فكيف يكون حالهم؟ وكيف يصنعون؟ فيما لو حل بهم عذاب الله تعالى كما حل بمن سبق. وهي تحمل كذلك استفهام التوقف والتعجب، والتأمل لموقف سيمر به هؤلاء إن لم ينقادوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك استثارة للذهن بالتفكر في تبعية المآل،

والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون حال وقوع العذاب بهم. فإن أسلوب القرآن العظيم يستثير العقول، والأفئدة، والمشاعر ليتحقق الخير للنفس المتأملة المستجيبة للموعظة، والراغبة في الحق والخير.

فإن عاقبة المكذبين آيات باقية ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ ليفيد هذا التوجيه الكريم أهمية التأمل والاتعاظ، بل وجوب أخذ العبرة من الغير ومن الأحداث، فإنها شواهد وأدلة على قدرة الله تعالى، ووقوع العذاب، وأن الله عزَّ وجل لا يريد لعباده الكفر. فهذه دلائل تدل على أن الله تعالى يريد لعباده الخير ولا يريد لهم الكفر.

ثم يخبر الله تعالى نبيه عليه الصلاة بما يعالج به حرصه الشديد على إسلام الجميع، ليحظوا بما أعده الله تعالى للمؤمنين، فيقول تبارك وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ فإن تبذل كل جهدك أيها النبي، فتطلب به تحصيل الهداية لهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾ فإن الله تعالى لا يوفق ولا يرشد ﴿مَن يُضِلُّ ﴾ أي: من أضله اللهُ سبحانه وتعالى بسبب عناده كما جاء في الآية السابقة ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ فقد علم الله تعالى بما سبق أن هذا المعاند المصر على كفره لن يؤمن، فأبقاه الله تعالى على إصراره ولم يوفقه. بل حتى النصرة ممتنعة عنهم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ فليس لهم من ينصرهم لبلوغ الهداية التي أصروا على نبذها والحياد عنها إلى الكفر. مما يفيد أن هَوّن عليك أيها النبي هذا الأمر من الحرص، لأن كلمة الحرص ﴿ إِن تَحۡرِصۡ ﴾ تفيد: شدة اجهاد النفس في تحصيل إيمانهم، مما يبين مقدار حِرصه عليه الصلاة والسلام فيما كُلِّف به من الرسالة، وشدة معاناته لمن يبقى على كفره، فيموت كافراً. ليعطي أمته درساً في الحرص على الخير وفق منهج الله تعالى. وكذلك يفيد هذا أن على المؤمن أن يبذل الوسع في الخير، والدعاء والالتجاء إلى الله تعالى، وأن ما ينوبه هو الأخذ بالأسباب، ومنها هداية الإرشاد فقط، وأنه مهما حرص المؤمن فليس هناك ناصر لمن أصر على الكفر، فإنها أمور متعلقة بين العبد وربه تبارك وتعالى، فهو العالم بحقائق وضمائر العباد، وما سيكون منهم قبل أن يكون.

ثم يعود البيان من الله تعالى إلى كشف حقائق المكذبين الكافرين، وما يعتقدون في نفوسهم من الباطل، والذي حال بينهم وبين الطاعة بالإسلام والاستسلام والانقياد لله تعالى، فمن شدة كفرهم أنهم أقسموا بأنه لا حياة بعد الحياة الدنيا ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فقد تجرأ أولئك المشركون بالقسم بالله تعالى، وأغلظوا في

أيمانهم، وبذلوا أقصى الجهد في الحلف الذي يحمل التعنت والعناد والجدال بأن ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ فاستبعدوا إعادة الحياة لمن يموت، وأنهم مُوقنون بذلك، غير شاكين فيه، فكذبوا بالبعث، وكذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبرهم به عن البعث والحياة والحساب والجزاء، وبالتالي يستبعدون الجنة والنار. وغلظوا الأيمان في ذلك. فكذبهم الله تعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأبطل الله تعالى نفيهم للبعث بأداة الإبطال ﴿بَلَىٰ﴾ التي أبطلت بالنفي قولهم، وإثبات تحقق البعث. أي: بلى سيكون ذلك البعث.

ثم يزداد البيان تأكيداً بقوله تعالى ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ صدقاً لا خلاف فيه، ولا يتخلف أبداً، فإنه وعد حقيقي أوجب الله تعالى حصوله وتحققه، فلا شك ولا ريب في تحققه. مما يبين لهم ولكل أحد أن البعث والإحياء بعد الموت غير عسير على الله تعالى كما يعتقد المشركون، فإن الذي بدأ الخلق بقدرته من غير شيء، قادر على إعادته بكل سهولة ويسر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس وهم الكافرون يجهلون حقيقة البعث بعد الموت، فينكرونه، وينكرون من قال به، فأنكروا رسالة المرسلين، وذلك دليل على أنهم قاسوا ذلك على قدرتهم البائسة الضعيفة، ولم يفكروا في بدأ خلق الإنسان، فلوا فكروا فيه لأدركوا أن من خلق الخلق ابتداء قادر على أن يعيدهم بعد الموت. مما يفيد أن عدم العلم، وعدم التعلم والتفكر يؤدي بالإنسان إلى إنكار الحقائق. وذلك لضعف تعقله بسبب عدم تعلمه بالتفكير وبالقياس من ظواهر الآيات التي أمامه، ويعايشها ليلاً ونهاراً، فهناك تفرق السحاب وغيابها بعد اجتماعه، ثم يعيدها الله تبارك وتعالى بعد تفرقها وذهابها ورحيلها، وتنبت الأرض بعد جفافها وموتها، ثم تجف بعد اخضرارها، ثم تخضر بعد جفافها، فقد بدأ وأعاد عَزَّ وجل بقدرته ورحمته تتالي الموت والحياة، بما يبين عظيم سلطانه وتدبيره. ومن ذلك غياب الشمس وظهورها، وغياب النهار وظهوره، وغيرها من الآيات الدالة على عظمة قدرة الله تعالى. فمن أعاد تلك يُعيد الإنسان بعد موته.

ثم يأتي المزيد من البيان عن مقتضى البعث، وما يتبعه من حساب وجزاء، لتتجلى حكمته تبارك وتعالى، فإن كل تصريفه يحمل الحكمة البالغة ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ ليبين لهم بهذا البعث ما كانوا يختلفون فيه من الحق والباطل، وما ينكرون، وما يخالفون فيه كتاب الله تعالى وما جاء به المرسلون، فيظهر للكافرين بطلان كفرهم، ويظهر للمؤمنين ثواب صدقهم وإيمانهم ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ وليكتشف الذين كفروا بالبعث والحساب والجزاء والجنة والنار خطأهم، وخطأ ما أقسموا عليه بأنهم كانوا يكذبون على أنفسهم وعلى غيرهم،

بالأيمان المغلظة الكاذبة، من أنه لا بعث بعد الموت، وبالتالي لا حياة بعد الموت، ولا آخرة بعد الأولى، وبالتالي لا حساب ولا جزاء، فلا جنة ولا نار.

ثم يتدرج البيان العظيم إلى الإخبار عن عظيم قدرته سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يخبر الله تعالى عن إيجاد ما أراد من خلق الأشياء وإيجادها، وإنهائها، وإعادتها، وما يقضي به من قضاء ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فتكون كما أراد الله تعالى، فإنه بمجرد ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فإنه يُصبح المأمور به كائناً ماثلاً كما أراده الله تبارك وتعالى، فالإبداء والإعادة بمجرد صدور الأمر بأن يكون، فيصبح كما أراد الله تعالى، فكل شيء على الله عَزَّ وجل سهل ويسير، ولا يُقاس فعل الخالق وقدرته على المخلوقين.

وقد تضمنت الآية الكريمة بيان إيقاع الشيء كما أنه كائن قبل أن يكون، فلا يمتنع على الله عَزَّ وجل شيء أبداً. فوجود ما أراده الله تعالى عند القضاء به كائن بالسرعة التي يقضي الله تعالى بها أن يكون به الشيء والأمر. وفي هذا البيان من الله تعالى تعليم لكل أحد عن قدرته عَزَّ وجل في قضاء ما يريد. وفي هذا رد على من ينكر البعث، ويستصعب الإعادة، وما يترتب عليه من الحساب والجزاء، ووجود الجنة والنار.

ومن دقائق البيان وفوائده: قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾ فكلمة ﴿إِنَّمَا ﴾ أفادت الحصر الذي يفيد تعظيم القدرة الخاصة بالله تعالى، وأن هذا لا يكون إلا من الله تعالى فقط، فلا يشاركه ولا يماثله فيه أحد من خلقه، فقصرت وحصرت تَكَوُّن الشيء وجوداً وحدثاً أو إزالة على مجرد قوله تعالى ﴿كُن ﴾ فإذا به يكون كما أراد جَلَّ جلاله. كما أفادت دلالة قوله عَزَّ وجل ﴿قَوْلُنَا ﴾ وكلمة ﴿نَّقُولَ ﴾ أن الله تعالى لا يحتاج أن يعمل شيئاً حتى يكون الشيء، بل مجرد القول.

فما أعظم عظمة الله تعالى وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، فقد تعالت وسمت أسماؤه وصفاته وكماله.

وأفادت جملة ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ ﴾ أنه لا شيء يمتنع عن إرادته عَزَّ وجل. وفي إطلاق كلمة ﴿لِشَيْءٍ ﴾ أفادت العموم المطلق، لتشمل جميع ما أراده سبحانه وتعالى مما هو كائن وما سيكون إذا أراده الله عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان الرباني أنه سَمَّى سبحانه وتعالى ما يقع قبل وقوعه بالشيء، لأنه بمنزلة ما قد حصل، وفي حكم الموجود، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فإن قيل: كيف سَمَّى الشيء قبل وجوده شيئاً؟ فالجواب:

أن الشيء وقع على العموم عند الله تعال قبل الخلق، لأنه بمنزلة ما قد عُوينَ وشُوهِد[١] وفي هذا قوة بيانية عظيمة، تتوافق مع قوة إرادته جَلَّ جلاله، وعظيم أمره وسلطانه. كما أن هذه الآية الكريمة تُعلم الإنسان عظمة الله تعالى، وعظمة قدرته، وقوة سلطانه، وسرعة تحقق ما يقضي به عَزَّ وجل، وبأن لا يقيس الإنسان قدرة الخالق على المخلوق، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء.

ثم ينتقل السياق والبيان الإلهي من شأن المكذبين والمجادلين إلى شأن المؤمنين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة طاعة لله تعالى، وإيماناً وتصديقاً بالبعث بعد الموت، والجزاء والحساب، وقد أشاد بهم، وبعظيم الجزاء الذي سيجدونه في الدنيا وفي الآخرة ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ فسماهم بالمهاجرين في الله ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ ﴾ وفي هذا عظيم الثناء عليهم، وتزكية لهجرتهم منه مباشرة عَزَّ وجل، وجعلها آية تُتلى، فلا يغيب ذكرهم، وذكرى هجرتهم عن المؤمنين طيلة الحياة الدنيا، فقد وصف هجرتهم أنها له تبارك وتعالى، فكانت هجرتهم، وتركهم لديارهم وأموالهم ومراتعهم في سبيله عَزَّ وجل، فتشمل دلالة المهاجرين، هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وجميع من خرج من مكة من أصحابه رضي الله عنهم إلى الحبشة وإلى المدينة. قال قتادة: هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طوائف منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله تعالى المدينة بعد ذلك، فجعلها دار هجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين[٢] وجملة ﴿ فِي ٱللَّهِ ﴾ أفادت السبب في الهجرة، بأنها طاعة لله تعالى، فلم تكن لأي مقصد آخر، بل خالصة لله تعالى، وهذه تزكية من الله تعالى لهجرتهم ولهم، ولإخلاصهم له جَلَّ جلاله.

ثم علل سبحانه وتعالى هجرتهم ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ فقد حصل لهم الظلم من مشركي قريش، وتحملوا ذلك الظلم، وعالجوه بالهجرة التي يسرها الله تعالى لهم. وورد الظلم بصيغة المبني الذي لم يُذكر فاعله ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ ليشمل ويستوعب جميع تعدد الظالمين لهم، وتنوع أوجه الظلم من الظالمين. وهم مشركي مكة الذين أنكروا البعث، وكذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأثبت الله جَلَّ جلاله لهم أنهم مظلومين، وأثبت ظلم المشركين لهم.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٧/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢٣/١٤)

فهؤلاء يكافئهم الله تعالى بمكافأة عظيمة في الدنيا والآخرة، فقال عَزَّ وجل ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فجملة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بيان إن الفرج لهم قريب، وأنهم سيحصلون في الدنيا على خير عظيم ووفير من بعد ذلك الظلم الشديد، فأسكنهم الله تعالى المدينة، مُعززين مُكرَّمِين، ورزقهم الرزق الحسن، ونصرهم على عدوهم، وفتح الله تعالى عليهم البلدان، وصارت لهم الإمارة، وأصبح الثناء لهم، والترضي عليهم من المؤمنين خلف عن خلف، فأوفاهم الله تعالى ما وعدهم به على أحسن الوفاء وأتمه، فإنها آية إعجاز، وحجة إلى قيام الساعة، فسبحان الله العظيم.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ تفيد المستقبل، أي: لَنُنْزِلُهُم، ولَنُسْكِنُهُم، ولنهيئ لهم، ولنقعدنَّهم. وفي هذا الوعد بالمستقبل الدنيوي إعجاز وآية بينة بما تحقق لهم في الدنيا من عظيم الخير، وهم يشاهدون ويشعرون ويحسون بذلك. بل وعرف غيرهم ما وعدهم الله تعالى به لهم، وعرف من بعدهم كيف حقق الله تعالى لهم ما وعدهم به، لتكون آية باقية ما بقيت الدنيا. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ فحقق الله تعالى تمام ما وعدهم به جَلَّ في علاه. وكلمة ﴿حَسَنَةً﴾ أفادت الحياة الطيبة من كل وجه، من غير تخصيص لحد ونوع محدد، لأن فضل الله تعالى واسع عظيم، لا يحده أحد بحد محدد.

ثم أخبرهم تبارك وتعالى بما سيكون عليه حالهم في الآخرة ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فإذا كان هذا الذي أصابهم في الدنيا خير عظيم، لم يكن في حُسبانهم، فإن لهم في الآخرة أكثر من ذلك بفارق عظيم ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ فجزاء إيمانهم وهجرتهم وأعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا، فإن لهم بها ثواب كبير عما تحقق لهم في الدنيا، ففي الآخرة أكبر وأعظم، فإذا كان الذي حصل لهم في الدنيا لم يخطر ببال أحدهم، فإنه سيكون في الآخرة أكبر من أن تُدرك عقولهم عظمته قبل أن يروه ويعايشوه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فلوا علموا وشاهدوا حَسَنَة الآخرة، وثوابها لعلموا أنه أعظم وأكبر من حسنة الدنيا، وكذلك يمتد سلطان النص الكريم إلى أن مَنْ ظلمهم من المشركين سيعلمون ما أعده الله تعالى للمهاجرين من الحسنة التي هي أعظم مما حصل لهم من حسنة الدنيا، ليفيد شدة التحسر، والتوبيخ لمن ظلمهم، ولصنيعهم، بل ويمتد سلطان النص، إلى كل من يأتي من بعدهم، بأن ما حصل عليه المؤمنون في الدنيا من الحسنة العظيمة، فإن لهم في الآخرة أعظم من ذلك بكثير، فإن رأيتم ما حصل لهم من حسنة الدنيا حتى أصبح الأمر إليهم في كل وجه، فإن لهم في الآخرة أكبر من ذلك. وكلمة ﴿أَكْبَرُ﴾ مطلقة، لا يمكن لأحد أن يحد حدودها، فلا يعلم حجم ومقدار ذلك الأكبر إلا الله سبحانه وتعالى. فإنه بيان مملوء بالإعجاز، وبالحجج والبراهين التي تدل على صدق

هذا الدين، وصدق النبي والرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق ما جاء به، وأن كل ذلك وحي من الله تعالى، وصدق لا شك ولا ريب ولا جدال فيه.

ثم يزداد المدح والثناء عليهم ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فهذا ثناء من الله تعالى على ما كان منهم من الصبر والتوكل على الله تعالى، فأصبح الصبر سمة وصفة لهم، إذ وصفهم الله تعالى به، وزكاهم بتلك الخلال، فالصبر يتضمن تحمل المشاق الجسدية والنفسية، وقوة الامتثال لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، مع التوكل الذي يفيد الاعتماد على الله تعالى من غير شك ولا ريبة.

ومن جمال الوصف ودقة البيان، أن وصفهم الله تعالى بالصبر، بصيغة الماضي ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ ليفيد تحملهم المشاق العظيمة، حتى هاجروا من ديارهم، ثم حصلت لهم الحسنة التي لا مشقة فيها ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ ﴾ والحسنة مخالفة للشدة، وما تقتضي من الجلادة وقوة الصبر، ليصبح هذا التوافق والتناسق آية إعجاز في تحرير الوصف بالبيان لمعجز. بينما ورد توكلهم بصيغة المضارع ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فالتوكل اعتقاد وعمل متواصل لا ينفك عن المؤمن في حياته أبداً. بينما كان الصبر بصيغة الماضي ليفيد انتهاء الشدة التي تحتاج فيها إلى الصبر الشاق، وفي هذه الدقة لكلمات القرآن الكريم ودلالاتها العميقة في معناها وفي مبناها آية إعجاز، بل في غاية العظمة من الإعجاز البياني.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

وينتقل السياق إلى إبطال استنكار المشركين من أن تكون النبوة في رجل، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فيعود بهم التوجيه الكريم من الله العزيز الحكيم إلى ما سبق من الأمم، الذين كان جميع رُسُلهم من جنس الرجال ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فما أرسلنا في السابقين من قبلك أيها الرسول إلا رسلاً من جنس الرجال، وليس فيهم أحد من الملائكة. فنوحي لرسلنا ما نشاء من الوحي.

ثم يُعيد سبحانه وتعالى المنكرين إلى سؤال أهل الكتب السابقة. فقال تبارك وتعالى لهم ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فاسألوا أهل الكتب السابقة فإنهم يُخبرونكم أن أنبياءهم كانوا رجالاً منهم، إن كنتم لا تعلمون أنهم بشر. فأعطت فائدة عظيمة بأن مصدر العلم أهله، وعلى من جهل شيئاً أن يتوجه لأهل العلم.

وبالرغم من أن هذا البيان هو تصحيح لمفاهيمهم إلا أنه تبارك وتعالى يخاطب به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، اهتماماً وعناية به عليه الصلاة والسلام، وتأييداً له، وإثباتاً لسنة الله تعالى في إرسال المرسلين، وتعريضاً وتفهيماً لهم بأن الذي يخصهم هو إقامة الحجة بالبرهان والإثبات ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ فابتدأ الخطاب بأداة النفي ﴿ وَمَآ ﴾ وما أرسلنا من رسول قبلك إلا رجالاً، ثم بعد النفي أثبت سبحانه بأداة الاستثناء والقصر ﴿ إِلَّا ﴾ أي: بأن الرسالة في جنس الرجال فقط، وفي اجتماع أداة النفي مع أداة الاستثناء ما يفيد القصر والحصر، فحصرت وقصرت المرسلين من الله تعالى للناس أنها في جنس الرجال فقط، فلا يدخل في ذلك النساء، ولا الملائكة الكرام، وإنما يُرسِلُ الله تبارك وتعالى الملائكة إلى الرُّسُل من الرجال بالوحي. وفي هذا الأسلوب البياني دقة تحرير السياق الذي ينفي كل احتمال وكل نوع، فيحصر الرُّسُل جميعاً عليهم الصلاة والسلام في جنس الرجال.

فما أرسلنا قبلك أيها النبي رسولاً فيمن سبق من الأمم إلا كانوا رجالاً، وبالتالي فإنك مثلهم من المرسلين. وفي هذا تكريم واستئناس للنبي صلى الله عليه وسلم، من حيث اصطفائه من بين غيره من الناس، وكذلك تكريم للنبي صلى الله عليه وسلم من حيث توجيه الخطاب له مباشرة، بالرغم من أن الخطاب يعالج شبهة لدى المشركين، فجاء الخطاب تعريضاً وتصريحاً، فهو تعريض للمشركين بأنهم هم المعنيون بذلك التوضيح، وهو كذلك تصريح في الإيضاح، فيرفع عن الشبهة افتراءها، مع دحضها بالحجة والبرهان، بأنه لم يسبق أن كانت الرسل فيمن قبلك من غير جنس الرجال، فكيف يطلبون غير سنة الله تعالى في عباده، وفي رسولكم صلى الله عليه وسلم.

ثم بين الله تبارك وتعالى أن هؤلاء المرسلين يتم الإيحاء إليهم من ربهم جَلَّ جلاله ﴿ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ والوحي هو ما يلقيه الله تعالى على أنبيائه، سواء ما كان عن طريق الملائكة، أو تكليم الله تعالى من وراء حجاب، أو النفث في روع النبي، أي: في خلده ونفسه وقلبه وعقله، عن طريق جبريل عليه السلام، وقد بينها الله تعالى في كتابه، القرآن العظيم. فقال تعالى في سورة الشورى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا

وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ فينفي بذلك أن يكون الأمر اجتهاداً من عندهم، بل لا يقولون للناس إلا بما أمرهم الله تعالى به.

وقد نسب الله تعالى الوحي له عَزَّ وجل ﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ فإن مصدر الوحي هو من الله تعالى، وفي هذا تخصيص وتأكيد لكل ما يذكره نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن ربه عَزَّ وجل بأنه فعلا وحقيقة من ربه جَلَّ في علاه، وفي هذا تزكية لأمانة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لا ينسب شيئاً لله تعالى إلا هو حقيقة من عند الله عَزَّ وجل. وفي ذلك نفي لكل شبهة كائنة في قلب صاحب شبهة.

ثم يؤكد تبارك وتعالى ذلك بتوجيه الشَّاكِّين الجاهلين، وأصحاب الشبه إلى الشهود الذين يشهدون لهم بأن جميع المرسلين كانوا رجالاً ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فإن كنتم لا تعلمون الحقيقة، وتجهلون بها فإن عليكم سؤال أهل الكتاب ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى. فإن أهل الكتاب يخبرونكم بأن جميع الأنبياء كانوا بشراً من الرجال. مما يفيد أن على الجاهل بالشيء أن يسأل عنه من يعلمه ويعرفه. وفيه بيان أهمية العلم، وأنه يقود إلى الحق.

ومن فوائد غزارة البيان الرباني أن جملة ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ تتسع لتستوعب ما يجهلون، وما فيه شبهة لهم، إن كنتم لا تعلمون أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسألوا من آمن، لأنهم آمنوا عن علم. واسألوا كذلك أهل الكتاب فإن عندهم علم بأوصاف رسولكم صلى الله عليه وسلم. وكذلك تستوعب سؤالهم عن المرسلين السابقين في أممهم، فأهل الكتاب يُخبرونكم بذلك، لأنهم أهل علم بذلك. فلا تقفوا على جهلكم من غير علم، ولا على الشُّبَه التي تثيرونها بينكم. فإن الدلائل واضحة.

ثم يخبر الله تعالى بما أُرسِل به المرسلين ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فقد أرسل الله تعالى الرُّسُل بالبينات الواضحات من الحجج والبراهين. فبدأ بالبينات ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وهي الحجج والمعجزات والبراهين القاطعة الواضحة، ثم عطف عليها سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلزُّبُرِ ﴾ أي: الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى، ومفردها زَبُور. وهي الكتب المتلقاة من السماء، كصحف إبراهيم، والتوراة والإنجيل. ثم قال عَزَّ وجل ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ وأنت أيها النبي أنزلنا عليك القرآن العظيم الذي هو الذكر، تذكيراً للناس وعظة لهم.

ثم تدرج البيان إلى الغاية والهدف من إنزال الذكر ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لتبين وتوضح للناس ما جاء في هذا الذكر الذي هو القرآن من الحجج والبراهين، وما فيه من التشريع والأحكام والواجبات والمندوبات، وما حرم فيه، وما نهى عنه، وما وعد به المؤمنين، وما توعد به من عصى، ومن كفر. فحدد سبحانه وتعالى مهمة النبي صلى الله عليه وسلم في البيان والإيضاح. ومبيناً سبحانه وتعالى أن ذلك البيان هو للناس جميعاً ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ لتفيد أنه عليه الصلاة والسلام رسولاً لكافة البشرية، فكلمة ﴿لِلنَّاسِ﴾ تفيد جنس الناس جميعاً، وجملة ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ تستوفي القرآن الكريم، وكذلك ما يُوحِي به الله تعالى من السنة المطهرة. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فلعلهم بهذا الذكر يتفكرون بالتأمل والنظر، فيدركون حقيقة نعمة ما أنزل إليهم، فيتعظون ويعتبرون ويعملون به. مما يفيد أن القرآن الكريم يهدي الإنسان للحق، وكذلك أهمية التفكر في آياته، وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإن من تأملها أدرك أن هذا الدين حق لا ريب ولا شك فيه، وأنه ليس إلا من عند الله تعالى، الذي امتن به على عباده، ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

فبعد أن أقام الله عَزَّ وجل الحجة البالغة على المشركين فيما سبق من البيان، ينتقل في تدرج عظيم إلى الوعيد والتهديد لهم، بسؤال يحمل التعجب والاستنكار، على أنه بعد هذه الحجج والبراهين لا يسعكم إلا العذاب بما تستحقون فيما استرسلتم فيه من العناد والمكابرة على الحق ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أتعتقدون أنكم في مأمن من عذاب الله تعالى، وبأسه الشديد إن لم تنتهوا عن غيكم وكفركم، فورد التهديد والتوبيخ لهم في استرسالهم في الكفر مع ما جاءهم من الحق والبينات بسؤال تعجب من حالهم، ومخاطباً في ذلك النبي صلى الله عليه وسلم عن حالهم، تعريضاً لهم وتهديداً لتماديهم الذي بلغ فيه المكر مبلغه ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أفأمن أهل الشرك والفساد الذين يمكرون بالمؤمنين، ويمكرون بالناس في دعوتهم إلى الشرك، وحملهم على ذلك بالمكر والخديعة، وتزييف الباطل، بإلباسه ثوب الحق، والمجادلة والاسترسال في ذلك، غير مكترثين بوقوع عذاب الله تعالى عليهم. ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ فهل يعتقدون أنهم في مأمن من أن يعذبهم الله تعالى ويهلكهم بالخسف. فذكر سبحانه وتعالى نوع عذابه لهم في الدنيا ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ فيزلزل الله تعالى من تحتهم الأرض، فتنشق بهم، فيهلكون بهذا الخسف العنيف ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أو يحدث لهم من العذاب ما لا يعلمون وقته ونوعه، ولا يتوقعون شدته،

فيأخذهم من حيث لا يشعرون به إلا وقد أخذهم ذلك العذاب. وفي هذا زجر وترهيب، وتهديد عظيم لهم، وبيان لقدرة الله تعالى، فإنه قد يقع العذاب بهم من حيث لا يتوقعون، ولا يشعرون إلا وقد وقعوا في الهلاك الشديد.

أو أن يقع العذاب بهم حين تنقلهم في البلاد ﴿ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ ﴾ أو يأخذ الله تعالى هؤلاء المشركين بالعذاب حين أسفارهم وتنقلهم في الأرض، وقيل في: التقلب، أن يأخذهم بالليل والنهار، وقيل في منامهم، وقيل: يشمل جميع ما يتقلبون فيه[1] ﴿ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ فما هم بمعجزين الله تعالى من أخذهم بذلك العذاب، إن أراد أخذهم على تلك الأحوال، فلا يفوتون منه تبارك وتعالى ﴿ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ ﴾ أي: يأخذهم بما يجلب لهم الخوف والذعر في تدرج متعاقب ومتتالي. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهم: أي: على تنقص من أموالهم ومواشيهم وزروعهم، وكذا قال ابن الأعرابي: أي: على تَنَقّص من الأموال والأنفس والثمرات، حتى يهلكهم كلهم. وقال الضحاك: المعنى: يأخذ طائفة، ويدع طائفة، فتخاف الباقية أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها، وقال القرطبي رحمهم الله جميعاً: أن التخوف هو التَّنَقّص، تخوّفه: تنقّصه[2] وفي تعدد وتنوع العذاب الذي يستحقونه استدلال على عظيم ما يستحقون في الدنيا، فكيف بعذاب الآخرة، وفيه أن الشرك ظلم عظيم.

ثم يبين الله تعالى ما يدعوهم به إلى ترك غيهم وكفرهم، والاستسلام له وحده بطاعته، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ من قائل ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ فمن رحمته تبارك وتعالى أنه يمهل، ولا يعاجل بالعقوبة؛ لأنه سبحانه وتعالى رؤف رحيم. فإنه قادر على تعجيل عذابهم بما يستحقون من العذاب، فإن هذه العقوبة في الدنيا هي التي تستحقونها فيما لو عاقبكم الله تعالى بها على باطلكم في شرككم، ومحاربتكم الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاءكم به من الحق، وتماديكم في الكفر والعناد، ولكن الله تعالى رؤوف رحيم، فهذه هي علة وسبب إمهاله لهم. وفي هذا تلطف ولطف ورحمة من الله تعالى بالرغم من أن فعلهم يستوجب لهم ما يستحقون من العذاب، وفي ذلك سعة لهم للعودة عن كفرهم والدخول في الإسلام، فإنها رحمة عظيمة بهم، بالرغم من استحقاقهم تعجيل العذاب بهم. فله الحمد والشكر تبارك وتعالى، فهذا لطفه ورحمته بمن كفر فلا يستعجل لهم العذاب، فكيف تلطفه مع المؤمنين، فإنه تلطف عظيم كريم.

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٢٣٣-٢٣٤) وابن الجوزي (٤/٣٢٩)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٧٣)

يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

بعد وعيده سبحانه وتعالى وتخويفه وتهديده للمشركين بالعذاب فيما سبق من الآيات الكريمات، ينتقل البيان من الله تعالى إلى لفت الانتباه نحو آياته الكونية، التي منها الظلال، وتقلبها وتغير امتدادها من اتجاه المغرب، إلى اتجاه المشرق أثناء النهار، لعبور الشمس في حركتها من المشرق إلى المغرب، وما يحصل في الظلال من الامتداد ثم التقلص والانحصار حتى يصير ظل كل شيء تحته، عندما تكون الشمس عمودية، ثم امتدادها بعد نصف النهار، ثم اختفاؤها عندما يغشاها الليل بظلامه، لتنطوي تلك الظلال، ويذهب وجودها. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ يلفت الله تعالى إلى كمال قدرته، وبديع صنعه، ودقة تصريف الكون في جريانه ومسيرته، فجاء الخطاب البياني من الله تعالى لكافة الناس، وبأسلوب الاستفهام الاستنكاري، الذي يحمل التعجب من عدم استدلال الكافرين بالظلال، التي يتعايشون معها على عظيم قدرته، وعظيم سلطانه، وجمال ودقة إبداعه، وكذلك الاستدلال بها على ألوهيته وربوبيته، ووجوب توحيده، وعبادته، وطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ أفلم ينظروا بأعينهم، وبصائرهم، ويتفكروا فيما خلق الله تعالى ﴿ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ ﴾ وهو كل ما له ظل، من الأشجار والجبال، والأجسام الثابتة، والأجسام المتحركة بظلالها كالدواب وغيرها، فيتحرك الظل من موضع إلى موضع بحسب حركة الجسم المتحرك، فيكون الظل أول النهار على صورة واتجاه في تمدده، ثم يتقلص، حتى يصير ظل كل شيء تحته، ثم يتمدد في الاتجاه الآخر إلى أن يغيب وينتهي بحلول الظلام عليه.

وأن من نعمته تبارك وتعالى أنهم يتظللون تحت تلك الظلال الوارفة ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ ﴾ أي: تتنقل ظلاله، فيرجع الظل بعد زواله نتيجة أثر حركة الشمس عليه، ثم يعود بعد أن صار ظل كل شيء تحته، قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: ومعنى يتفيأ ظلاله: يدور ويرجع من جانب إلى جانب [١]

ومن جمال السياق أن كلمة ﴿ شَىْءٍ ﴾ مفردة بينما الظلال ﴿ ظِلَٰلُهُۥ ﴾ وردت بصيغة الجمع، وذلك بقصد الدلالة على الكثرة، أي: كثرة الظلال، حتى أنها ملفتة للنظر والفكر من كثرتها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين، وذات الشمال، أي: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٣٠)

مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عَزَّ وجل، وكذا قال قتادة[١] ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ فيتحرك الظل من اليمين جهة المشرق، ليتحول إلى الشمال جهة المغرب، قال قتادة: أما اليمين فأول النهار، وأما الشمال فآخر النهار[٢] فيكون اليمين عند الشروق، والشمال بعد الزوال إلى غروب الشمس، وقال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: ومعنى يتفيأ ظلاله: يدور ويرجع من جانب إلى جانب، والفيء: الرجوع، ومنه قيل للظل بالعشيّ: فيء، لأنه فاء عن المغرب إلى المشرق. قال المفسرون: إذا طلعت الشمس وأنت متوجه إلى القبلة، كان الظل قُدَّامك، فإذا ارتفعت كان عن يمينك، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك، وإذا دنت الشمس للغروب كان على يسارك، وإنما وحَّد اليمين، والمراد به الجمع. إيجازاً في اللفظ. ودلت الشمائل على أن المراد به: الجميع. وقال الفراء: إنما وحَّد اليمين وجمع الشمائل، ولم يقل الشمال، لأن كل ذلك جائز في اللغة[٣] فالمخالفة بين إفراد اليمين وجمع الشمال إبداع في السياق، وعذوبة في صوت اللفظ والكلام، بما يتوافق مع الحقيقة، ومع سياق اللغة.

ثم يُلحق بهذا البيان العظيم دلالة الطاعة والامتثال بسجود الظلال ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ أي: ميلانها من جهة المغرب إلى جهة المشرق هو سجود تلك الظلال لله تعالى، قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وسجودها ميلانها، ودورانها من جانب إلى جانب، وناحية إلى ناحية. كما قال ابن عباس رضي الله عنها: يقال من ذلك: سجدت النخلة، إذا مالت. وسجد البعير، وأسجد إذا مَيَّل للركوب[٤] ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: يسجدون لله تعالى وهم صاغرون، خاضعون. مما يفيد أن الله تعالى جبلها على الامتثال والانقياد بالطاعة له سبحانه وتعالى. وفي هذا ما يبين أهمية لفت الانتباه أثناء التعليم والتوجيه والدعوة لله تعالى إلى دقائق إبداع الله عَزَّ وجل، ومنها حركة الشمس، وحركة الظلال، وحركة المخلوقات، فإنها شواهد كونية على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وما يجب له من المخلوقين من الطاعة والامتثال لما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

ثم يتدرج التوجيه الكريم من الله العظيم إلى عموم السجود، بعد أن ذكر ما يخص الظلال من السجود لله وهم خاضعون ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فإذا كان هناك من يسجد لغير الله تعالى من البشر، فإنه يسجد لله تعالى جميع ما في السموات

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٩٣/٢)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٩/١٤)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٠/٤)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٢/١٤)

والأرض، من كل ما يدب على الأرض، وذكر سبحانه وتعالى الوجهة العليا، المتمثلة في السماء ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ ثم ذكر دواب الأرض جميعها ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ﴾ ثم ذكر الملائكة الكرام ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ووصف سجودهم أنه خال من الاستكبار، الذي استكبر عنه أكثر الناس من الكافرين. وذكر الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى ما ملخصه: وقد دخل في عموم ما في السماوات وما في الأرض جميع الأشياء الموجودة فيهما، وعطف الملائكة على ما قبلها تشريفاً لهم، وتعظيماً لدخولهم في المعطوف عليه[١] ومن دقائق كلام رب الأنام أنه بدأ سبحانه وتعالى بحصر السجود له وحده لا شريك له ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فله وحده سبحانه وتعالى يسجد ما في السماوات وما في الأرض جميعاً، فليس لغيره يسجدون، وخص الدواب بقوله تعالى ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ﴾ فخص الدواب من بين مخلوقاته في الأرض، كما خص الملائكة من بين مخلوقاته في السماء، ليلفت الانتباه إلى كون الدواب مشابهة للإنسان في الحركة، وفي الكثير من أمور الحياة، ومنها الحواس، كالسمع والبصر، وفي الغذاء كالأكل والشرب والتنفس. ليكون حال البيان هو استنطاق الإنسان لنفسه: لماذا أنتم أيها الناس لم تُجمِعُوا على الطاعة والامتثال، كما أجمعت عليه تلك الدواب، فكثير من الناس يسجدون للحجر والشجر، وإلى غير ذلك. وفي هذا تعريض للمشركين، ولكل من يعبد غير الله تعالى، فهل الدواب في الأرض أحسن وأفضل منكم، مع ما تقدم من جليل الإنعام والإكرام لكم أيها الناس. فإنها مخاطبة تستثير العقل والفكر، لتنهض بالإنسان من الجهل إلى العلم، ومن التكبر إلى الطاعة، ومن الكفر إلى الإسلام والامتثال.

ثم ذكر سبحانه وتعالى الملائكة من بين مخلوقات السماء، تشريفاً وتعظيماً لشأنها ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ فعلى كثرتهم فإنهم في طاعة لله تعالى، وقد انتفى منهم جميعاً الاستكبار، بينما أكثر الناس متلبسين بالاستكبار الذي قادهم إلى الكفر، وفي هذا تعريض للمشركين، ولكل من يعبد غير الله تعالى. فإن لكم الأسوة الحسنة في طاعة الملائكة لله تعالى من غير استكبار. فإنها مخاطبة تستثير العقل والفكر، لتنهض بالإنسان من الجهل إلى العلم، ومن التكبر إلى الطاعة، ومن الكفر إلى الإسلام والامتثال.

ثم يصف سبحانه وتعالى حال الملائكة الكرام التي في السماوات بكمال الطاعة ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يخافون ربهم سبحانه وتعالى، فيسجدون وجلين، طائعين، خائفين منه تبارك وتعالى فيما لو حصلت منهم المعصية فيعذبهم ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ويأتمرون بما يأمرهم به الله تبارك

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٦٦/٣)

وتعالى، فيؤدون حقوقه، ويجتنبون ما نهى عنه. وفي هذا تزكية لهم من الله تعالى في خوفهم وامتثالهم له عَزَّ وجل، بفعل ما يأمرهم به وينهاهم عنه عَزَّ وجل. ومن دقائق البيان هو ورود الفعل منهم ﴿ وَيَفْعَلُونَ ﴾ بصيغة الفعل المضارع المستمر، ليعطي دلالة تتابعهم في الطاعة المستمرة التي لا تنقطع. كما ورد الأمر من الله تعالى أيضاً بصيغة الفعل المضارع ﴿ يُؤْمَرُونَ ﴾ ليفيد تتابع أوامر الله تعالى، وتعاقبها، بما يأمرهم به جَلَّ جلاله. فإنها دقة في البيان كما هي دقة الله تعالى في تدبيره للكون.

وقد أوضح تبارك وتعالى مقامه العظيم بأنه فوقهم ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ فإن الله تعالى فوق مُلكه وخلقه، فليس فوقه شيء سبحانه وتعالى، وعَزَّ في علاه. وفي هذا بيان وثناء وتعظيم لشأنه جَلَّ جلاله، مما يدل على أن خوفهم هو تعظيم لربهم تبارك وتعالى، لعلمهم بعظيم أمره وسلطانه، وعظيم حقه عليهم، وعظيم عقابه وعذابه.

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى دلائل الوحدانية له عَزَّ وجل، وكمال قدرته، يُوجّه ويُرشد عباده إلى توحيده، وإفراده بالعبادة ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ فقال الله تعالى لعباده لا تتخذوا شريكاً مع ربكم تبارك وتعالى، فلا تعبدوا معبودين اثنين، فتعبدون ربكم، وتجعلون له شريك آخر، فقد نَفَّر عباده من الشرك بتأكيده، مع المبالغة في النهي عنه، فقال تعالى ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ فنهى عن الإلهين، وأكدهما بلفظ ﴿ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ للتأكيد مع المبالغة في التنفير، فكل كلمة لها مغزاها ودلالتها في القرآن الكريم. ومن قوة البيان، أن في تحديد وتعيين التثنية ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ دليل على نفيي ما هو أكثر من إلهين، وفي هذا إبطال الشرك، وتقرير التوحيد، بصرف العبادة كلها لله تعالى وحده لا شريك له، وذلك فق ما شرع على رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم حصر الألوهية فيه فقط، سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ فإن ربكم تبارك وتعالى إله واحد، منفرد بالعبودية والربوبية، وفي أسمائه وصفاته، ثم حثهم على الخوف منه عَزَّ وجل ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ فخافوا عقابي لمن أشرك، وعصى أمري. فقصر الله تعالى رهبة العباد أن تكون له وحده لا شريك له، فكل رهبة مهما كانت من أمر وشأن، فإنها من الله تعالى أعظم، فإذا خاف المؤمن عاقبة أمر من أمور الحياة الدنيا فليقدم خوفه من الله تعالى على كل خوف، فإن عاقبة كل شيء محدود الزمن، ومحدود الأثر، ولكن عقاب الله تعالى قد لا يكون محدوداً بزمن، ولا بأثر محدد، فقد يكون طيلة الحياة، وقد لا تكون له نهاية في الآخرة. فالرهبة منه عَزَّ وجل وقاية من الوقوع في كل ما يغضب الله تبارك وتعالى. فإذا وجد المؤمن في حياته أمراً أو أموراً،

يتزاحم فيه الخوف من الله تعالى مع الخوف من أمر آخر، فليقدم خوفه من الله تعالى على خوفه من نتيجة ذلك الأمر، كأن يخاف إن لم يغش أو يكذب أو يأخذ الربا فإنه قد يخسر، فخاف من الخسارة، وزاحم ذلك الخوف من الله تعالى أن يعاقبه، فليقدم خوفه من الله تعالى على خوف ما عداه، فإن الله تعالى يُعوضه خيراً مما فاته، لأنه من ترك شيئاً لله عوضه اللهُ خيراً منه.

ثم في تتابع بليغ يقرر جَلَّ جلاله كمال ملكه، وأن كل شيء تحت تصرفه ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ فإن لله تعالى ملك السماوات والأرض ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإن مقتضى من له ما في السماوات والأرض أن كل شيء عبد له، ومخلوق له جَلَّ جلاله، فكيف يُعْبَد معه شيء آخر مما خلق. وفي هذا استدلال على وحدانية الله تبارك وتعالى، ووجوب طاعته، وصرف العبادة له وحده لا شريك له، وأن من أشرك معه غيره، فقد أشرك مع الخالق مخلوقاً. وهذا لا يقره عقل.

ثم تلى هذا الإخبار تقرير ثبوت الدين أنه له خالصاً سبحانه وتعالى ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ فإن الدين لله تعالى ﴿ وَاصِبًا ﴾ أي: ثابتاً، وخالصاً، ودائماً، ومتقرر الوجوب، فلا ينقطع، وذلك بما سبق من الحجج والبراهين، وبالتالي فإن صرف العبودية والطاعة واجبة لله وحده لا شريك له، بثبوتها، الذي لا مجال فيه لغير ذلك. ومن غزارة دلالة البيان ما نقله ابن الجوزي، عن الزجاج، رحمهما الله تعالى: ويجوز أن يكون المعنى: له الدين والطاعة، رضي العبد بما يؤمر به، وسهل عليه، أو لم يسهل عليه، فله الدين وإن كان فيه الوصب. والوصب: شدة التعب[1] وهذا من غزارة الدلالة في القرآن التي استوعبت تضامن الدلالات وتظافرها، من غير تعارض.

ثم ينتقل بيانه سبحانه وتعالى إلى تقرير وجوب طاعة العباد له بأسلوب السؤال الاستنكاري بعد هذه الحقائق ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ أيكون منكم أيها العباد بعد هذه الأدلة والحجج من يصرف التقوى لغيره عَزَّ وجل؟ فيهاب ويخاف غيره، ويتقرب لغيره بالطاعة مخافة منه. فإذا كان الدين وما يستلزمه من الطاعة لله تعالى واجب على الدوام الثابت الذي لا ينقطع، أتذهبون في خوفكم إلى غير الله تعالى؟ فتخافون غيره من الجمادات، ومن الأعيان، ومن الناس، فتتقربون لتلك المخلوقات بالطاعة والرجاء. بما يفيد توبيخ من سلك به عقله هذا المسلك، الذي هو مسلك الكفر والمعصية، وصرف التقوى لغير الله سبحانه وتعالى. مما يبين أن دين الله تعالى قائم على الإقناع، والعلم والتعليم بالحجج والبراهين التي ترتقي بعقل العبد في تفكيره، وفي اختياره، وتحليله واستنتاجه، واستنباطه. فإن منهج القرآن مدرسة واسعة.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٣/٤)

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ
عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ
سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾
يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ
ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يتدرج الاستدلال البياني من مخلوقات الله تعالى الكونية التي تحيط بالإنسان إلى الاستدلال بعموم وخصوص النعم التي يتفاعل ويتنعم ويتلذذ بها الإنسان، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذا البيان بعد أن أبطل فيما سبق إلهين اثنين، وتقرير انفراده عَزَّ وجل بالألوهية والربوبية، ووجوب صرف العبودية له جَلَّ جلاله، وفي هذا التدرج الدقيق، والقوة في السياق والبيان العظيم إعجاز في الخطاب، الذي يستثير فكر وعقل الإنسان نحو الحقيقة في خطوات من البيان، وقناعة لا يتولى ويتوارى عنها إلا مكابر للحق والحقيقة ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ** ﴾ فليس بكم من نعمة في ذواتكم، ولا في أرزاقكم، ولا في تيسير وتدبير أموركم إلا وهي من الله ربكم وحده لا شريك له. فيمتن الله تعالى على عباده بعموم وخصوص نِعمه التي يتنعمون بها، بأنها مِنهُ وحده لا شريك له، مما يستوجب عليكم طاعته، وشكره على ذلك.

ثم ذكر تبارك وتعالى الوجه الذي يبين غفلة أكثر العباد عنه أثناء تنعمهم بالنعمة، وتَذكُّرهُ عند النقمة والحاجة، وهو ضجيجهم بالدعاء عندما يمسهم الضر ﴿ **إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ** ﴾ فإذا فقدتم شيئاً من النعمة، وحل بكم الضر كالأسقام والبلاء علت أصواتكم بالتضرع والدعاء إلى لله تعالى وحده لا شريك له، وتركتم ما كنتم تُشركون. وهذا الضجيج بالدعاء هو لفقد شيء منها، أو لصعوبة تحصيل شيء منها. فكيف لو أفقدكم الله تعالى كثيراً منها؟

وابتدأ البيان الكريم بحصر جميع النعم أنها من الله تعالى ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ وجمعت جملة ﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾ جميع أنواع ما يعيش فيه الإنسان وما يحل عليه من النعمة، وما هو قادم إليه من النعم الظاهرة والباطنة، فيشمل ذلك ما أنعم به عليه في جسمه، من الصحة والقدرة والتمكن بها على شؤونه، ومن السعة في رزقه، وما يرزقه من الولد، وغيرها من نعم الله تعالى التي لا تُعد ولا تحصى. فجميعها ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فليست من تحصيلكم، وإنما بتوفيق الله تعالى، وكمال تدبيره، ولو لم تكن من الله تعالى لمنع الإنسان عن نفسه الضر، فإن الإصابة بالضر دليل على أن عطاء النعمة من الله عَزَّ وجل، لأنه لا يستطيع العبد أن يمنع زوال النعمة، ويدفع ذهابها، أو يدفع عن نفسه ما يحل به من أنواع الضراء والبأساء.

ثم ذكر تبارك وتعالى حال الإنسان عند ملابسة أضداد النعم له ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ وأما حال إصابتكم بالضر، من الأسقام والأمراض، وشدائد الحاجات في الأرزاق وغيرها ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ فتتضرعون إلى الله تعالى وحده لا شريك له بالدعاء والمسألة، بل جاءت صورة التضرع بدلالة ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ التي تفيد رفع الصوت بالاستغاثة والنداء، لأن كلمة ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ تعطي معنى رفع الصوت بالاستغاثة. وحينها فإنكم لا تذهبون لغيره من أجل كشف ما أصابكم، وذلك لعلمكم أنه لا أحد غير الله تعالى قادر على كشف ما بكم من الضر.

وقد أورد الله تعالى الإصابة بالضر بدلالة المس ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ﴾ الذي يفيد الملاصقة لكم، فلا تعرفون كيف إبعاده عنكم في أحوالكم المختلفة، كما قال تعالى في سورة الإسراء ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ والمس هو الإصابة، الملامسة للقلوب في هذا السياق، لما يصيبهم من الهلع والخوف، وهو الضر. ومن دقائق البيان أن أورد الله تعالى الضر عاماً ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ ليستوعب جميع مفرداته وأنواعه، وحالاته.

ثم يبين الله تبارك وتعالى حال بعض العباد عند زوال الضر عنه وحصول النعمة عليه، ليكشف عن حقيقة تعامل البعض مع ربه تبارك وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فإذا نجاكم مما أصابكم من الشدة والبلاء، فأصبحتم في نعمة ورخاء، وزوال ما أصابكم، فإذا فريق منكم أيها العباد يُشركون بالله تعالى. ففي الرخاء يشركون، وعند نزول الضراء يوحدونه تبارك وتعالى في

الدعاء والمسألة، ليكشف الضر الذي حل بهم. مما يبين أن شرك من أشرك هو عن علم وإصرار، وانتفاء الجهل عمن أشرك. وهذا من أعجب سلوك بعض العباد، ولذلك وردت ﴿إِذَا﴾ لتفيد سرعة الانتقال الذي يحمل التعجب من حال الذين عَادُوا إلى الشرك بعد أن كانوا يجأرون إلى الله تعالى وحده لا شريك له بالدعاء والاستغاثة. ومن دقائق البيان لكشف سرعة التحول، هو ورود ﴿إِذَا﴾ الفجائية ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ لتفيد سرعة عودتهم إلى الشرك، بصورة مفاجئة وسريعة، وكأنه لم يحصل لهم ومنهم ما قد حصل. فإنه أمر يدعو إلى غاية التعجب من شأنهم. إذ بعد اليأس والتضرع إلى الله تبارك وتعالى، فإذا بفريق يعود لما كان عليه من الشرك، فيبطر، ثم يذهب إلى مَن لا يقدم له نفعاً، ولا يدفع عنه ضراً. وفي هذا بيان لرحمة الله تعالى، وكريم تعامله، وعظيم عطفه عَزَّ وجل. ودليل على تعسف الإنسان بنفسه، وظلمه لذاته، مع الإصرار على ذلك.

ثم يبين الله تعالى ما ينجم عن عودتهم إلى الشرك، بأنه قد تحقق منهم كفران النعمة ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فبهذا الصنيع من العودة إلى الشرك بعد عودة النعمة والرخاء عليهم، فإنه قد تحقق منهم وفيهم كفران النعمة ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ فكفروا بما أعطيناهم من نعمة كشف الضر عنهم، فوضعوا الكفر بالنعمة موضع الشكر الذي كان يجب عليهم أن يؤدوه إلى لله تعالى، الذي أنعم عليهم بكشف وزوال الضر عنهم، وأحل لهم محله إنعامه وفضله تبارك وتعالى. مما يدل على قوة العناد، والتمادي في الشرك عن علم وبصيرة وإصرار، مما يدل على ثبوت شركهم الذي تحقق به تحصيلهم للكفر، مع إصرارهم كذلك على كفر النعمة بعد بيان حاجتهم لها بكثرة الدعاء والتضرع الذي علت أصواتهم به، فحصل لهم نعمة كشف الضر عنهم، فكانت دليلاً وحجة عليهم بوجوب توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة.

ثم يحذرهم الله تعالى من بغيهم، ومما هم عليه من الشرك بعد توالي الآيات والنعم عليهم ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ فانتفعوا بما أنعمنا عليكم أيها المشركون ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فسوف يحصل لكم العلم التام بعاقبة كفران النعمة، وجحود شكرها، وما أصريتم عليه من العناد على مبتغاكم من الشرك. فسوف تعلمون عندما يعاقبكم الله تعالى بعذابه. وهذا الأسلوب هو غاية في التهديد الرباني لمن أنكر النعمة ﴿فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مما يبين أن الله تعالى لا يسارع للعبد بالعقوبة، وأن الله تعالى يريد لعباده الخير، ولا يريد لهم العذاب، ولكن بعض العباد، يتعامل مع النعمة معاملة الكفر بها.

وإضافة إلى كفرهم بما أنعم الله تعالى عليهم بعد الضراء التي مستهم، فإنهم يجعلون مما رزقهم الله تعالى حقاً ونصيباً يفرضونه لأصنامهم التي لم ترزقهم شيئاً، ولن ترزقهم أبداً لعجزها وفقرها، فقد أضافوا على قبح شركهم، وقبح كفران النعمة قبحاً آخراً، وهو أنهم ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ أي: جعلوا لمعبوداتهم من الأصنام نصيباً مما رزقهم الله تعالى، فالرزق من الله عَزَّ وجل، وهم مع ذلك يجعلون مِن رزقه سبحانه وتعالى نصيباً لأصنامهم، فإنه غاية القبح من الأعمال. ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ فأقسم الله جَلَّ في علاه بنفسه الكريمة ﴿ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ ليسألنهم الله تبارك وتعالى عن هذا الافتراء، فيجازيهم عليه بما يستحقون من العذاب.

ومن فوائد البيان أن الله تبارك وتعالى ذكر عملهم بصيغة الفعل المضارع ﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾ الذي يفيد الاستمرار والتجدد في الممارسة لفعلهم الشنيع، فَيُصَيِّرُون ويسجلون ذلك العطاء والنصيب لشركائهم ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا ﴾ وهي الأصنام التي لا تعلم عن فعلهم هذا شيئاً، لأنها جمادات، قاصرة عن أن تفهم، فضلاً عن أن تعلم شيئاً عما يعملون، مما يثير العجب من صنيع هؤلاء المشركين، فيأخذون مِن نعمة الله الذي يعلم حالهم وسرهم، ويعلم ما يصنعون، فيأخذونها لمن لا يعلم عما يعملون شيئاً، ولا يفهمون عنهم شيئاً. فعجباً لحال هؤلاء.

ومن فوائد هذا البيان أن جملة ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تعود على الجاعلين نصيباً للأصنام، أي: أن المقصود بهم أهل الشرك. والمعنى: لا يعلمون لها ضراً ولا نفعاً، وهو قول مجاهد وقتادة رحمهم الله تعالى. والقول الثاني: أنها تعود على الأصنام التي لا تعلم شيئاً، فليس لها حس ولا معرفة، وإنما قال يعلمون، لأنهم نحلوها الفهم، فأجراها مجرى مَن يعقل على زعمهم، قاله جماعة من أهل المعاني، قال المفسرون: وهؤلاء مشركو العرب جعلوا لأوثانهم جزءاً من أموالهم، كالبحيرة والسائبة، وغير ذلك[1] وكلا القولين صحيح، ينطبق على هؤلاء المشركين، وينطبق على أصنامهم، فاستوعب نص السياق الكريم كلا المفهومين من غير تعارض ولا تضاد، وهذا من الإعجاز البياني في تركيب الكلام ونسق البيان، بحيث ينسجم وينطبق القولان ولا يتعارضان. فسبحان من أعجز بكلامه عباده.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٤/٤)

وكلمة ﴿ نَصِيبًا ﴾ تفيد أن هذا الْجُعل مقسوم ومفروض، يتقربون به لتلك المعبودات من الأصنام. وفي هذا بيان لمقدار غبائهم وسفاهتهم، وانحدار فكرهم وتفكيرهم، وتبنيهم لأعمال واضحة الضلالة، بما يؤكد عنادهم وتماديهم في الكفر. وفي هذا غاية التحليل والبيان لحقيقة أفعال المشركين.

ومن عمق شناعة فعلهم أنهم يُصَيِّرُون نعمة الرازق ﴿ مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ﴾ إلى غيره ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ﴾ فيؤدون ويُصَيِّرُون عطاء المعطي سبحانه وتعالى إلى صنم لا يفهم ولا يعقل، فيؤدون التقرب إلى غير أهله، ويتركون من أنعم عليهم حقيقة، فلا يشكرونه ويحمدونه ويعبدونه، بل يُصَيِّرُون الخوف والرجاء والعبودية إلى من لا يعلم ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا ﴾ وبعد الحكاية عنهم، وجه الله تبارك وتعالى الخطاب إليهم ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ وفي هذا وعيد وتهديد، قد تَصَدَّر بلام القسم ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ ﴾ ليُسألن عن هذا الافتراء ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ والافتراء: هو الكذب المتعمد، الذي اختلقه وادّعاه أهل الشرك. وهذا السؤال يدل على قوة ما سيترتب على صنيعهم من العقاب، وهو أبلغ في التهديد في هذا السياق. بل وردت كلمة الافتراء بصيغة المضارع ﴿ تَفْتَرُونَ ﴾ ليدل على تعودهم على ذلك، وأنه من ديدنهم وشأنهم، كما يفيد التجديد والاستمرار. وهذا من بلاغة وصف حقيقتهم بكل دقة.

ومن مزيد وعظيم افترائهم وقبائحهم أنهم جعلوا الملائكة إناثاً، ثم رتبوا على هذا الافتراء، افتراء آخر، بأن جعلوا الملائكة بنات الله. فتعالى الله عما يصفون ويزعمون ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ فهذه جريمة من جرائم أقوالهم وأحكامهم التي امتلأت كذباً وبهتاناً ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ ﴾ فاخترعوا قسمة ينأون بأنفسهم عنها، لأنهم يفضلون الذكور على الإناث، إلى درجة الخجل منهن. فيفترون بأن لله تعالى بناتاً، وهذا نوع من أنواع كفرهم. فلا أحد من الخلق اطلع على شيء من ذات الله تعالى إلا بما أخبر عباده به، مما أنزل في الكتب، ففي هذا جرأة في الافتراء، مُرَكَّبة على جرأة أخرى، بأن جعلوا الملائكة من صنف الإناث، وهم لم يروا الملائكة أصلاً، مما يدل على قوة البهت والكذب، بل واختراع الكذب اختراعاً بيناً واضحاً، لا لبس فيه. فيكذبهم الله تعالى بتنزيه ذاته العظيمة الجليلة ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾ تنزه الله تعالى عن أن يكون له بنات، فيكذبهم الله تعالى بتنزيه ذاته العظيمة الجليلة، فتعالى وتنزه ربكم عَزَّ في علاه عن أن يكون له بنات، ويفيد هذا التنزيه: التكذيب لهم، والتعجب من سطوتهم على الافتراء، وأنه قد تعاظم افتراءهم، بل ويتعاظم هذا الافتراء عندما يكون في حق الله جَلَّ جلاله.

ثم قال تعالى عن تقسيمهم ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ فيحكمون لأنفسهم بما يحبون ويشتهون من الذكور، وهو ما يقابل الإناث التي يتعايرون منها، والتي ينسبونها إلى الله سبحانه وتعالى. ليفيد النص الكريم: أنهم لا يريدون الإناث، فينسبونها إلى الله تعالى، بينما ينسبون لأنفسهم ما يحبون ويشتهون من الذكور. فقد بنوا قسمتهم على ما يشتهون ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ بما يدل على أن تصرفاتهم وفق شهواتهم، مما يفيد أنهم قوم بهت، وقوم متباهون بأنفسهم، لا يقيمون للحق مقاماً، ولا للعقل ميزاناً. مما يدل على عمق الكفر فيهم.

ومن دقائق البيان في هذه الآية الكريمة أنه سبحانه وتعالى لم يذكر نوع ما يشتهون، ليجمع به لهم قاعدة في مسلكهم بأنهم يسيرون وفق ما يشتهون في كل أمر وشأن، وليدل عليه دلالة السياق المنطوق من الآية الكريمة، وفي هذا ارتقاء بالأفهام، وارتقاء ببلاغة البيان، فإن في ذكر غيره ما يغني عنه. وهذا من الإعجاز البياني في القرآن الكريم. كما أنه امتداد لسلطان وشمولية المعنى ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ فيشمل كل ما يشتهونه، ويقولون به، ويحكمون به على الوجه الذي يريدون، فيشمل ما يشتهون من عبادة الأصنام، وما يشتهون في التقسيم، بأن جعلوا لأصنامهم نصيباً مما رزقهم الله تعالى، ويشمل ما يشتهون في إطلاق أحكام التحليل والتحريم فيما يُطعمون أنفسهم، وأهليهم، وغيرهم، وكذلك حتى ما يتعلق بالطواف عرايا.

ثم يبين سبحانه وتعالى قوة كفر أولئك المشركين، فإن مِن قوة كفرهم أن الذي ادَّعَوه إلى لله تعالى من الإناث، فإنهم يتعايرون منه إلى درجة التألم والغضب والغيظ والغم، فكيف ينسبون لله تعالى ما يكرهونه لأنفسهم؟ إنها غاية التطاول والتمادي في الكفر ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ فإذا بُشِّر أحد هؤلاء المشركين بمولودة أنثى ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: تغير وتمعر لون وجهه من تلك البشارة، فاسود لون وجهه لما أصابه من الأسى والحزن، بما يدل على أن تغير وجهه كان لأمر عظيم فظيع في حساباته، إلى درجة أنه قد أهمَّهُ هماً عظيماً، فاختلط الغم والحزن والهم بمشاعره نتيجة لتلك البشارة، مما جعله يشعر بالانكسار من هولها وشدة قوتها عليه.

ومن دقائق الوصف في الآية الكريمة أن جعل الله تعالى المولودة الأنثى محط البشارة لوالديها، حتى أن لفظ ﴿ وَإِذَا ﴾ يفيد المفاجأة في البشارة، فربما كان يتوقع أن يكون المولود ذكراً، فتفاجأ بالأنثى، ولكنها مع ذلك فهي تحمل البشارة، إذ سمى الله تعالى الخبر: بشارة ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ مما يدل على ما تحمله الأنثى من بشارة الخير لوالديها. وكلمة ﴿ ظَلَّ ﴾ تدل على استمرارية ما أصابه من الغيظ وثبوت حالته عليه، ومعاناته المستمرة من ذلك ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ وسواد الوجه، هو: تغير حالته ولونه مما هو عليه

إلى اللون الذي نجم من شدة وسرعة الانفعال، فتغير لون وجهه عما هو عليه إلى السواد. ومن قوة البيان أنه ذكر صورة حالة الأب بعد التحول، متجاوزاً حاله قبل التحول، وذلك لبيان شدة وسرعة التحول، حتى ولكأنها قفزت به البشرى من حال الصفاء إلى الحال الكدرة، وبسرعة فاقت حالة التفكير وعملية التدرج في التحول، فإنها صورة بلاغية لحالة التمعر من خبر الأنثى. ومن دقة البيان التضاد بين البشارة التي وردت في كلمة واحدة ﴿بُشِّرَ﴾ وبين الحال التي أصابتهم من البشرى، وهي ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ بما يبين أنه كان من واجبه، ومن واقع الحال أن يكون سعيداً ومغموراً بالسعادة من البشرى، ولكنه ناقضها بسوء فكره.

وورد الوصف للحالة الظاهرة على الوجه بالسواد ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ بينما أظهر الحالة الداخلية النفسية بدلالة ﴿كَظِيمٌ﴾ لأنها معبرة عما بداخل النفس، لأن الكظيم: هو الذي أمسك وحبس شدة وجده في نفسه، فهو مملوء من الحزن، وممسك به، متخفياً به، فلا يُظهره ولا يبثه من شدة إخفائه، فقد كتم حزنه وألمه. ولكنه خرج أثره على وجهه، فتغير لون ذلك الوجه من شدة تمعر النفس. فإنه بيان دقيق، وتصوير بليغ لحال ذلك المشرك الذي يكره أن يُولد له أنثى، في حين يصف وينعت ذلك لله تعالى، مع شدة كراهية الأنثى لنفسه، ليدل على عمق الكفر وشدته، مع الجرأة المتناهية على الله تعالى الذي خلقهم، وأنعم عليهم بالأنثى وغيرها من الإنعام.

ثم يتدرج البيان إلى كشف حالة هؤلاء المشركين بالله تعالى، الذين نسبوا البنات إلى الله تعالى، كيف هو حالهم؟ وكيف هي نفسيتهم؟ وكيف هم مع أنفسهم عند غيرهم من الناس، عندما يُبَشَّر أحدهم بمولودة أنثى؟ ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فإنه يتخفى، ويتغيب عن مقابلة الناس، ويتأخر عليهم في المقابلة، وعلة هذا التخفي هو ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ فقد أساءته البشرى، بأن وُلِدَت له أنثى.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى بيان حَيرَته، واندهاشه، ثم تفكيره وتقريره فيما يفعل مع الناس، تجاه ما حصل له من المولودة الأنثى، فهناك حالتان يفكر فيهما: الأولى: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ وهو سؤال يمثل شدة الحيرة فيما أصابه، وفيما يتخذه من حلول ليدفع بها عن نفسه ما أصابه. أيتخذ فيه قرار الإخفاء عن الناس على إهانة وذُل ومشقة، أو الحالة الثانية، وهي: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أو يدفنها حية في التراب، بوأدها الذي حَرَّمَهُ اللهُ تعالى في الإسلام. فقد شكلت لهم مصيبة عظيمة، جراء حكمهم الغاشم الذي لا مبرر له، غير الأهواء السقيمة، والسخيفة التي تكشف عن مدى انحدار عقولهم. في حين تجد الرجل منهم يبحث عن المرأة

ليتزوجها، وهو الذي يتأذى منها ليقتلها، فإنه التناقض العجيب في أمرهم. مع قسوة القلب، وجبروت القرار، ومغالبة النفس من أجل ما افترضوه على أنفسهم من البغي والتعدي.

ومن دقائق البيان أن جاء التذكير لكلمة ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾ وكذلك لكلمة ﴿يَدُسُّهُۥ﴾ وذلك باعتبار جملة ﴿مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ باعتبار أن القضية متعلقة بحال الموقف جميعه، وليس فقط من الأنثى، فهناك الحياء من الناس، والخجل والتَّعَيُّر ممن يحيطون به من الناس، إلى درجة التواري عنهم. فهي دقة في اختيار اللفظة، ودقة في تحليل المشاعر، والقرارات والموقف من كل وجه، بأقل الألفاظ وأدق المعاني، وهذه من علو البلاغة البيانية في القرآن الكريم، فكل سياق وكل كلمة لها وقعها العميق ودلالتها العميقة التي لا تغني غيرها عنها.

وقد بدأت الآية الكريمة بكلمة ﴿ يَتَوَٰرَىٰ ﴾ التي تصف موقف الحيرة بالتخفي، والتأخر بالتغيب عن الناس، وهي تعبر عن التراجع والاستتار، وهي تدل على افتعال التواري والتستر من نفسه، وأن الأصل في حاله أنه غير مختفي، فافتعل هذا التواري ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ وهم قومه الذين يحيطون به، ومن يتعايش معهم، مما يدل على أن هذا التواري ليس عن أحاد الناس، بل عن الجميع. مما يدل على انصباب الخشية من الناس جميعاً، فأبانت كلمة القوم حجم التأثير عليه، وأن قراره سيكون بناء على قوة خشيته من القوم، وأنه يقدم تعيُّرَه من القوم على أحواله العاطفية، وفطرته التي فطره الله تعالى عليها. وهذا يدل على قوة أثر أقوال الناس على الفرد، وقوة رؤيتهم على قراره، وقد ينصاع لهم من لم يحكم عقله بالصواب، ويلزم الحق مهما كان شأنه.

ثم يكشف الله تبارك وتعالى أثر البشارة بالأنثى، حتى سُمِّيت هذه البشارة بالسوء ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ فالبشارة كانت مصدر سوء، لأن البنت أصبحت في رأيه بحسب أحكام القوم: أنها عار، يتعير منه، فينتج عنه الخجل مما وُلِد له من البنات، وأنه ليس ذكراً. فيتحول الفرح بالنعمة إلى ألم وسوء، فينتج عنه الخجل والعار. ثم تأتي حيرة القرار بسبب العاطفة الفطرية، فيغالبها في تقليب عجيب ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ فهذا الخيار هو محط القرار، وهنا تشتعل النفس بين قرارين: الإمساك ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ فيلاحقه ويتابعه الهوان الذي يراه في نفسه من شدة رؤية قومه له، وما يتطلب الأمر من مقاومة رؤيتهم إن أمسكه على هون، فيتحمل تبعاً له عناء الذل، الذي يحمل في طياته الإهانة والانكسار بحسب نظرته وتقييمه للأمر.

ثم يدافعه الرأي الآخر ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ فيدفن هذه البنت في التراب وهي حية، لينتهي ويخرج من هذه الحالة النفسية، وهذا السوء الذي حكم على نفسه به من غير دليل. فإنها معاناة نفسية، ومعاناة

في المعالجة من أمر وفكر اخترعوه وافتروه على أنفسهم. في حين أنه لو ترك هذه البنت حتى تكبر، لجاء إليه الرجال يطلبونها زوجة. فعجباً لمن هذه حالهم مع البنات، فينسبون البنات لله تعالى. وعجباً من تفكيرهم وتحليلهم المبني على الوهم والجهل، ومحاربة الفطرة، ومحاربة الحقيقة، وتقديم الباطل على الحق. فيحكم الله تعالى على فعلهم بأقوى أساليب الذم ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فقد بلغ فعلهم مبلغ السوء، الذي هو الشر والفساد في الحكم، وفيما ينجم عنه، وقد بدأ الحكم على فعلهم بحرف التنبيه ﴿أَلَا﴾ الذي يفيد التنبيه لما بعده من اللوم والتوبيخ والإنكار على حكمهم، الذي امتلأ بالسوء. مما يفيد خطورة الهوى، وخطورة الأحكام التي مبناها الوهم والظنون، وخطورة التأثر بأقوال وأحكام الناس الباطلة وإن كثر عددهم. وأن على الإنسان ألا يبالي بالعادات الفاسدة والباطلة، وأن جنس الإنسان قد يخترع أحكاماً فاسدة، ثم يتواطأ بعض الناس عليها، حتى يجعلوها حكماً جائراً عاماً فيما بينهم.

ثم يرد الله تعالى على هؤلاء بما يستحقون من سوء المثال الذي يحمل صورة التحقير لما يعاملون به نعمة البنات، والازدراء والخجل منهن، ثم نسبتهن لله تعالى، وترفعهم عن هن، مع نسبة الولد لهم، فيحكمون بما يريدون، فقال تعالى ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلهؤلاء الذين ينكرون الآخرة، بنكرانهم البعث بعد الموت كما ورد في قوله سبحانه وتعالى فيما سبق ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهؤلاء الذين يُنكرون الآخرة، ولا يعملون لها، فإن لهم ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: الصفة القبيحة، التي تستجمع الجهل والكفر ولعجز، مع وجود الحاجة والافتقار، بينما ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فله سبحانه وتعالى المثل الأتم الكامل الذي هو أعلى وأسمى ما يكون، فليس فوقه أكبر وأقوى منه مثلاً ومدحاً وثناءً، وتنزه سبحانه وتعالى عن الولد، فليس له حاجة في أحد، حتى يكون له الولد، كما هو حال العبد، لأنه هو العزيز الذي لا فوقه عزيز ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو العزيز في ملكه، وكل شيء ملكه وهو الذي يُعز من يشاء، ويُذل من يشاء. وقد أعطت دلالة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أنه الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد أن يتعالى على الله عَزَّ وجل وعلى كتابه القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة.

وهو ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. بما يفيد ويدل على أن جميع ما خلق الله تعالى هو وفق حكمته، وحكمة تدبيره جَلَّ شأنه، ومن ذلك القرآن الكريم، فإنه كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى.

كما يفيد هذا الإعلام من الله تعالى بهاتين الصفتين: التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن عزة وحكمة الله تعالى في معالجة الأمور تقهر وتُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه ولأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم.

ثم يبين الله تعالى عظيم حِلمِه على عباده، مع ظلمهم وتجاوزهم ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فلولا أن الله تعالى حليم على عباده لعاملهم بما يستحقون على ظلمهم الذي استوفوا به العذاب والهلاك، لاعتدائهم وتجاوزهم لحق الله تعالى على عباده، من التقديس، والتوحيد، والعبادة، والإيمان بما جاء عنه من الحق ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ فالذي يستحقونه بهذا الجرم العظيم أن يهلكهم عَزَّ وجل هلاكاً لا تبقى معه دابة حية تدب على الأرض، مما يدل على عظيم جرمهم، وعظيم ما يستحقون من العذاب. ولكنه سبحانه وتعالى حليم وسِتّير، فينظرهم إلى أجل مسمى ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو منتهى آجالهم، فيؤخر عذابهم بما يستحقون ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو يوم القيامة، وهذا من لطفه تبارك وتعالى وحلمه العظيم، فلعلهم يتوبون ويرشدون.

ثم يبين عَزَّ وجل تقديره وعدله في أخذ أرواح العباد ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فإذا جاء وقت آجالهم لن يتأخروا عنه ولو لساعة من الزمن، ولن يتقدموا عنه أبداً، لأنه حكيم وحليم في تدبيره وتأجيله. مما يفيد التحذير والحذر مما هم عليه من الكفر العظيم، والتجاوز في كفرهم، فإن هذا الوقت هو وقت الإنذار والإمهال فليستفيدوا منه، قبل اللحظة التي لا يُؤَخَّرُون عنها، ولا يتقدمون عليها. وفي هذا بيان وتعليم لكل إنسان بأن إمهال الله تعالى للعاصي هو لحلمه تبارك وتعالى، وأن عليه اليقظة مما هو فيه، فإنه إذا حَلَّ الأجل فلن يُؤخره عنه ليتوب ويعمل صالحاً، فكما أنه لا يُؤخره عن أجله، فكذلك لا يُقَدِّمُه

عن أجله. فإنه عدل من الله تعالى حتى في قضاء آجال العباد الذي كتبه لكل إنسان، فسبحان الله تعالى العظيم الحليم.

ثم يؤكد الله جَلَّ جلاله عظيم إثمهم، والجرأة والتطاول على ربهم تبارك وتعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ فإن من قوة جُرأة هؤلاء على الله تعالى أنهم يجعلون لله ما يكرهون ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ فيحكمون له سبحانه وتعالى بما يكرهونه لأنفسهم، وهو البنات. فالشيء الذي كرهوه، وهو الإناث، جعلوه لله تعالى، كما جاء سابقاً في قوله عَزَّ وجل ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾ فينسبون لله تعالى ما يكرهون نسبته إليهم من البنات ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ومن تعديهم أن ألسنتهم تصف الكذب، بالادعاء والافتراء، بأن لهم العاقبة الحسنة.

ودلالة كلمة ﴿ وَتَصِفُ ﴾ تفيد التحليل والبيان بكمال الوصف في أقوالهم الكاذبة، التي ليس فيها شيء من الحقيقة، فيدَّعُون أن لهم العاقبة الحسنة ﴿ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ قال الطبري رحمه الله تعالى: وأما الحسنى التي جعلوها لأنفسهم، فالذكور من الأولاد، وذلك أنهم كانوا يئدون الإناث من أولادهم، ويُبقُون الذكور منهم، ويقولون: لنا الذكور ولله البنات[1] وجملة ﴿ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ تفيد جزمهم بذلك، بل ومؤكدة بنون التوكيد ﴿ أَنَّ ﴾ كما تفيد جملة ﴿ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ التعميم، مع نفي أي سُوء يلحق بهم، فيدَّعُون لأنفسهم ضمان العاقبة الحسنة، وبالتالي فإن لغيرهم العاقبة السيئة، وفق وجهة نظرهم وتفكيرهم وحكمهم، فيرد الله تعالى عليهم بما يستحقون ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ فإن لهم النار ﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ فهم مُعَجَّلُون إلى النار، وأنهم مُتْرَكُون، منسيون، أي: في حكم وصورة الشيء المنسي، بما يفيد تجاهل حالهم، ليفيد الإمعان في تعذيبهم، وخلودهم في النار.

وقد تقدمت كلمة ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ على هذا الوعيد المتحقق بالجزاء من قوله تعالى ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ أي حقاً، لا شك ولا مراء فيه، لتفيد الجزم بوقوعه. فأفادت ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٢٦١)

أنه حقاً، أن لهم النار، فأثبتت وجوب ولوجهم النار، وأنهم متروكون فيها، فنفت غير العذاب مصيراً لهم، فتحقق وتأكد ولوجهم النار، وأنهم مُعَجَّلُون إليها، ومُتْرَكُون فيها، وفي حكم الشيء المنسي. ومعنى ﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ أي: مُعَجَّلُون إلى النار، مُتْرَكُون فيها، فلا يخرجون منها أبداً. وفي هذا كشف من الله تعالى لمصيرهم، ولحقائق فكرهم ونفوسهم، وجرأتهم، وتطاولهم، وتعنتهم، وعظيم قولهم، وكفرهم، وتعندهم. كما أن في هذا الدلالات عظيم لطف الله تعالى، فلو كان الله عَزَّ وجل يعاقب كل إنسان بما يستحق على جرمه لأهلك الناس، ولكنه عَزَّ وجل حليم عظيم سبحانه وتعالى. مما يوجب على العبد ألا يغتر بحلم الله تعالى، وأن عليه أن يكون شكوراً على تعليم الله تعالى له بما يجب عليه، وبحلمه ورحمته ومغفرته، وبيانه لما سيؤول الإنسان إليه.

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ينتقل البيان من الله تعالى إلى إخبار وإعلام نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والجميع بما كان من الأمم السابقة، وليكون في ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم مما حصل له من قومه، وتعليم وموعظة لكل أحد بأن ذلك دأب الكافرين المنغمسين في جهلهم، الْمُصرِّين على كفرهم، والمتباعدون عن الحق، المتكبرون عليه، وعلى الخير الذي فيه نجاتهم ومصالحهم الدنيوية وفي الآخرة. فقال عَزَّ وجل ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإن شأن قومك المصرون على كفرهم أيها النبي، هو دأب من كان قبلهم من الأمم الكافرة، ليزداد بذلك النبي صلى الله عليه وسلم علماً وخبرة، مع تسليته عما يجد من قومه المصرين على عنادهم، وتماديهم في الكفر والتحدي. وجاء البيان مسبوقاً بالقسم من الله تعالى ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ فيقسم الله تعالى بنفسه العظيمة لنبيه صلى الله عليه وسلم بما أقسم. وفي هذا القسم مع تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالإخبار والإعلام، ما يفيد إبلاغ غيره بواقع حال من كفر، وتأكيده لهم بالقسم من الله تعالى، تحذيراً، لعلهم يهتدون، بهذا التفسير لفعلهم من أنه مماثل ومشابه لمن سبق ممن كفر من الأمم التي أنزل الله تعالى عذابه عليهم، فليحذروا من ذلك، ويسلكوا مسلك الحق والطاعة، والانقياد لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فأكد الله تعالى الخبر بالقسم العظيم، مما يبين كمال قيام الحجة عليهم، وأن الله تعالى لا يريد لعباده الكفر، بل يريد لهم السلامة والنجاة.

ثم بعد القسم بقوله جَلَّ جلاله ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ يأتي محتوى ما أقسم الله تعالى عليه، مبتدئاً ذلك بأداة التحقيق ﴿لَقَدۡ ﴾ ليتظافر ذلك مع القسم، فيتحقق ويتأكد به ما يوضحه ويبينه لكم ربكم تبارك وتعالى، وهو رسالته عَزَّ وجل للأمم السابقة ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ فلقد تم إرسال العدد الكثير من المرسلين إلى أمم كثيرة من قبلك أيها النبي. ومن بلاغة السياق أن استغنى البيان عن ذكر المرسلين، اكتفاء بكلمة ﴿أَرۡسَلۡنَآ ﴾ ففي محتوى ﴿أَرۡسَلۡنَآ ﴾ دلالة إرسال المرسلين، ثم ذكر سبحانه وتعالى على سبيل الإجمال ﴿أُمَمٖ ﴾ لتفيد الكثرة، التي لا يعرف عددهم وعدد المرسلين إلا الله سبحانه وتعالى، فمنهم من قصهم الله تعالى في كتابه، كقوم عاد وثمود، وقوم فرعون وغيرهم، ومنهم لم يقصصهم سبحانه وتعالى. وهذا من بلاغة الكلام بالاستغناء عن زوائد الألفاظ، ليدل على الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

ثم يبين تبارك وتعالى ما كان من تلك الأمم، وما كان من الشيطان ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ فَحَسَّن لهم الشيطانُ كفرهم الذي كانوا عليه. مما يفيد الحذر من الشيطان ومن غوايته، وأنه عدو مبين للإنسان. فَحَسَّن لهم اتخاذ الأصنام، ووأد البنات، وتحريم ما أحل الله تعالى، ومعاداة المرسلين، والتكذيب بالآيات والحجج والبراهين، فأصبحت أعمالهم الخبيثة في هيئة فاضلة في أعينهم، نتيجة تزيين الشيطان لها، ومن ذلك تزيين أصنامهم وكفرهم لهم. فإن حال المشركين من قومك أيها النبي هو مثل حال من سبقهم، إذ زين لهم الشيطان كفرهم ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ فالشيطان موالي ومنحاز لهم ﴿ٱلۡيَوۡمَ ﴾ أي: في الدنيا، وفي هذا رد عليهم فيما نسبوا لأنفسهم الحسنى.

وخص سبحانه وتعالى موالاة الشيطان لهم بالزمن الحاضر ﴿ٱلۡيَوۡمَ ﴾ فقيد الزمن الحالي تقييداً دقيقاً، بأن ولاية الشيطان لهم مخصوصة بزمن الدنيا، بينما تنتفي ولايته لهم في الآخرة، حيث يكون معهم في النار يوم القيامة، وهذا من دقة البيان في تحديد الوقت، وقِصَرِه، بأن أورده تبارك وتعالى بلفظ ودلالة ﴿ٱلۡيَوۡمَ ﴾ الذي يمثل الحياة الدنيا. ومن جميل البيان، أن الله تعالى صَغَّر حياتهم الدنيا، فجمعها في يوم ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ فكأنه يوم، وأما في الآخرة، فلا ناصر لهم ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ أي موعودون بعذاب شديد، واقع بهم، وهو مؤلم من شدته، لأنه عذاب النَّار وبئس المصير. نسأل الله تعالى أن يجيرنا من النار، وأن يدخلنا الجنة برحمته وكرمه وفضله.

وعطفاً على القسم يُوضح ويبن الله تبارك وتعالى الهدف من إنزال القرآن الكريم ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين للمشركين ما هم فيه من الضلال، وبياناً للذي اختلفوا فيه من الدين والأحكام، وأحوال البعث، والحساب والجزاء، والتوحيد، فهو فاصل في كل ما تنازعوا فيه، وهدى للقلوب من التيه، ورحمة لمن آمن وتمسك به. وبالتالي تقوم الحجة عليهم ببيانه صلى الله عليه وسلم.

وقد وردت الآية الكريمة بأسلوب القصر ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ أي: ما أنزلناه إليك من القرآن هو لقصد البيان لهم ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ وفي هذا القصر ما يفيد أهمية البيان، وخطورة الاختلاف في الحق، وخلطه بالباطل، ومن دقة بيان الآية الكريمة أن جملة الذي اختلفوا فيه ﴿ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ وردت عامة، لتشمل جميع أنواع الاختلاف، ابتداء من التوحيد إلى تفاصيل الإيمان، وأركان الإسلام، والبعث والنشور، والحلال والحرام، وعموم التشريع. مما يفيد خطورة الاختلاف، وخاصة على الأنبياء. وأن الذي يرفع الاختلاف هو العلم الذي جاء من الله عَزَّ وجل. لأن الجهل هو المسار والطريق للاختلاف.

وكذلك بينت الآية الكريمة أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أُوكل إليه التبليغ، والبيان، والتفسير ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي أنزل على رسوله القرآن الكريم، وأن المتعين عليه صلى الله عليه وسلم هو البلاغ والبيان، مما يعني أن عليكم أخذه وفهمه منه صلى الله عليه وسلم، فقد مكن الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالعلم الذي يُوحيه إليه. ولذلك أخذ الصحابة رضي الله عنهم بيان القرآن وشريعة الله تعالى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تناقله التابعون، ثم من تبعهم في سلسلة إلى يومنا هذا، وإلى أن تقوم الساعة.

ثم أخبر سبحانه وتعالى بمحصلة هذا القرآن العظيم: بأن من أخذ به فقد تحصل على الهداية والرحمة ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهو هداية لقلوبهم وعقولهم للخير والحق الذي يوصلهم لسعادة الدنيا والآخرة، فدلالة ﴿ وَهُدًى ﴾ شاملة لكل ما يهدي الإنسان في دار معاشه ومعاده. وكذلك تضمن القرآن الكريم الرحمة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ وهذه الرحمة مقتصرة على من آمن، فأطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعمل بما أُمِر، وانتهى عما نُهي عنه، لأن الله تعالى ربط الرحمة بالإيمان ﴿ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بل ومن دقة البيان أن الله تعالى ربط تحصيل الرحمة بالإيمان الشامل ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ليشمل الإيمان بأركانه كاملة، وأن من شمولية الرحمة وسعتها أنها ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: أن الرحمة قد استوعبت القوم الذين كان الإيمان صفة لهم، وفي هذا تعميم لسعتها، أنها تشمل الأقوام فضلاً عن الأفراد المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى نعمة إنزال القرآن العظيم، ومقاصده في معالجة الذي اختلفوا فيه، ينتقل السياق القرآني الكريم إلى لفت الانتباه نحو عجائب خَلقِهِ عَزَّ وجل، ولطفه وتدبيره، ليكون ذلك بمثابة التدبر في آيات الله تعالى الكونية، بعدما أرشدهم إلى آياته الشرعية البيانية في معالجة قضاياهم الدينية التي جاء بها صلى الله عليه وسلم. وفي هذا الربط والوصل بين الآيات الشرعية والكونية، دلالة على تضافرهما في الاستدلال على أن الله تبارك وتعالى هو الخالق والمدبر، وأنه هو الذي أنزل الكتاب، وأرسل المرسلين، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وأنها تحمل وتبين امتنان الله تعالى على عباده بهذه الآيات الكونية كما امتن عليهم بالآيات والدلائل الشرعية.

فبدأ تبارك وتعالى بذكر ما أنزل من السماء من الماء ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ فإن من دلائل الانفراد بالخلق والتدبير التي تُوجب توحيده وإفراده تبارك وتعالى بالعبادة أنه أنزل المطر ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ فالله تعالى وحده هو الذي أنزل من السماء هذا الماء، فهو الذي تفرد بذلك، ومن جميل السياق ودقته، أنه أفاد حصر إنزال المطر منه وحده لا شريك له، بل وتصدر اسم الجلالة الآية الكريمة، بيانا وحصراً للإنزال أنه من ربكم جَلَّ جلاله. ثم بين أثر ما يحمله هذا الإنزال من النِّعَم الأخرى ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ فقد ترتب

على نعمة إنزال المطر نعمة أخرى، وهي إحياء الأرض بعد موتها، بما أخرج وأنبت فيها من الأشجار والأعشاب والحشائش، وما ينتج عن ذلك من الثمار.

وحياة الأرض باخضرارها وارتوائها، مع وفرة المياه في جوفها وأوديتها. كما لفت سبحانه وتعالى الانتباه إلى الإحياء بعد الجدب ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ تذكيراً وتدقيقاً للفهم والاعتبار بكمال قدرته عَزَّ في علاه على البعث بعد الموت ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ إن في إنزال المطر من السماء، وفي إحياء الأرض بعد موتها لآية وحجة وعلامة وبرهان على أن الله تعالى هو رَبُّ كل شيء ومالكه، وأنه يتصرف في هذا الكون العظيم كيف شاء. وأن هذه الآيات هي ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يسمعون آيات الله تعالى من القرآن الكريم، فيستدلون بتعاضدها مع الدلالات الكونية على أنه سبحانه وتعالى هو الذي أنزل الكتاب وأرسل نبيه محمد صلى الله عليه نبياً ورسولاً، ووجوب توحيده عَزَّ وجل، وإفراده بالعبادة، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا التنويه لهم بحاسة السمع ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ إعجاز في الربط والوصل بين ما يسمعون من آيات الله تعالى في القرآن العظيم، وبين ما يرون بأبصارهم، وما يحسون بحواسهم من الآيات الكونية، ليدل على دقة البيان، وإعجاز سياق القرآن العظيم، وإعجاز مضمونه الدال على أنه كلام الله تعالى بلا شك ولا ريب.

وكلمة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ تدل على الإدراك لما يُقال، واستيعابه حتى يحصل العلم بمضمونه، فهو استجابة وتفاعل مع ما تسمعه آلة الأذن. وكونه بصيغة الفعل المضارع فإنه يدل على الاستمرار في الاستماع للقرآن العظيم الذي لا تنقطع دلالاته وفوائده وهدايته، حتى يستوفي السامع ما سمع من الكلام. فإنها دقة في السياق والبيان، بدرجة لا مثيل لها في علو تأثير بيانها ورفعة مستواها، وبلاغة الخطاب في تحقيق المراد.

وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾ إشارة إلى جميع ما سبق من البيان في هذا الشأن بأنه محل تفكر وتأمل واستدلال على أن الذي دبر هذا التدبير هو الذي أنزل هذا الكتاب، وهو الذي أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم للعباد، وهو الذي اختاره واصطفاه لهذه الرسالة العظيمة. وفي جمع الآيات في آية واحدة ﴿لَأَيَةً﴾ ما يدل على أن جميع الآيات الكونية المتفرعة عن إنزال المطر المذكورة قد توحدت واجتمعت وتظافرت في الحجية والدليل لقوم يسمعون، بأن الله تعالى هو الخالق لهذا الكون، وهو رب كل شيءومالكه، لا شريك له في ملكه، فجاء إفرادها للدلالة على تظافرها وتعاضدها في إثبات ما دلت عليه.

ثم ينتقل الاستدلال الكريم من آية نزول الماء من السماء إلى آية الأنعام التي هي: الإبل والبقر، والضأن والماعز، وما يحتويه ألبان تلك الأنعام من العبر، فيما يمر به أثناء تكوينه وإنتاجه من بين الفرث والدم، الذي يدل على عظيم إبداع الله تعالى في خلقه ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ

﴿فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ فتلفت هذه الآية الكريمة الانتباه والتفكير العميق إلى مشروب اللبن الذي يُخرجه الله تعالى من بطون الأنعام، بعد أن يمر بمراحل عديدة: ابتداء من منشئه الذي هو طعامها، ثم ما يجري عليه من التحول والتغيير من خليط الفرث، وما يكون دماً، فيسيل في العروق، ومنه ما هو غذاء لجسمها، ومنه ما يبقى في معدتها، وهو الفرث، كما قال تعالى ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ ﴾ ليخرج روثاً مع أمعائها، ثم يتحول إلى فضلات، ينتفع به في الحرث والزرع، ومن بين هذه الأصناف والمكونات من الدم والفرث يخرج لبناً خالصاً من كل شائبة، فلا دم فيه ولا فرث، ولا أذى، ولا رائحة كريهة بل ﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ أي: سهلاً سلساً في الشرب، ومستطعم غير مستقذر، بل ويتلذذ به شاربه، فمن الذي أخرج هذا الطعام اللذيذ؟ وهذا المطلوب والمرغوب من بين ذلك الدم والفرث الذي تأنف منه النفوس. فضلاً عن تحريم الدم.

وقد بدأت الآية الكريم بنون التوكيد ﴿ وَإِنَّ ﴾ التي تؤكد ما بعدها من الحقيقة ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ فقد تأكدت العبرة لكم من الأنعام عموماً. والعبرة هي: الآية والدلالة على قدرة خالقها سبحانه وتعالى، وحكمته في الخلق والتدبير، وعظيم خلقه، مع لطفه ورحمته في تسخيرها لكم. والمراد بذلك الاتعاظ بما فيها من الدلائل الموصلة إلى العلم، حيث تنقل الْمُعْتَبِر من الجهل إلى العلم بعظمة المخلوق الدالة على عظيم خالقها جَلَّ في علاه، كما تفيد ترسيخ العلم لدى المتعلم، فتوصل المعتبر إلى اليقين، الذي ينتفي معه الشك أو الجهل الكلي، أو الجهل المركب، ويحل محله اليقين بأن الله تعالى هو الذي خلق ودبَّر هذا. ثم يخص البيان الكريم شأن اللبن من بين تلك المذكورات من الدم والفرث، وذلك لما فيه من العبر، التي يتفاعل الذهن معها تعجباً من الصنع والخلق والمنتوج الذي يستطعمه ويتغذى به، من بين أخلاط تكرهها النفوس، ليصل إلى تقرير أن الذي أبدع هذا هو الله الواحد الأحد.

فالعبرة أن الله تعالى يسقيكم منها اللبن، فنسب سبحانه وتعالى السقيا له عَزَّ وجل امتناناً ﴿نُّسْقِيكُم ﴾ فليست هي إلا مخلوق مطيع، فليس لها القدرة على ذلك، بأن تُخرج من جوفها ما تشربون من اللبن، لولا أن الله تعالى منحها تلك القدرة، وتلك الكيفية، وأن السقيا تتم من خلال ما في بطون تلك الأنعام ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ أي: مما حوته بطونها. فمن بين ﴿ فَرْثٍ وَدَمٍ ﴾ والفرث هو الذي تحتويه المعدة، والدماء هي التي تجري في عروقها، فيخرج لكم اللبن من بين تلك المتحولات، والذي تستأنسون به، وتستطعمونه، وتتلذذون به ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ فإن في ذلك لفت الانتباه نحو مجريات تحصيل هذه النعمة التي تفوت على الناس أخذ العبرة منها، نتيجة ما ألفوه واعتادوا عليه، والتي تدل على امتنان الله تعالى على العباد بهذا الغذاء، وبهذا المنشأ والتكوين والخلق العظيم،

والتدبير المذهل لمن تأمله وتدبره. مما يفيد أهمية تحريك العقول عند التعليم بالعبرة، فإن شأنها عظيم في التعليم والتوجيه والتربية، وتوسيع الذهن للاستيعاب والتدبر والاستنتاج، والقياس والتحليل.

ثم ينتقل البيان الكريم من عجيب قدرته وتدبيره سبحانه وتعالى في إنعامه وامتنانه على عباده بنعمة ألبان الأنعام إلى ما يخص ثمرات النخيل والأعناب، وكل ذلك في تدرج ونسق وبلاغة في السياق. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ولمَّا ذكر اللبن، وأنه تعالى جعله شراباً للناس، سائغاً، ثَنَّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن عليهم. ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء[١] ونقل ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن المقصود بالمسكر: هو الخمر، قاله ابن مسعود، وابن عمر، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد وغيرهم[٢] وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر، وأراد بالسكر الخمر، وبالرزق الحسن: جميع ما يُؤكل ويُشرب حلالاً من هاتين الشجرتين، وقال بهذا القول ابن جبير والنخعي والشعبي وأبو ثور[٣]

ومن دقائق البيان في تحقيق المعاني والمقاصد أن الله تبارك وتعالى امتدح جميع أنواع الرزق من النخيل والأعناب، وخصه بالثناء والمدح ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ والحُسن يشمل جميع أنواع الطيب وما يحققه من المنافع، سواء فيما يطعمونه أو يتاجرون به، أو يَدَّخِرُون، بينما ذكر السكر الذي يتخذونه من ثمرات النخيل والأعناب من غير مدح له، بل أفرده بالذكر دون أن يجمعه مع الممدوح ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ كما أنه سبحانه وتعالى قد نسب الاتخاذ لهم ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ فهم الذين اتخذوا من هذه الثمار السكر، وكذلك يتخذون منه الرزق الحسن، سواء بالأكل، أو بالمتاجرة من البيع والشراء، أو بعصره. وبالتالي لم يشمل السكر مدح ولا ثناء، وكذلك لم يُوصف ويُعَيَّن بالذم، ولكن في إفراده وإخراجه عما بعده من الرزق الحسن ما يشير إلى بداية التدرج في تحريمه على ما ورد من آيات في شأن تحريم الخمر.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٩٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٣٨)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٨٥)

ثم يلفت سبحانه وتعالى إلى أن في هذا الخلق لآية ودلالة على أنه سبحانه وتعالى هو المسخر، وهو الذي لا يُعْبَد غيره ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فإن مَن تأمل في التوافق بين ثمرات النخيل والأعناب، من حيث اتفاقهما في أن تكونا رزقاً حسناً وبين توافقهما في أن يكونا سَكراً، لكان في ذلك آية لمن تعقل وتفكر وتدبر على أن هاتين الشجرتين المخلوقتين، مع اختلاف أغصانهما، وتكوينها إلا أنهما توافقا في نوع الاستخدام، ففي ذلك محط التأمل والتفكر على أمور عديدة: منها تدبير الله تعالى، وعظمة خلق الله تعالى، وأن المخلوق قد يستخدم ما خُلق له في الخير، وقد يستخدم ما خُلق له في الشر، الذي يتضرر به. ولو أكثر التأمل لازداد علماً بأن الله تعالى واحد أحد، قد أنعم على عباده بنعم لا تُعد ولا تُحصى.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى آية اتخاذ المخاطبين السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، والتي انتهت بالتوجيه إلى التعقل والاعتبار، يعطف عليهما سبحانه وتعالى الاعتبار بما يتعلق بشأن النحل ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ فإن الله تبارك وتعالى هو الذي عَلَّم النحلَ أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر، ومما يعرشون، فنسب سبحانه وتعالى التعليم بما أوحاه إلى النحل إليه عَزَّ وجل ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ أي: ألهم وهدى النحل وأرشده ﴿ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ أي: مساكن تأوي إليها، وكذلك ﴿ وَمِنَ ٱلشَّجَرِ ﴾ فتتخذ من الشجر بيوتاً لها ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ أي: ومما يبنيه الناس من الأسقف، أو السُّقُف التي يتخذونها ظلالاً لهم، سواء من الخشب، أو من عريش العنب ونحوه، من غير تحديد، لأن النص الكريم أورده بصيغة العموم ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ والعريش هو سقف قائم على عوارض، مرتفع عن الأرض. كعريش العنب، ويشمل كذلك ما يعرشه الناس من عروش وبيوت للنحل، فيقصدون بها أن تكون منازلاً وبيوتاً للنحل، حتى يسهل عليهم جني العسل. وهذا الإلهام دليل على أن قوة هذه النحلة وفهمها هو من ثمرة ما أوحى ربها إليها بالإلهام والهداية، مما يبين عظمة خالقها وهاديها، الذي سخر سعيها ومنتوجها لهذا الإنسان، الذي يلزمه شكر نعمة ربه وطاعته، والامتثال له كامتثال النحلة في طواعيتها. وكلمة ﴿ وَأَوْحَىٰ ﴾ تدل على لطف الله تعالى وعنايته بها، إذ جعل مسارها وفق هدايته التي ألهم بها جنس النحل جميعاً. فلا تجد بينها من يشذ عَمَّا ألهمها الله تعالى به.

فهذه المساكن الثلاث، تتوافق مع اختلاف كل أرض وطبيعتها، فقد هداها الله تبارك وتعالى بفضله وحكمته إلى ما يناسبها، وما يناسب علة خلقها، لإخراج العسل من بطونها، فاستوعبت مساكنها اختلاف البيئات من الجبال في الصحاري، والشجر والزروع في أعاليها، كرؤوس جذوع الأشجار، بل من دقة وحكمة الله تعالى أن عمم لها السكن والبيوت على الأشجار، ليستوعب جميع أنواع الشجر الذي يصلح لها سكناً، إذ ليس كل شجرة لها ما يمكنها من مرادها، فهذه آية عظيمة، وآية بيانية في استيعاب أحوال بيوتها من الأشجار.

ومثلها الجبال، ومثلها كذلك ما يعرشون. ففي هداية النحل آية عظيمة، وفي تنويع مساكنها كذلك آية إعجاز، وفي اتساع واستيعاب حالاته وأنواع مأكولاته آيات بيانية عظيمة. فسبحان الله العظيم في بيانه، وفي تدبيره، وتهيئته وخلقه. كما أن المتأمل في تلك البيوت الثلاث يجد أنها متصفة بالعلو والارتفاع عن الأرض ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ فالجبال شاهقة، والشجر مرتفع عن الأرض، والعريش: أسقف مرتفعة عن الأرض، فما أكرمه من اختيار، وما أعظمها من دلالات، إذ لا ينتهي مغزاها وفوائدها ما تأملها المتأمل، فأكرم بها من نحلة، وأكرم به من عسل، وأكرم به من شفاء، والشكر لله تعالى الذي سخر للإنسان هذا، من غير تعب ولا كد منه، ولا رعاية منه لها، إلا إذا هو تعمد تربيتها.

ثم يبين تبارك وتعالى المزيد مما أوحى إلى النحل به ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فهداها سبحانه وتعالى إلى أن تأكل من الثمرات، وجاء البيان بصيغة الترتيب بحرف ﴿ ثُمَّ ﴾ من قوله عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ فأرشد النحل أن يأكل من كل ما تثمره الأشجار، فقد هداه إلى أن يأكل من أجمل وأفضل ما تنتجه الأشجار، وهو الثمر. ولم يهده للأكل مما فسد، حتى يُعدّه لإنتاج أفضل الأطعمة المباركة، التي فيها شفاء للناس. وبالرغم من تعدد وتنوع ما يأكله النحل، سواء من حيث النوع أو الطعم إلا أن الذي يخرج منها عسلاً، حلو المذاق على اختلاف غذائها.

ثم أرشدها سبحانه وتعالى إلى الطرق التي ذللها لها ﴿ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ فاذهبي وادخلي من الطرق والمسالك التي هيئها لك رَبُّكِ جَلَّ جلاله، وقد وصف تبارك وتعالى مسالكها بالمذللة ﴿ ذُلُلًا ﴾ أي مُيسَّرة، فلا صعوبة للنحل فيها، حتى يأكلوا من كل الثمرات. فإنها الهداية والتوفيق من الله عَزَّ وجل لهذا النحل، الذي ينتفع به هذا الإنسان الذي أكرمه الله تعالى، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض. وقد نسب سبحانه وتعالى السبل إليه ﴿ سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ لأنه عَزَّ وجل هو الذي أوجد السبل، وهو الذي هداها لها، وسخرها وذللها، فلا تضل طريقها، بل إنها تعود لمساكنها مهما بَعُدَت بها المسافة.

ثم يخبر الله تعالى أنه يُخرج بعد ذلك من هذا النحل شراب فيه شفاء للناس ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ فالعسل الذي يخرج من بطون النحل يختلف في لونه ﴿ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ فمنه الأحمر، ومنه الذي يميل إلى السواد، ومنه الأبيض. بحسب ما يغلب على أكلها من

الثمار. ثم يخبر الله تعالى بأنه جعل في هذا العسل شفاء ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ وقد عمم النص الكريم الشفاء، فلم يقصره على مرض محدد، أو أمراض معينة، بل ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: العسل شفاء من كل داء، وقال قتادة رحمه الله تعالى: فيه شفاء للناس من الأدواء[١] وهذه نعمة عظيمة، ومجال للتفكر والتأمل في تسخير الله تعالى لهذا النحل، وفي مسار حياته، وما ينتج عنه من العسل، على اختلاف ألوانه، وأساس غذائه، ومع ذلك هو شفاء لكل مرض إذا أحسن الإنسان استخدامه.

ولذلك ختم الله تعالى هذه الآية بإرشاد الناس إلى التفكر في ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فهو حجة وبرهان ودليل وعلامة لمن أعمل فكره بالتأمل فيما خلق الله تعالى من عالم النحل، وعجائب حياتها، ومسيرتها، وعيشها، ومنتوجها من العسل، وما اتصف به العسل لوناً وشفاء. ومع صغر حجمها إلا أنها دقيقة في الأداء. بل ومن هذه الحشرة الصغيرة الضعيفة يخرج الغالي الثمين عند الإنسان، فأصبحت قيمتها ليس في جسمها الصغير، بل في منتوجها العظيم، مما يبين أن قيمة الإنسان تعلوا وترتفع بنفعه لغيره، وأن أنفع ما يقدمه للناس هو دلالتهم على الخير عموماً، وإعانتهم على أمورهم، وخاصة نجاتهم في الدنيا والآخرة من عذاب الله تعالى والفوز برضاه والجنة. فجميع ذلك يدل على عظمة الخالق، وأن الشكر له واجب ومتحتم على عباده، وأن الاعتراف بامتنانه ثابت، وطاعته وتوحيده واجب، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم واجبة، بدلالة هذا القرآن العظيم الكريم، وبغيره مما جاء على لسانه صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ
٧٠ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ
أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ
لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ
يَكۡفُرُونَ ٧٢ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤ ﴾

ينتقل السياق الكريم من الاستدلال بآيات الله تعالى على أنه عَزَّ وجل رَبَّ كل شيء ومالكه، وأنه لا إله إلا هو، وكذلك امتنانه على عباده بما خلق، لينتقل السياق إلى الاستدلال بتدبيره عَزَّ وجل في خاصة

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٨/٤)

الإنسان، وأطوار حياته ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي أوجدكم أيها الناس من العدم ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ﴾ فهو الذي أنشأكم سبحانه وتعالى، وأنه ليس أحد غيره خلقكم، وليس لكم في ذلك اختيار، بل وأفاد عطاء النص الكريم حصر الخلق والإيجاد له سبحانه وتعالى، متصدراً لفظ الجلالة لفعل الخلق ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ﴾ وهو هنا أبلغ وأفصح، حيث أفاد الحصر والقصر على أن ما بعده هو محصور لله تعالى فقط، من الخلق والإيجاد والموت، وإرجاع البعض لأرذل العمر. ليعطي السياق الكريم ما يقرر به المخلوقين بما لا يستطيعون نفيه، وبما يلزمهم من التفكير والتأمل، مِن أنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولا أوجدوا أنفسهم، ولا وُجِدُوا من غير مُوجِدٍ لهم، فليس أمام العبد إلا الإقرار بأن الله تعالى هو الذي خلقه، فأكرمه بالوجود.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى نهاية حياة الإنسان ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ ﴾ فبعد الخلق والإيجاد هو الذي يقبضكم سبحانه وتعالى، فيقبضكم عن الحياة بمرحلة الموت التي ليس لكم فيها اختيار. حتى يقرر الإنسان بضعفه، وأنه عبد لله تعالى، فلا يملك أن يختار مدة وزمن حياته وعمره، فلو كانت له قدرة لمنع الموت عن نفسه، أو أخره إذا حل به، بما يفيد عجز هذه المخلوق، وأنه مربوب لربه تبارك وتعالى، فعليه أن يعبده ويطيعه كما أمره خالقه عَزَّ وجل. وليعلم أن الأمر كله لله عَزَّ وجل.

ثم يُبيّن ويُفَصِّل تبارك وتعالى تباين الناس في أعمارهم، وحلول الموت بهم ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ ﴾ فبعضكم يؤخره الله تعالى إلى أرذل العمر، فلا يستطيع أن يمنع نفسه عن ذلك، ولا يستطيع منع الخرف من أن يصل إليه. فإن الله تعالى هو الذي يدبرك أيها الإنسان كيف يشاء، من غير حول لك أو قوة أو رأي في ذلك أيها الإنسان، فهو ربك وخالقك الذي يَلْزَمُك أن تعبده وحده لا شريك له. وقد سمَّاهُ سبحانه وتعالى ﴿ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ ﴾ وهو أدناه وأوضعه، وهي مرحلة الخرف، فيعود كالطفل في عقله وتصرفه، وضعف جسمه، بعد أن كان شامخاً بقوته الجسمية، وقوته العقلية. والذي فسره ربنا وتبارك وتعالى بأنها المرحلة التي يعود فيها إلى امتناع القدرة على التصرف ﴿ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا ﴾ فبعد علمه، وقوته العاقلة التي يعقل بها الأشياء، أصبح فاقداً لها، فقد فقد بها كل ما حصل له من مخزون المعرفة، ومن قدرة على التفكير والتحليل والاستنتاج. فضلاً عن الأمر والنهي.

وأفادت ﴿ لِكَيۡ ﴾ التعليل لما يصير إليه، بأنها مرحلة الضعف مع الجهل بعد القوة والقدرة والعلم. وفي جملة ﴿ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا ﴾ نفي مطلق لكل ما كان يعلمه ويعرفه من المعرفة، فيصبح كما بدأ

عند ولادته. وفي هذا بيان لقدرته سبحانه وتعالى في هذا الإنسان، الذي يستعلي بقوة جسمه وعقله على الحق فيردّه، وهو ضعيف في تحولاته العمرية، فلا يستطيع أن يدفع عن خاصة نفسه شيئاً مما قَرَّرَهُ اللهُ تعالى فيه، فضلاً عن أن يرده عن غيره، وبهذا يرى الإنسان عظيم قدرة الله تعالى في خصوصية شأنه إذا تأمل عجائب قدرة الله عَزَّ وجل في الإيجاد وفي الإماتة، وفي أطوار حياته التي منها، نقله من الجهل إلى العلم، ثم من العلم إلى الجهل، ليفقد كل مكتسباته العقلية، وتصرفاته الذاتية.

وفي ذلك تنبيه لهذه المرحلة العمرية، بأن يتعوذ منها الإنسان، كما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من أرذل العمر (اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أُرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر)[١] ومن جميل البيان ودقته أن الله تعالى ذكر علم الإنسان لِمَا قبل مرحلة أرذل العمر بصيغة النكرة ﴿عِلْمٍ﴾ من قوله تعالى ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ليستوفي جميع ما حَصَّلَه من علم، سواء من خبرات، أو علوم، أو معارف، بل من جميع ضروب العلم، وبالتالي لن ينتفع بما سبق، ولا يستطيع أن يتعلم علما جديداً، أو استعادة ما تعلمه من قبل. إنها مرحلة التوقف والتخلي عما سبق.

ثم يختم الله تبارك وتعالى الآية بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فإن الله تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ أي أحاط علمه بكل شيء، مما كان، وما هو كائن، وما سيكون قبل أن يكون، بل وجاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بصيغة المبالغة، التي تفيد كمال وشمول العلم والإحاطة التي لا يغيب شيء عنه أبداً عَزَّ في علاه، فامتد معنى ﴿عَلِيمٌ﴾ لأقصى غايته. ومسبوق بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ التي تؤكد أن الله تعالى محيط بعلمه كل شيء، وهذا من دقائق السياق، الذي يدل على كمال الإعجاز في البيان كما هو الإعجاز في الخلق والتدبير. وكذلك فإن الله تعالى ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على كل شيء، وقد رأيتم قدرته في أنفسكم وفي غيرها من مخلوقاته. بل حتى صفة القدرة لله تعالى ﴿قَدِيرٌ﴾ وردت بصيغة المبالغة، التي تفيد كمال القدرة وشمولها، فليس هناك شيء خارج عن قدرته عَزَّ وجل، كما أنه ليس هناك شيء خارج عن علمه سبحانه وتعالى، مما يجدر بكم أيها العباد بعد أن عرفتم ذلك أن تؤمنوا بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبملائكته وكتبه ورُسُلِه، واليوم الآخر، والبعث والنشور والجزاء والحساب والجنة والنار، وتطيعوه كما أمر، وتنتهوا عَمَّا نهاكم عنه جَلَّ في علاه.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٦٦/٤) برقم (٦٣٧٠)

ثم ينتقل البيان من الله تعالى في تدرج ونظم عجيب عظيم، إلى ما يتعلق بحياة الناس، فيما يحسون به، ويُشاهدونه من أنفسهم، وفي غيرهم من العباد، وهو الرزق ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ فبدأ الخطاب الرباني الكريم بلفت الانتباه إلى الرزق، وتفاوت الناس فيه، بأسلوب الحصر والقصر ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ ﴾ فقرر الله تبارك وتعالى بأسلوب الحصر والقصر أن تفاضل التفاوت في الرزق له وحده سبحانه وتعالى، وليس لغيره أبداً، وليس لاجتهاد الناس، ليصبح مفهوم الاجتهاد في تقصي أسباب الرزق هي من الأسباب فقط، ولكنها ليست هي المحددة لمقدار الرزق الذي يريده العبد، ويريد أن يتفاوت به على غيره من الناس.

وجملة ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ ﴾ تفيد قصر وحصر فعل التفضيل في الله تعالى وحده لا شريك له، وذلك من حيث السياق، بتقديم لفظ الجلالة الذي هو الفاعل على الفعل، وليدل على التعاضد بين الإعجاز البياني والإعجاز الفعلي الذي يراه الإنسان في حياته، ويعايشه معيشة حثيثة، واضحة جلية. فإن العبد عاجز عن أن يضع نفسه في الرزق الموضع الذي يريده ويتمناه إلا بتوفيق من الله تعالى، فكم من مجتهد لم ينل مراده مع شدة حرصه وكَدِّه. وكم ممن هم أقل منه كداً وكدحاً وفكراً يُحَصِّل أضعاف ما يُحَصّله غيره.

وفي جملة ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ ﴾ دلالة على أن كل أحد من الناس مرزوق من الله تعالى، لأن في التفضيل دلالة على أن الكل مرزوق، ولكن يتفاوت العباد في الرزق بفضل من الله تعالى، فهو الذي جعل هناك فاضل، وهناك مفضول في الرزق، حتى ولو اجتهد من اجتهد على أن يصبحوا أفضل من غيرهم، فإنهم لن يصلوا لمبتغاهم إلا بفضل من الله تعالى عليهم، وهو ما يشاهده ويشعر به الإنسان في نفسه وفي غيره من العباد. ليدل ذلك على أن جريان الرزق لا يجري وفق رغبات الناس، واستحقاقهم، وإنما يجري وفق تفضيل الله تعالى، كما أن زيادة الرزق، وتفضيل المرزوق على غيره لا يعني أنه مستحق لذلك، أو لأنه رغب فاجتهد فَحَصَّله، وإنما يعود الأمر لإرادة وحكمة الله تعالى. فكم راغب لم يحصل مرغوبه من الرزق. فإن هناك من هو أقل فكراً وتدبيراً يتفوق في الرزق على من هو أفضل منه تدبيراً وفكراً وتجربة. مما يدل على أن الامتنان هو لله تعالى فيما أعطى، وأن الأمر يسير وفق ومقتضى حكمة الله عَزَّ وجل في كثرة العطاء لمن يشاء، وفي قِلَّتِه لمن يشاء، وتفاوته بين الأنام وفق تدبيره، فإن الأمر كله لله تعالى الرزاق الكريم، فإن لله الحكمة البالغة في قسمته وتدبيره، التي لا يستطيع أن يدرك غايتها الإنسان.

ودلالة كلمة ﴿ٱلرِّزْقِ﴾ مستوفية لجميع أنواعه ومقداره، من المال، والجاه، والقوة، والعلم، والأولاد، والتدبير، والصحة، والحنكة، وغيرها من أوجه الإنعام. مما يلفت الانتباه إلى أن مفهوم الرزق أوسع من أن يقصره الإنسان على المال فقط. ويوضح ويبين هذا التفاوت في أوجه الرزق يبين للعباد أن الرزق من الله تعالى، وأن التفاوت في التفاضل من الله تعالى، حتى أنكم أيها الناس عاجزون عما تريدون تحقيقه من التفاوت، مع وجود الأسباب وتوفرها. ليدل على حاجة الإنسان وافتقاره لربه تبارك وتعالى، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. فهو مسير الأسباب، وهو الموفق سبحانه وتعالى. فاطلبوه بالدعاء والطاعة والامتثال. ثم الرضا بما قسم وأعطى، لأن له عَزَّ وجل الحكمة البالغة في العطاء وسعته وتقديره.

ثم يتدرج البيان، ليصل بالمخاطب إلى حقيقة عظيمة ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ فإن الذين فضلهم الله تعالى في أرزاقهم ليسوا ﴿بِرَآدِّي﴾ أي: ليسوا بمعطين رزقهم لمن ملكت إيمانهم من عبيدهم. فيكونوا متساوين في الرزق معهم. وهذا مثل يضربه الله تعالى للمشركين في كل زمان ومكان، فإذا كان عبيدكم ليسوا معكم سواء في الملك، فكيف تجعلون عبيد الله تعالى معه على سواء، فترضون لله تعالى من الشرك ما لا ترضونه لأنفسكم من إشراك عبيدكم لكم فيما تملكون. فكيف لا تشركون عبيدكم في أموالكم، بينما تُشركون عبيدي في ملكي، وفي عبادتي؟ إنها محاكمة لهم، بسؤال يستظهر منهم الحقيقة الناطقة بالحق. ليتبين عمق الإعجاز في المعالجة، والإعجاز في تدرج البيان، والإعجاز في أسلوب البيان، والإعجاز في البلاغة التي لا يستطيع عليها الإنسان. مما يفيد أهمية التدرج في المحاجة، وإظهار الحقيقة، للوصول بالمخاطب إلى الحق، وإرغامه بالحجة الناصعة، وليتبين أن هذا الدين قائم على الحقائق الواضحة البينة، وليس على التدليس والخديعة، وأنه يرتقي بعقل وفكر الإنسان، وينهض به من التردي في الجهل إلى أن يصل به إلى الحكمة، ليربي فيه قوة البصيرة والتفكير والاستنتاج والتحليل والقياس.

ثم تنتهي الآية الكريمة بسؤال استنكار على حكمهم الجائر، وكفرهم بإنعام الله تعالى عليهم ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أفبنعمة الله تعالى التي شملت الرزق، والتفاضل فيه، ونعمة الوجود والحياة، وإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم يجحدون بها، فينكرونها، وينكرون هذه الاستدلالات من الآيات والحجج والبراهين. وقد دلت كلمة ﴿يَجْحَدُونَ﴾ على الاستنكار بعد الاستيعاب والتصديق القلبي، لأن الجحود لا يكون إلا فيمن عرف الحق وأنكره، فانتفى عنه الجهل به، فهو: إنكار لِمَا عَلِمَ وعَرَفَ وتيقن منه. قال الراغب الأصفهاني: الجحود: نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه[1] فقد نفوا ما في القلب إثباته، وهو

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٨٨)

توحيد الله تعالى، وأثبتوا بسلوكهم الوقوع في الشرك التي تنفيه قلوبهم، لما عرفوا من الحقائق والأدلة والبراهين التي أزاحت الجهل عنهم. واستوعبت النعمة ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ﴾ كل نعمة أنعم الله تعالى بها عليهم، ومنها ما سبق من ثمرات النخيل والأعناب، وما ينتجه النحل من العسل، وما فيه من الشفاء، ونعمة الرزق، وآية التفاوت في الرزق. وفي هذا استجماع لكل النعم، وعلى الأخص نعمة الرزق، والذي استوفت كل نعمة أنعم الله تعالى بها على العباد. وهذا يدل على الإعجاز البياني في تحقيق الوصف كما هو عليه، بأدق الأساليب والكلمات، فكل كلمة في القرآن الكريم لا يقوم غيرها مكانها.

ثم يتدرج البيان إلى حقيقة التناسل البشري، وإظهار بديع خلقه تبارك وتعالى التي تدل على إبداعه سبحانه وتعالى، وانفراده بالوحدانية والربوبية، بأنه ربكم ورب كل شيء ومالكه، وأنه المتفرد بالألوهية، فلا إله غيره سبحانه وتعالى، وأنه المتفرد بالعبودية، فلا معبود بحق غير الله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي أوجد لكم من أنفسكم أزواجاً، بين الذكر والأنثى، وليس أنتم الذي جعلتموه وابتكرتموه، وكذلك لم يجعله من جنس آخر. ليمتنع التنافر، ويحصل به الائتلاف والتوافق. كما وأنه عَزَّ وجل جعل لكم البنين ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ ﴾ فمن تزاوجكم جعل لكم بنين، ومن مزيد كرمه أن جعل النسل يستمر فجعل من أبنائكم ذرية، وهم الحفدة ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ وهم أولاد البنين، فإنها نعمة وآية عظيمة، تستوجب منكم الشكر بالطاعة والامتثال لربكم ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يعطف سبحانه وتعالى على ما سبق نعمة الرزق من الطيبات التي لا خُبث فيها. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ وزادكم من فضله بأن رزقكم من المطاعم والمشارب. ثم وجه تبارك وتعالى الاستنكار على من كفر بعد هذا الإنعام والتفضل منه سبحانه وتعالى على الإنسان، فيؤمن ويعمل بأضداد هذه النعم ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أبعد هذه النعم الجليلة التي انفرد الله تعالى بإيجادها وتدبيرها لكم، مع إدراككم لهذه النعم الجليلة العظيمة فتتجهون إلى الإيمان بالأصنام والأنداد التي لا تعقل، ولا تملك حياة ولا موتاً ولا نشورا، وتتركون هذه الحجج والبراهين فيما أنعم به عليكم، فتضيفونها لغير مُوجِدِها وخالقها وخالقكم. فتكفرون بها إنكاراً وجحوداً للحقيقة، وإيماناً بالباطل.

وقد بدأ البيان الرباني بتقرير حقيقة الإيجاد ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ وهم أساس مكونات الإنجاب، فلا يمكن أن يكون هناك إنجاب من غير التزاوج بين الذكر والأنثى، فشد انتباههم إلى هذه

الحقيقة، التي تدل على انفراد الله تعالى بتحقيقها، وأكدها سبحانه وتعالى بحصر وقصر إيجادها على ذاته الكريمة، بتقديم لفظ الجلالة على الفعل ﴿ جَعَلَ ﴾ والذي يفيد الخلق والإيجاد، وعَيَّن الأزواج تحديداً بأنها من جنسكم ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ وهو امتنان من الله تعالى في هذه النعمة، ولم يجعلها من جنس آخر غير جنس الإنسان، وهي محل تفكر وتأمل، ليخرج منها المخاطَب بأن ذلك آية من آيات الله تعالى.

ثم يتدرج البيان من إثبات نعمة التزاوج، وأنها من نفس جنس الإنسان إلى نعمة الإنجاب ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ ليدل على نعمة التسلسل والمتابعة في الإنجاب. ومن فوائد تفاصيل كلمة ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ وهم أولاد البنين، أنها تُطلق كذلك على الخدم، وأصل الحَفد: مداركة الخطو، والإسراع في المشي، والذي يفعله الْخَدَم، فيقال لهم: حَفَدَة، وهم الأعوان، ومن أعانك فقد حفدك. ومنه يُقال في الدعاء: وإليك نسعى ونحفد. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن ما قاله الأزهري: من أن الحفدة أولاد الأولاد: هو ظاهر القرآن، بل نصه. وقال ابن العربي رحمه الله تعالى: أن البنين أولاد الرجل لصلبه، والحفدة أولاد ولده، وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا[١] قال الزجاج رحمه الله تعالى: وحقيقة هذا الكلام أن الله تعالى جعل من الأزواج بنين، ومن يعاون على ما يحتاج إليه بسرعة وطاعة[٢] فنستفيد من هذا التحليل أن المقصود الأول من دلالة ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ أنهم أولاد الأولاد، أي أبناء البنين والبنات، ولكن المقصود الأساسي جَمَعَ مقصوداً آخر، وهو الامتنان عليهم بنعمة الخدمة لهم من الأحفاد، سواء من كانوا أولاد الأولاد، أو كانوا بمعنى الأعوان والخدم، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: من أعانك فقد حفدك. وعن مجاهد رحمه الله تعالى، قال: الحفدة الخدم[٣] ليعطي المعنى: الامتنان بالخدمة التي يقدمها الأحفاد لأجدادهم، مما يدل على أن النص الكريم يحمل تفصيلاً دقيقاً، ومغزى عظيماً في دلالته كما هو عظيم التسخير والامتنان من الله العزيز الكريم، بل جاء في أعلى درجات البيان وقمته.

ومن دقائق التخصيص في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ أنه خص البنين دون البنات بالذكر، وذلك لعلة استمرار الانتفاع، لأن البنات والأحفاد من الإناث غالباً ما ينقطع مباشرتهن للنفع بالزواج، والانتقال إلى بيت الأزواج، والانشغال به، وبأولادهن، وخاصة أن السياق في الآية

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/٩٤-٩٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٤٣)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٢٩٨)

الكريمة ورد لبيان نعمة التفضل من الله تعالى، وليُمعِن المُخَاطَب النظر والتأمل والتفكر في دقة هذا التخصيص، وما فيه من التدبير الحكيم. ويؤكد علة التخصيص هذه، ما ذهب إليه بعض علماء التفسير عن المقصود بلفظة الحفدة ﴿وَحَفَدَةً﴾ بأنهم أعوان الرجل وخدمه، فعن عكرمة رضي الله عنه: هم الذين يُعينون الرجل من ولده وخَدَمِه[١] والاستثناء هو استثناء قدرة، واستثناء تكريم، لأن الخدمة المرتبطة بالجهد الكبير مُوكله في الأصل إلى الذكور. واستثناء التكريم متعلق بتكريم الأنثى واستثنائها من استمرار الخدمة، وكذلك لما يحصل من افتراقها عن والديها بالزواج. وفي السياق امتنان من الله تعالى على الإنسان، بتسخير الذرية للخدمة والإعانة بقوة العاطفة والعلاقة المتبادلة بين الأصول والفروع عبر سلسلة التعاقب من النسل فيما يكون من أبناء الأبناء أو أبناء البنات، والتي لا تنقطع إلا فيما ندر. فهذا تفصيل دقيق، بل في أعلى درجات البيان، فإن الله تعالى ما خص في كتابه شيئاً دون آخر إلا لدقة وعلة يتضمنها البيان، مما يستلزم النظر في عموم السياق، ومقاصده، فإذا جُمِعَت مع كمال السياق ظهر جليل معانيها لمن تدبرها.

وبعد تقرير الإنسان بنعمة الأزواج والبنين والحفدة ينتقل الخطاب البياني من الله تعالى إلى محور عموم النِّعَم، والموصوفة بالطيبات ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فنسب تبارك وتعالى الرزق وعملية الارزاق له عَزَّ وجل، كما نسب الخلق والإيجاد له جَلَّ جلاله. واستغنى البيان بالوصف عن الموصوف، فاستغنى بذكر ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ على الموصوف بها من المطاعم والمشارب، وهي أنواع الثمار والحبوب وأنواع اللحوم والمشروبات، بما يدل على كرم ما أعطى سبحانه وتعالى من العطاء الموصوف بأنه من ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ التي تستطيبونها، وتستلذونها. فالطيبات ما تطيب به النفس، وتطيب به ذائقة الطعام والشراب، وتستطيبه الناس فيما يقدمونه لبعضهم البعض. فيتقرر بهذا الوصف أن ما قَدَّمَهُ اللهُ تعالى لكم أيها الناس هو إنعام طيب من كل وجه: في الصحة، والقوة للبدن، ولما تشتهيه وتحبه الأنفس، وقد انتفى عنه الخبث والمنقصات تماماً، فانتفى عنه جميع أضداد الطيبات. حتى استحوذت عليه صفة الطيبات فأصبح اسم الطيبات دال على ما رزقكم سبحانه وتعالى.

ومن الدقائق أن سبقت كلمة الطيبات حرف من ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ليدل على التبعيض، أي: بعض الطيبات، فعلى كثرتها في الدنيا إلا أنها وردت بصيغة التبعيض، قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: ومِن للتبعيض، لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلا في الجنة[٢] فأفاد التبعيض أن هذا من طيبات الدنيا، وهو

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٢٩٩)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/١٧٩)

بعض من عموم الطيبات التي خلقها الله تعالى، وأما جميعها فهو في الآخرة، لمن أكرمه الله تعالى بالجنة. اللهم أكرمنا والمسلمين أجمعين بالجنة، بفضلك وكرمك يا رب العالمين.

وكذلك من وجه آخر ليتوافق ذلك التبعيض مع تحصيل الإنسان له، فإن الإنسان لا يستطيع أن يجمع في يومه جميع الطيبات، فتختلف موجوداته من الطيبات بحسب الأيام. وكذلك ليتناسب مع التفاضل والتباين الذي بين الناس في الرزق، وفي تنوع المحاصيل على مستوى الفرد، أو على مستوى البلاد وما اشتهرت به من منتوج الطيبات، فكل عنده قدر من الطيبات، بحسب ما يقدره الله تعالى له، وكذلك حتى يتوافق مع تفاوت منتجات البلدان من الطيبات، فتجتمع في أنواع، وتختلف في أنواع أخرى. وقد تختلف بحسب المدن وبحسب القرى والأمصار. وفي استيعاب السياق لهذه الدلالات ما يفيد عمق محتوى السياق، وغزارة ما يدل عليه النص من الدقة، وبما يؤكد إعجاز القرآن الكريم في سياقه العظيم، وفي حروفه وكلماته، فتتبين عظمة بلاغة النص الكريم في عمق استيعابه لدقائق الحقائق.

ثم بعد التفصيل الجليل لعظيم إنعامه عَزَّ وجل، وعظمة إبداعه في خلقه يتجه بالمُخَاطَب سبحانه وتعالى إلى كشف سوء تعامل هذا الإنسان مع هذه النعم الجليلة العظيمة ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ سؤال استنكار، وسؤال تقريري لفعل الإنسان المضاد لما يجب أن يكون منه، وسؤال يحمل التوبيخ لسوء التصرف، وسوء الفكر المناقض لما يجب، والمناقض للحق. أبعد هذا تتجهون بالإيمان والإقرار إلى الباطل، فتنسبون هذه النعم وهذا الإبداع في الخلق والتكوين والتدبير والتقدير إلى من يجهله، ويعجز عنه، وبالمقابل تكفرون بنعمة الله تعالى التي يجب أن تنسبوها إليه سبحانه وتعالى. فإنها محاكمة للعقول، بما يرفعهم عن الجهل إذا أرادوا ذلك، فقد أصبحت الحقيقة والحجة قائمة عليهم، فلا يسعهم بعد هذا البيان إلا الإيمان، وإن كفروا فهو كفر جحود وإنكار للحق بعدما تبين لهم، واتضح كوضوح الشمس في كبد السماء. وهذا يُعَلِّم المؤمن منهجية إقامة الحجة، ومنهجية إحقاق الحق، ويرفع من مستوى الفكر والتفكر والتأمل، وتتبع الحق بالدليل والبرهان، وليس بمجرد التخمين. فإنه دين الله تعالى القائم على الحجة والبرهان.

ويزداد الكشف عن حقيقة من آمن بالباطل، وكفر بنعمة الله تعالى، إذ أسندوا الحمد والشكر والنعمة لمن لا يستحق الشكر من الأصنام والأوثان، وتركوا الحمد لمن يستحق إخلاص الشكر والثناء والحمد له سبحانه وتعالى، فأشركوا مع من له الحمد كله، وله العبودية كلها، وله الإخلاص كله، فأكدت هذه الآية الكريمة معنى ما قبلها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ إن هؤلاء المشركين عبدوا مع الله تعالى غيره، مع أن هذه المعبودات التي من دون الله عَزَّ وجل لا تملك لهم رزقاً، لا في السماوات بإنزال المطر، ولا في الأرض بإنبات النبات والأشجار، حتى تستجيب

لمطالبهم، وتعطيهم ما يريدون، فإنهم عاجزون ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فقد امتنعت عنهم الاستطاعة، فإنهم عاجزون عن ذلك أصلاً، ولا يَقْدِرُون عليه، إذ ليس لهم إرادة ولا استطاعة، ومع ذلك يتركون الْمُنْعِم القادر سبحانه وتعالى، والمتفضل عليهم بجليل الإنعام، التي منها الخلق والإيجاد والتسخير، ومع هذا يعبدون معه العاجز الذي لا يملك لهم شيئاً. وهذا غاية الانحطاط الفكري لهم.

ثم بعد البيان الذي استضاءت به الحقيقة، وقامت به الحجة، بأن الله تعالى واحد أحد، ليس له شريك في الملك، ولا في العبودية، ولا في الألوهية يأتي النهي والزجر من الله سبحانه وتعالى عن أن يضربوا له الأمثال، وهو منزه عن ذلك عَزَّ وجل ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فليس لله تعالى مماثل ولا مشابه حتى تضربوا له الأمثال ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فعليكم أن تنتهوا وتمتنعوا عن أن تجعلوا لله تعالى مثلاً، لأنه سبحانه وتعالى واحد لا مثيل ولا شبيه ولا نِدَّ له عَزَّ وجل.

ثم يبين لهم تبارك وتعالى قصور علمهم، ومحدوديته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن الله تعالى يعلم، بينما أنتم جاهلون، وقد وردت كلمة ﴿يَعْلَمُ﴾ على وجه العموم، لبيان أن علمه سبحانه وتعالى يحيط ويعم كل شيء، كما وردت ﴿يَعْلَمُ﴾ بصيغة الفعل المضارع، الذي يفيد الاستمرار وعدم الانقطاع، بينما أنتم لا تعلمون ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بجهلكم العميق، وإشراككم مع الله تعالى ما ليس له به حق من المعبودات المختلفة، بل إن تلك المعبودات مسلوبة الإرادة، بما يثبت لكم أنكم لا تعلمون، مما يوجب عليكم العلم بما علمكم العليم الحكيم، الذي خلقكم، وأنعم وتفضل عليكم بنعمه التي لا تُعد ولا تُحصى، ومنها إعلامكم بانفراده بالخلق والملك. وفي هذا توبيخ لهم بما هم عليه من الضلال، وعدم الاستجابة للحق الواضح البائن.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

ثم يتدرج البيان من نهي المخلوقين عن ضرب الأمثال له سبحانه وتعالى، وذلك لعزته ونزاهته عَزَّ وجل من أن يكون له مثيل من خلقه، ليتدرج بهم إلى ضربه تعالى الأمثال للمؤمنين والكافرين، ليثبت لهم الحقيقة في خلقه، ويعلمهم أن ما يصلح لخلقه لا يصلح لله تبارك وتعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا

يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فَضرب الله تعالى بالتشبيه، مثلاً لكم أيها الكافرون، ومثلاً للمؤمن من عباده، فالمثل للكافرين أنه ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ فإن العبد الكافر كالعبد المملوك، المسلوب القدرة، لخذلان الله تعالى له، فلا خير عنده في حوزته حتى يستطيع أن ينفق منه.

وقد أكد تبارك وتعالى ملكية هذا العبد لغيره بقوله عَزَّ وجل ﴿ مَّمْلُوكًا ﴾ ليتأكد به معنى العبد، المتضمنة لسلب إرادته من جميع التصرفات، فهو مملوك لغيره من الناس، فَصَوَّر صورة العبد على الحقيقة من ملكيته لغيره. ثم أعقبه بصفة العجز والامتناع عن التصرف ﴿ لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ فنفى عنه القدرة تماماً، وذلك بدلالة نفي القدرة عن أي شيء ﴿ لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ فنفى القدرة بالكلية، فشملت ﴿ لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ حتى القليل، والبسيط، واليسير، فهو نفي قد تم تأكيده بتمام وكمال الملكية لغيره، وينتفي بذلك أدنى درجات القدرة. وفي هذا بلاغة إعجاز في البيان، وكذلك دقة تصوير حالة الكافر في أدق درجات العبودية، وأذلها، وأحقرها.

ومن دقائق البيان سعة دلالة ضرب المثل، ليتسع لأصنامهم العاجزة، ويتسع أيضاً للمشركين الذين أصبحوا مع أصنامهم كالعبد المقيد لها، حتى أنهم منعوا عن أنفسهم ما أحل الله تعالى، وأحلوا ما حرَّم تبارك وتعالى. وكذلك يتسع لعبد المال، فنتيجة كفره، أصبح ذلك المال هو السيد عليه، فسيطر على صاحبه، حتى انشغل به عن مصالح الآخرة، وانشغل بحفظه، نتيجة خوفه عليه من آفات الفقد والضياع، وخوفه من إن يصرف منه فينقص، ثم يفقده، فهو متحفظ عليه، حتى أصبح حارساً وعبداً له، كالعبد للسيد.

ويمكن أن تكون هيئة المثل المضروب كمثل العبد المملوك لشخص آخر، فانحبست عنه حرية التصرف، حتى أصبح مقيداً بما يمليه عليه سيده. فهذه السعة للدلالات تعطي سعة في الصورة الواسعة لهذا المثل المضروب ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ فكلما نظرت له من وجه أعطاك الصورة الحقيقية التي يجب أن يستلهم منها الإنسان الحق والباطل، لينتهي عن الباطل ويلزم الحق.

وأما حال المؤمن فهو حال من وفقه الله تعالى، فرزقه رزقاً واسعاً يتصرف فيه وفق مراد الله تعالى ﴿ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ فالمؤمن بمثابة الحر، الذي مَكَّنَهُ اللهُ تعالى من الحرية، وأَمَدَّه بالرزق الحسن، الذي اتصف بالطيبة والبركة ﴿ فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ فهذا المؤمن المرزوق من الله تعالى، يتصرف في ماله تصرف الأحرار، فينفق منه سراً بينه وبين ربه تبارك وتعالى، وكذلك ينفقه علناً بمشاهدة

غيره له، فلا يخاف من سطوة أحد عليه، لأنه حر، وليس مَثَلُهُ كمثل العبد العاجز، الذي ليس له أهلية التصرف، لخشيته من سيده. فإن صفة الإنفاق تدل على أهلية التصرف، مع كمال القدرة، لسعة الرزق، وكذلك الإيمان الذي لا يخاف صاحبه من أحد، إلا من الله تعالى، ولا يخاف على ماله من الإنفاق والتصرف لأنه يعلم بأن الله تعالى يُخلف عليه بما أنفق، كما أن الإنفاق يتوالى ويتكرر منه، لثقته في الله تعال. وورد فعل الإنفاق بصيغة المضارع ﴿يُنفِقُ﴾ ليدل على الاستمرار والثبات في الإنفاق، مع تجدد وتزايد الرزق، لأن الاستمرار يعطي دلالة استمرار تدفق الزق، وعدم انقطاعه.

وقد نسب الله تعالى الرزق له ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا﴾ ليفيد أن الرزق من خزائنه سبحانه وتعالى، بل أثبته وأكده مرتين: الأولى هي: ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ﴾ فهذا إثبات للرزق أن أصله من الله تعالى، والمرة الثانية بضمير المتكلم ﴿مِنَّا﴾ التي أكدت الأولى، لتفيد المبالغة في إثبات عملية الارزاق. وكذلك أعقب فعل الارزاق ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ﴾ جملة ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ تأكيداً وبياناً لصفة هذا الرزق، بأنه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ فلا يشوبه شيء من الحرام ولا الفساد. وكلمة ﴿حَسَنًا﴾ توضح طيبة هذا الرزق، وأنه قد اشتمل على الحُسن.

ثم ينتقل السياق مباشرة إلى استثارة الذهن بالسؤال التقريري ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ هل تستوي الصور الواردة في هذا المثل المضروب؟ فإن حتمية الإجابة التي لا مناص منها هي: لا يستويان. فإنه سؤال يقرر به عدم التساوي، فكذلك لا يستوي الكافر والمؤمن. بما يوجب التفكر والتأمل، والانقياد للحق. وهو كذلك سؤال استنطاق ليحكم الإنسان من خلال هذا المثل على الحقيقة، وليختار الأصوب والأصح. مما يبين أن منهج الإسلام قائم على الإقناع، وأنه يوضح الصورة والواقع بأدق الأساليب، والتي منها ضرب المثل لمعرفة وإدراك الحق والأخذ به وترك الباطل.

ومن بديع البيان وقوة نظمه أن ورد السؤال عن التسوية بين المؤمن والكافر بصيغة الجمع، بينما المؤمن مفرد في السياق، وكذلك الكافر ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ وذلك لتشمل الجنس كله، جنس المؤمنين وجنس الكافرين، فهل أهل الإيمان وأهل الكفر يستوون؟ وكذلك لتشمل جميع الصور التي يتضمنها المثال المضروب، وليتأكد بذلك صحة ما استوعبه المثال المضروب من الصور المتعددة للكفر، بينما صورة حال المؤمن واحدة- لتتفق مع الحق بأنه واحد، مما يبين دقة السياق في القرآن الكريم، وقوة مضمونه، وأنه محل إعجاز.

ثم تنتهي الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فإن الحمد لله وحده لا شريك له، فهو المستحق للحمد والثناء كله. فقد حصر استحقاق الحمد له جَلَّ جلاله ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فهو المنعم بما أنعم على عباده. وبالتالي ينفي به أن تكون هناك نعمة للأصنام تستحق بها الشكر، أو لصنيع العبد الكافر ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وأكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون. فنفى سبحانه وتعالى عنهم عموم العلم، فيستوفي بذلك النفي تعميم الجهل عليهم، مع ورود صفة الأكثرية، أي ليسوا جميعاً، لتعطي إفادة بيانية عظيمة، وعدلاً بيانياً في الوصف، بأن أكثرهم يجهلون بسبب أنهم أتباع لغيرهم، وأن بعضهم وهم القليل منهم يعرفون الحق، ويجتنبونه، لتحقيق مصالحهم الدنيوية التي اغتروا بها من كثرة الأتباع، فأكثرهم تابعين لمن أضلهم بعلم ومعرفة للحقيقة والحق. وتشمل كذلك أنهم لا يعلمون أن استحقاق الحمد هو لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له. وهذا من روعة البيان، وسعة التفافه على جميع الدلالات المتضافرة، من غير اضطراب ولا تضاد.

ويستمر ضرب الأمثال في تدرج تتابعي لكشف المزيد من الحقائق التي تُعيد الْمُخَاطَب إلى فهم الحق بأدق البيان التوضيحي، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فَشَبَّه الله تعالى للحق والباطل بمثل رجلين ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ ﴾ فالصفة الأولى لهذا الرجل الذي يمثل الباطل أنه ﴿ أَبْكَمُ ﴾ فهو لا يستطيع الإفصاح عما في نفسه، وهي الصفة المتمثلة كذلك في الصنم، والصفة الثانية لهذا الرجل: أنه ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ فهو عاجز عجزاً تاماً عن كل شيء، فهو عجز قدرة بعد عجز النطق، فإنه مسلوب القدرة كلياً، مع علة عدم النطق. فلا قدرة له البتة. فإن جملة ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ تنفي عنه تمام القدرة حتى على أقل وأضعف وأبسط الأشياء، فإنه لا يستطيع أن يمنع، ولا يستطيع أن يعطي، وبالتالي لا يحقق خيراً، ولا يمنع شراً، مهما كان ذلك الشيء هيناً ويسيراً، والصفة الثالثة: ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ ﴾ فهو عالة على ولي أمره، فهي صفة تؤكد صفة انعدام القدرة، بل أصبح ثقيلاً على صاحبه، فهو عالة على ولي أمره وشأنه، فأصبح صاحبه ومولاه هو الذي يقوم على شؤونه، فيقوم بحمله ووضعه وخدمته، فلا منفعة تعود على مولاه منه، بل مشقته واقعة على كاهل صاحبه ومولاه، فتحقق الضرر والمشقة منه من كل وجه، بكثرة وشدة ما ينتج عنه من الثقل والتعب والهم.

والصفة الرابعة ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ومع هذا فأينما يوجهه في أمر لا يأتيه منه إلا بالشر، لأنه فاقد الكلام، وفاقد القدرة، فانتفاء الخير منه قد تحقق تماماً من غير شك ولا ريبة. فهل هذا المثل، سواء كان المقصود به الصنم الذي يُعبد، أو من كان عالة على أهله وأقاربه وحلفائه وأهل ولايته يستوي هو ومن يضاده في هيئته وفعله. سؤال ليس له إلا جواب واحد، بأنهما لا يستويان.

فهل هذا الذي ألحق بصاحبه ومولاه الضرر والمشقة، مع انعدام المنفعة منه، فهل يستوي هو والرجل المضاد له في كل شيء ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فإن هذا الأبكم، الثقيل على مولاه، والذي لا يأتي بخير أينما اتجه، هل يستوي مع من هو ناطق ومتكلم بالحق ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ فيأمر بالصواب والإنصاف والاستقامة، وإحقاق الحق؟ فإنهما لا يستويان. بما يدل على أنه عالم متبصر بالحق، فاستوفاه في نفسه، ومجتهد في تطبيقه على نفسه، وينصح به غيره، فيأمر به ويعلمه وينشره، ومع جميع هذه الفضائل تجده ملتزم بالمنهج المستقيم قولاً وفعلاً ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين الحق، والمحجة المستقيمة، التي لا التواء فيها ولا عوجا، فليس هو في جانب من الإفراط أو التفريط. فإنهما لا يستويان، فامتناع التساوي بينهما، يحاكي ويصور عدم التساوي بين الحق والباطل، وبين من يعبد صنماً لا يتكلم، ولا يقوم على نفسه، ولا يدبر شؤونه، فضلاً عن أن يدبر غيره، وإن طلبت منه شيئاً، لا يأتيك بخير، ولا يدفع عنك شر، بينما الآخر يأمر بالعدل الذي يمثل الحق والواجب، وهو على دين مستقيم من الأمر، فهو يمثل جميع من اتصف بهذه الصفات المحمودة من الصحابة رضي الله عنهم، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن تبعهم إلى يوم الدين. فهل يستون مع صنم فاقد الوعي والقدرة.

ولذلك قال بعض أهل العلم: كلا المثالين للمؤمن والكافر، وذلك قول يروى عن ابن عباس(١) فهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالكافر هو الأبكم، وأما الذي يأمر بالعدل فهو المؤمن، رواه العوفي عن ابن عباس(٢) فعدم قبول الكافر للإسلام كمن كان أبكم، لا يستطيع أن ينطق بما عرف من الحق، فهو لا يستطيع أن يستوعب مصلحته ويسير فيها، لأن قلبه تعلق بشهواته الكفرية، فأطاعها، وهو أينما اتجه في شأن من الشؤون لا يأتي الخير منه البتة، بسبب كفره، وميوله للشر، ومعاداة الحق والخير، بينما المؤمن داعية للخير

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١١/١٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٤٥/٤)

وإقامة العدل، لأنه على دين الحق، الذي زكاه ربه تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ليس في دينه اعوجاج، وبالتالي ليس في مسلكه اعوجاج.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ
ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ
ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ
بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ
وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ
ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ
تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

ينتقل السياق الكريم إلى إثبات ما لله تعالى من الخصائص والقدرة، ليتدرج مع المخاطبين بأن من يملك ذلك فإنه هو الذي يأتي بيوم القيامة كلمح البصر، أو أقرب من ذلك ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فبدأ التوجيه الكريم ببيان عظيم علمه سبحانه وتعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقد استقصى عِلمُ الله تعالى كل شيء، فلا غيب عن الله تعالى في السماوات ولا في الأرض، فما يغيب عليكم أيها العباد لا يغيب على الله تعالى، فإنه معلوم بدقائق تفاصيله عند لله تعالى، فالغيب منتفي عنه عَزَّ وجل، بل إن علم الغيب مقصور على الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقد قصر وحصر البيان الكريم علم الغيب على الله تعالى فقط. مما يُوجب عليكم أيها الناس بعد إدراك هذه الحقيقة، أن تعلموا أنه سبحانه وتعالى يعلم عنكم كل شيء، فلا يغيب عنه شيء من أعمالكم، ولا يخفى عليه مما تخفونه بينكم، وفي هذا توجيه وبيان وإعلام وتحذير.

ثم يمتد التحذير بما هو قادم عن أمر الساعة ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ فشأن الساعة عند مجيئها وحدوثها كلمح البصر، وذلك من سهولة أمرها وشأنها على الله تعالى، من حيث حدوثها وسرعة مجيئها، ومفاجأتها لكم، بل من شدة سرعة الساعة أنها أقرب عند حدوثها من لمح البصر، بما يفيد ليس هناك مجال للالتفات، ولا للبحث، ولا للتغيير، حتى يغير الإنسان حاله من الكفر إلى الإيمان، أو يتوب أو يعمل خيراً ينجيه، ويقربه من الله تعالى. فإنه سَيُقضى لكل إنسان بما كان عليه. وفي هذا تحذير وإنذار بأن مصلحتهم في الإيمان والطاعة لله تعالى. ثم يؤكد قدرته عَزَّ وجل بقوله جَلَّ جلاله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلا تستغربون من ذلك، فإن الله تعالى لا يعجزه شيء البتة، فهو قادر على كل شيء يريده، فيكون كما أراده سبحانه وتعالى تماماً، سواء من حيث السرعة، أو من حيث كينونة الشيء وحدوثه في هيئته ونوعه ومقداره، فلا تقيسوا الأمر على قدرتكم القاصرة، فقدرتكم ممتنع عنها الكمال، ويعتريها النقص والعجز، فأنتم مخلوقين، بينما الله تعالى هو الخالق المدبر الملك المتصرف كيف يشاء، على الوجه الذي يشاء سبحانه وتعالى، فإن لله سبحانه وتعالى علم الغيب، وكمال القدرة. وفي هذا إنذار وتحذير بعد البيان وضرب الأمثال السابقة.

ثم ينتقل البيان العظيم في تدرج توجيهي عظيم إلى الاستدلال على قدرته عَزَّ وجل في خاصة هذا الإنسان، من الإيجاد والخلق، وما مَكَّنَهُ فيه من القدرات، وما زوده به من الحواس، وما يلزم هذا الإنسان من شكر الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ فبدأ البيان بما يعرفه كل أحد من الناس، وهي عملية خروج الجنين من بطن أمه ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ وفي هذا لفت الانتباه إلى شأن خروج الجنين من بطن أمه، وما هو فيه من صفة الضعف الجسمي والإدراكي، والجهل المعرفي، والعجز في التصرف، حتى عن تغذية نفسه ﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ فانتفى عن هذا الجنين العلم تماماً، وقد أكد خلو هذا الإنسان من العلم بنفي كلمة الشيء من العلم ﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ والتي استقصت نفي جميع المعرفة. وعلى هذا يجب على الإنسان أن يتدبر مبدأ حال نفسه من الجهل.

ومن دقائق الأسلوب ومقاصده الكريمة أن الله تعالى افتتح الآية الكريمة بلفظ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ فهو الذي أوجدكم سبحانه وتعالى، بما يفيد أنه ليس لكم في ذلك اختيار، فهو الذي أخرجكم، فقصر وحصر خلق وإخراج هذا الإنسان من بطن أمه له وحده لا شريك له، متصدراً لفظ

الجلالة لفعل الإخراج ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم ﴾ وهذا أبلغ وأفصح في هذا المقام، لأنه أفاد الحصر والقصر على أن ما بعده محصور في إبداع لله تعالى فقط، سواء ما كان من الخلق والإيجاد، وتشكيل الهيئة، أو ما زوده به من نعمة السمع والبصر والأفئدة وغيرها من القدرات ومكونات الإنسان، ليقررهم بمضمون هذا السياق الكريم بما لا يستطيعون نفيه، من أنهم مخلوقين بعناية دقيقة من الخالق سبحانه وتعالى، الذي أوجدك أيها الإنسان، وبما يلزمهم من الإقرار بالتفكير والتأمل، من أنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولا أنهم أخرجوا أنفسهم من بطون أمهاتهم، ولا أوجدوا أنفسهم، ولا وُجِدُوا من غير مُوجِدٍ لهم، فليس أمام العبد إلا الإقرار بأن الله تعالى هو الذي خلقه، فأكرمه بالوجود، وزوده بالسمع والبصر والفؤاد. وعَيَّن لهم مكانهم الذي مكثوا فيه مدة الحمل ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ ﴾ فكنتم في بطون الأمهات، لا تعرفون ولا تُدركون شيئاً، فقد كنتم ضعفاء غير قادرين على شيء، ثم ها أنتم مُكَلَّفُون، مُزَوَّدُون بالحواس التي تمكنكم من التفاعل مع المحسوسات، فكان عدد الحواس بحسب عدد المحسوسات، فمن دَبَّر هذا. إنه الله تبارك وتعالى.

ثم لفت تبارك وتعالى الانتباه إلى بعض مما أنعم به على هذا الإنسان، بما زوده به من الحواس التي تعينه على كسب المعرفة والعلم، والتجاوب والتفاعل والأداء ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ فزودك أيها الإنسان بحاسة السمع ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ ﴾ الذي ترصدون به ما تتعلمون به من المنطوق الصوتي. فتتعلمون وتعلمون وتتعرفون بها على المسموعات من الأصوات، وفي هذا لفة الانتباه للعلاقة بين الحاسة وما خُلِقت له، ليحدث التأمل الذهني، وإدراك قوة العلاقة بين الحاجة البشرية لهذه الآلة وبين ما يُعرَف بالصوت، من الصوتيات بأنواعها، كالمنطوق، وغيره من الأداء، وسواء مما يحذر منه، أو ما يطلبه ويرومه، أو ما يحدث من غيره من التعبير اللفظي الذي لا يُسمع ولا يُعرف إلا بهذه الآلة العظيمة التي تُجسد نعمة الله تعالى في هذا الإنسان، ولتكون آية قائمة بذاتها لمن تدبر وتفكر وتأمل، والتي لا يستطيع أن يُغطِّي ولا يُعطي حق هذه النعمة مهما صنع من الشكر والطاعة، فكيف ببقية النِّعَم التي لو حُرِم منها لعرف قدرها وفضلها.

ثم يلفت تبارك وتعالى الانتباه إلى نعمة البصر ﴿ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ وهي حاسة النظر التي يرى بها الإنسان الأشياء، فمن خلال حدود إطار هذه الحاسة يستجمع الناظر ما هو أمامه من الموجودات، مهما بَعُدت عنه وتكاثرت، طالما هي في إطار القدرة والبعد الممكن للإنسان، فيرى بها آيات الله تعالى المبثوثة في الكون. وبهذه الحواس ينتقل الإنسان من طور إلى طور في درجات التعليم. فهي الحاسة التي يعرف بها الأحجام والأشكال والألوان، وجمال الأشياء، ووسعها، ويبصر بها طريق المسير، كما يبصر بالقلب طريق الحق والخير.

ثم يذكر تبارك وتعالى نعمة ﴿ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ﴾ وهو القلب الذي يعقل به الأشياء، وهو محل التفاعل مع الأشياء بعد إدراكها بحاسة السمع وحاسة البصر، وبقية الحواس. لأن مركز العقل هو القلب، كما قال به جمع من العلماء، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والأفئدة هي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء، ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج، قليلاً قليلاً، كلما كبر زِيد في سمعه وبصره وعقله، حتى يبلغ أشده[1] فالعقل هو مركز تحليل ما يأتي عن الحواس، ليصدر التوجه من خلاله، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[2] والعلاقة بين الدماغ والقلب هي علاقة تواصل، فالدماغ مخزن للملكات، كملكة الحفظ والتذكر، وغيرها، والقلب هو الذي يعقل به الإنسان الأشياء، وهو محطة الارتكاز، وهو مجمع العواطف والقرارات.

ثم يبين تبارك وتعالى ما يجب على الإنسان تجاه هذه النعم العظيمة، من خلال أسلوب الحث والاستدعاء الذي يحمل دلالة ما يجب على الإنسان لخالقه تجاه هذه النعم الجليلة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ فمنفعة هذا الشكر عائدة لمن شكر ربَّه تبارك وتعالى، فإنه لا نفع لله عَزَّ وجل فيه، فهو الغني عن عباده، وعن أفعالهم وأقوالهم وشكرهم. وفي دلالة ﴿لَعَلَّكُمۡ ﴾ توجيه لهذا الإنسان بأسلوب الحث والترغيب لما هو جدير بأن يقوم به لربه تبارك وتعالى، تجاه هذه النعم العظيمة، والتي منها نعمة السمع والبصر والفؤاد. وفيها حمل الْمُخَاطَب على أن يشفق على نفسه فيقابل النعمة بالشكر والامتثال لله تعالى بالإيمان والطاعة التي هي من أقوى علامة وصور الشكر العملية، وذلك امتثالاً لما سبقها من آيات الحجج والبراهين، وما أنعم الله تعالى به عليه من الحواس التي يدرك بها المحسوسات. كما أن ﴿لَعَلَّكُمۡ ﴾ تفيد المتوقع منكم تجاه هذا الإنعام العظيم، فتعطي أن المتوقع منكم بعد هذا الإنعام أن تشكروا الله تعالى. وهي تفيد التعليل، فهذا الإنعام يعلل لكم وجوب الشكر، وصرفه للمُنْعِم الذي أنعم عليكم بها. وهي تفيد الترجي، أي ترجي العبد ثواب شكره لله تعالى. فهو أسلوب بديع من الله تعالى في تربية الإنسان، وتوجيهه لما يجب عليه، من خلال استثارة عقله ومشاعره نحو الفهم، ونحو القيام بما يجب عليه.

ومن فوائد المعاني أن الله تعالى أفرد السمع، بينما جمع البصر والفؤاد ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ والمتأمل يجد عمق المعاني وعمق الدلالات التي يحملها هذا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٦٠٠-٦٠١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١/٣٤) برقم (٥٢)

السياق، فمن حيث اللغة: أن السمع مصدر، والمصدر لا يُجمع، أما الأبصار فاسم، ويُجمع، ليتحقق بذلك فوائد من هذا التباين بين الإفراد والجمع، ليدل هذا على التغاير بينهما في التحكم وفي الاستعمال، فالسمع حاسة لا يستطيع الإنسان أن يختار أو يمنع ما يسمع تلقائياً، فكأن السمع آلة واحدة، فلا يسمع بها تفاصيل الأصوات إذا اختلطت على السامع، فإن تداخل الأصوات يمنع السامع من توجيه السمع لأحد هذه الأصوات دون غيرها من الأصوات، فيفرده بالاستماع دون غيره، وبالتالي أصبح السمع كأنه آلة واحدة مفردة. بينما البصر يستطيع أن يحركه يمنة ويسرة، ويستطيع أن يحدق بعينه في شيء معين دون غيره، ويتنقل به بين المرئيات، فينظر به هنا وهناك. وكذلك الأفئدة، يستطيع أن ينشغل بأمر، وينتقل إلى أمر آخر، وثالث ورابع، ثم يعود للأول، أو الثالث، أو الثاني، وقد يربط بين بعضها، وقد يُقصي منها ما يريد، فلسعة مساحة استيعابها كانت في السياق على سبيل الجمع.

ويتدرج السياق الكريم إلى لفت الانتباه بما يستثر قدرات التأمل والتفكر في بديع وإبداع صنع الله تعالى، ابتداء من شأن الإنسان في ولادته، وما زوده به من الحواس، إلى أن ينتقل به إلى ما يبصره ويشاهده ببصره في السماء من الطيور عند تحليقها دون أن تسقط على الأرض ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فبدأ سياق الآية الكريمة بسؤال استنكار عن ذهول عقولهم عن الطيور التي تُحَلِّق في السماء، وهي ترفرف بأجنحتها ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ فهو استفهام توقف وتدبر، فأين عقولهم عن هذا التسخير الذي يرونه بأبصارهم، وهي ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ أي: مذللات بما خلق الله تعالى لها من الأجنحة والذيل، فتحلق في أجواء السماء ﴿مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ وما ألهمها من بسط ورفع الأجنحة، مع تحريك الذيل عند الالتفاف ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في الفضاء المملوء بالهواء المتحرك فوق الأرض وتحت السماء، ونسب سبحانه وتعالى الطيران إلى السماء، باعتبار العلو والارتفاع، لأنه كلما ارتفع الشيء فقد سما، وفيه كذلك بيان للعلو والارتفاع، ولفت الانتباه إلى عملية الصعود، والطيران في ذلك الارتفاع والعلو الشاهق، والذي ربما عاكست الرياح اتجاه طيرانها، فألهمها تبارك وتعالى تحريك جناحيها بالقبض والبسط، وتحريك ذيلها، لتحلق في علو شاهق من السماء، لِتُدرك أيها الْمُخَاطَب بديع صنع الله تعالى في هذا الطائر المتنوع في أشكاله وأحجامه وألوانه، وهو يتحرك في أجواء السماء بحرية، لا يمنعه أحد عن اتجاهه وعلو ارتفاعه.

ثم يبين تبارك وتعالى علة ثبوت طيرانها في السماء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فما يمسكهن في جوى السماء عن السقوط إلا الله تبارك وتعالى، بتقديره الأسباب التي جعلها في تلك الطيور من الأجنحة والذيل، والقدرة على التقوس، والقدرة على تحريكها، فهي لا تعتمد على شيء في ثقلها أمام لطافة الهواء ورقته، وقوة

حركته. فإن الذي كونها وسخرها، وسخر لها الهواء، وألهمها الطيران وحُسن التعامل معه هو الله تبارك وتعالى، الذي يجب عليكم توحيده وعبادته وحده لا شريك له.

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة بلفت الانتباه إلى التأمل والتدبر الذي يقود إلى استنتاج قوة الله تعالى وقدرته، وبديع صنعه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ فإن في هذا التسخير على هذه الكيفية وهذا النهج، لعلامات وآيات ودلالات وحجج تدل على أن الله تعالى وحده الخالق لهذا الكون البديع، وأنه لا يستحق أن يُعبد إلا هو جَلَّ جلاله، وأنه رَبَّ كل شيء ومالكه، وأن ذلك يدل على عظيم وكمال قدرته الباهرة، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإن أهل الإيمان يُصَدِّقُون بهذه الآيات والبراهين، فيعظمون ربهم تبارك وتعالى، وأما من تجاهل تلك الآيات فهو في منأى عن الإيمان. بما يفيد أهمية التأمل في ملكوت الله تعالى، وما بث فيها من الآيات العظيمة، وأهمية لفت انتباه المتعلم في أماكن التعليم إلى آيات الله تعالى، فإنها قوة وتقوية للإيمان بالله عَزَّ وجل، وفيها العبرة، إذ فهيا الشواهد العظيمة على قدرته الباهرة سبحانه وتعالى. وقد بدأ النص الكريم بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ المؤَكّدة بأن فيما ذكره الله تعالى عن الطير فيه آيات للمؤمنين، بما يفيد أن المشركين غير منتفعين بما يرون من تلك الآيات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ لأن في شأن الطير آيات متعددة، وليست آية واحدة، ففي خلقه آية، وفي اختلافها آية، وفي طيرانها آية، وفي اتخاذها الأعشاش منازل آية، وفي تسخيرها في جو السماء آية، وفي التقاطها الحبوب آية، وفي عنايتها بصغارها آية، وكلما تأملت تفتحت للذهن آيات بعد آيات. وقد قصر سياق الآية الكريمة الانتفاع بهذه الآيات على الأقوام التي تصدق الحق إذا رأته أو سمعته، أو علمت به ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ وأما من كانت صفاتهم الجحود والاستكبار والحسد فإنهم لا ينتفعون بالآيات، لأنهم مستكبرون. مما يبين ويرشد إلى وجوب أن يتفقد الإنسان نفسه، ويبتعد عن موانع الإيمان بالحق.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى تحفيز العقول نحو الحق، من خلال تعداد بعض ما أنعم الله تعالى به على المخاطبين، والتي منها إلهامهم بالهداية والتوفيق إلى ما يعجزون عنه لولا إلهام الله تعالى لهم به ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ فذكر تبارك وتعالى إلهامه لعباده باتخاذ المنازل، والأثاث والتصنيع من جلود الأنعام بيوتاً، بما يدل على كمال لطفه، وكريم صنعه، وتدبيره لهذا الإنسان بأحسن تدبير ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ فمن جملة أحوال الإنسان التي أكرمه الله تعالى بها أن جعل له أسباباً وإفهاماً وإلهاماً، لاتخاذ البيوت سكناً وراحة، فتتحقق له فيها إقامة وراحة

واستقراراً، فإن الله تعالى هو الذي جعل البيوت مصدراً للسكون والراحة، إذ يأوي إليها الإنسان بعد تعبه وجهده، فيشعر بالطمأنينة والسكون وراحة النفس والبال. وليمتنع بها عن الأذى الذي يمكن أن يقع له، سواء من الأصوات، أو من الحركة، ومن الهوام، ومن اللصوص، أو من قوة الهواء، أو من الأمطار وغيرها من المنقصات.

ومن دقة البيان أن تجاوز وتعدى الامتنان من الله تعالى إلى أعمق ما يكون من علل السكن ونتيجته، وهو السكون ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا﴾ أي جعل لكم راحة وطمأنينة نفسية من بيوتكم، وجعل هذه السكينة من الراحة والاستقرار آية قائمة بذاتها. فضلاً عن آية هداية بناء البيوت، إضافة إلى آية تسخير الأسباب لبنائها وإنشائها، سواء من الطين والرمل، والماء، والخشب، أو بما تطورت به الأسباب والإمكانات بفضل الله تعالى، حتى أصبحت أبراجاً عالية البناء. فالذي هيأ هذه الأسباب والأفكار لاتخاذها هو الله الذي خلق الإنسان لعبادته وطاعته، فجميعها آيات لمن تدبرها وتأملها، إذ يهتدي بها العباد إلى ربهم وخالقهم، الذي أنعم عليهم بما أنعم من النعم التي لا تُعد، والإحسان الذي لا يُحَد. وكذلك من غزارة البيان أن ورد اسم البيت بصيغة الجمع ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾ لتشمل التعدد، والتنوع، سواء كان بيتاً واحداً، أو بيوتاً متعددة، وكذلك لتشمل تنوعها حاضراً ومستقبلاً، من الوسع، والأشكال، والأحجام، وغير ذلك مما يشمله الجمع. وهذه غزارة وعمق بياني دقيق، ليتلاءم مع الأحوال والوسع والإمكانات، وهو إعجاز بياني عظيم في أبعاد مقاصد البيان، ورحابة دلالاته. فسبحان الله العظيم.

ومن دقائق البيان وجمال السياق ودقته أن تصدر لفظ الجلالة هذا البيان ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا﴾ فقد أفاد الحصر والقصر على أن ما بعده هو محصور في تدبير لله تعالى فقط، من إلهامكم بناء المساكن، وإيجاد وتيسير أسباب إقامتها، ومنها اتخاذ جلود الأنعام، وأصوافها وأوبارها وأشعارها، ليقررهم السياق الكريم بهذه النعمة الجليلة التي لا يستطيعون نفيها، وما يلزمهم من التفكير والتأمل، من أنهم لم يهتدوا لذلك لولا أن هداهم الله تعالى، وسخر لهم الأسباب، فليس أمام العبد إلا الإقرار بأن الله تعالى هو الذي دبرهم وهداهم، فأكرمهم بهذا التسخير والتمكين، وزودهم بالعلل والأسباب التي تحقق لهم منافعهم.

ثم يتدرج البيان من العام إلى الخاص، فينتقل في تدرج دقيق من عموم البيوت إلى النوع المخصوص بالتنقل من أنواع البيوت التي أصلها من الشَّعَر، لما فيه من إمكانية الحركة والسهولة في التنقل بها من مكان لآخر، بحسب تغير أحوال الإنسان وتبدل حاجته ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا﴾ فجعل لكم من جلود الأنعام ما تتخذون منه بيوتاً تسكنونها، كالتي تُسمى بيوت الشعر، المصنوعة من شعر الأغنام، ثم أوضح سبحانه وتعالى مميزاتها ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ فهي متميزة بالخفة، وسهولة

التوثيق والتثبيت، والفك والتركيب والحل والربط، والحمل ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ أي: حال انتقالكم من موضع إلى موضع، فيتنقل بها أهل البادية من مكان لآخر، بحسب حاجتهم للتنقل والترحال ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي: حين تقيمون في المكان الذي تقصدونه، وعينتموه وأردتموه. ثم تدرج سبحانه وتعالى في البيان إلى نعمة أخرى، وهي: الأثاث ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ فالأصواف ما يُتخذ من الغنم، والأوبار ما يُتخذ من الإبل، والأشعار ما يُتخذ من المعز، وهي من جملة الغنم، فيتخذون منها ﴿أَثَٰثًا﴾ وهو متاع البيت. وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى: أن هذه الثلاث على وجه التنويع، فكل واحد منها لواحد من الثلاثة الأصناف التي هي الأبل ونوعي الغنم، والأثاث ﴿أَثَٰثًا﴾ هو متاع البيت، وأصله الكثرة والاجتماع، ومنه شعر أثيث، أي: كثير مجتمع، قال الخليل: أي: منضماً بعضه إلى بعض ﴿وَمَتَٰعًا﴾ والمتاع ما يتمتع به بأنواع التمتع. ومعنى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى أن تقضوا أوطاركم منه، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى الموت، أو إلى القيامة[١]

وفي جملة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ تنويه إلى أن هذا المتاع مهما كان موغلاً في الاستمتاع والجودة فإنه ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى وقت محدود، لينتهي، ولتنتهي به الحياة. فإنه ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ فإنها جملة بليغة في مرادها، وفي استثارتها للعقل بالتفكر والتدبر. فتسكن فيه ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتنتقل به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتستعمله ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتتركه ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وقد تغادره ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ ثم تعود إليه ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إنها جملة بليغة في تحديد زمن للاستعمال.

ومن دقة وسعة البيان ورحابته، واستيعابه أن كلمة ﴿أَثَٰثًا﴾ تستوعب كل أنواع أثاث البيت، الذي يتم اتخاذه من تلك الأنعام، سواء من الفرش، والأغطية واللحف، أو ما يتوسد عليه الناس، وما يتكئون عليه. بينما كلمة ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أعم من الأثاث، لتستوعب ما زاد عن الأثاث، مما يترفه به الإنسان، ويزيد عن ذلك ما يتمتع به من الشرب والأكل والتجارة به، كشرب ألبانها، واستخراج سمنها، وأكل لحومها، وبيع منتوجاتها. فتأمل أيها الإنسان هذه النعم من الأسباب التي تحقق المراد، وتسد حاجة الإنسان، واقتران وجودها بمقدار الحاجة لها، مع إلهام وهداية الإنسان للانتفاع بها. أليس الذي أوجدها بهذه الكيفية، مع اقترانها بحاجة هذا

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٨٤/٣)

الإنسان هو المبدع الخالق سبحانه وتعالى. أليس هو الله عَزَّ وجل، فهل هناك مصدر لها ومُوجِد لها غير الله تعالى، مما يلزمك أيها الإنسان الإيمان به عَزَّ وجل، وعبادته وحده لا شريك له، والامتثال له جَلَّ جلاله، وطاعة ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل البيان في تدرج بديع من الامتنان بما أنعم به سبحانه وتعالى من تحصيل الاستقرار والسكينة بالبيوت إلى نعمة التدبير والتهيئة والتصنيع ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ فبدأت الآية الكريمة بشد انتباه الْمُخَاطَبين إلى مجموعة من حقائق الخلق التي تدل على انفراد الله تعالى بتحقيقها، وأكدها سبحانه وتعالى بحصر وقصر إيجادها على ذاته الكريمة، بتقديم لفظ الجلالة ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ على الفعل ﴿ جَعَلَ ﴾ والذي يعني الخلق والإيجاد، وعَيَّن وحدد الظلال، والأَكنان والسرابيل وعموم النعمة أنها منه عَزَّ في علاه ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ﴾ وهو امتنان من الله تعالى بهذه النعم العظيمة، التي هي محل تفكر وتأمل، ليخرج منها المخاطَب بأن الله تعالى هو الذي خالق، وهو رب كل شيء ومالكه، وأنه لا شريك له في ملكه، ولا شريك له في عبادته، وأن هذه الآيات، وسياق الآيات فيها ما يثبت لكم أيها العباد أنه من عند الله عَزَّ وجل، فواجبكم طاعته، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والامتثال لما أمر، والانتهاء عما نهى.

فإن الله تعالى ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾ فإن ربكم الله عَزَّ وجل وحده لا شريك له جعل لكم مما خلق من الأشجار والجبال، والأجسام الثابتة ظلالاً، بل حتى أنه سبحانه وتعالى جعل مما خلق من المتحركات ظلالاً متحركة معها، كالدواب وغيرها، فيتحرك الظل من موضع إلى موضع. وكذلك حركة ظل الثوابت بحركة الشمس، فأول النهار على صورة واتجاه في تمددها، ثم يتقلص، حتى يصير ظل كل شيء تحته، ثم يتمدد في الاتجاه الآخر إلى أن يغيب وينتهي بحلول الظلام عليه، وورد الظل بصيغة الجمع ﴿ ظِلَٰلًا ﴾ لأن مفرده ظل. للدلالة على الكثرة، أي: كثرة الظلال، حتى أنها من كثرتها ملفتة للنظر، والفكر.

ومن دقة البيان: التبعيض بحرف ﴿ مِّمَّا ﴾ أي: بأن جعل الظلال شيئاً مما خلق ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾ ليس في كل ما خلق ظلالا، وهذه من دقائق البيان الاحترازية، وإعجازه العظيم، فإن بعض المخلوقات ليس لها ظلال، كالبحار، والأنهار، وكل ممتد ملاصق للأرض ومفترش عليها من النباتات، وغيرها من بعض المخلوقات.

ثم ينتقل البيان إلى نعمة أخرى، وهي نعمة ما جعل عَزَّ وجل في الجبال من الكهوف ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ وهي الكهوف، والغيران، وما يستتر به الإنسان في الجبال من الشمس، ومن الهواء، والمطر. ومن دقة البيان التبعيض ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ فليس في كل الجبال كهوفاً وغيراناً، بل في بعضها، ولكنها غالبة في كثير من الجبال، فهي نعمة من الله تعالى، يتوقى فيها الإنسان عن الأمطار، وشدة البرد، وشدة الحر عند سفره وترحاله، بل ويتوقى بها عن بطش العدو، فيأوي إليها لحاجته وضرورته، فمن هيأ له هذه الكهوف وسط الجبال؟ وجعلها كما يحتاج إليها. إنها دلالات وآيات على عظيم هذا الخالق تبارك وتعالى، وعظيم ودقة ما خلق. بل وفيها تلازم بين حاجة الإنسان للمأوى، ووجودها في حِلِّهِ وترحاله.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى نعمة أخرى، وهي ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ فمن نعم الله تعالى أن جعل لكم من الألبسة كالأقمصة والثياب ما يقي الإنسان به جسده من الحر، ويفهم منه كذلك أن هناك ألبسة من الثياب تقي من البرد، من غير حاجة لإعادة ذكرها، فدلالة المنطوق تعطي دلالة المفهوم، وهذا من بلاغة البيان. ثم يذكر تبارك وتعالى نعمة أخرى في وجه آخر ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ وأخرى من السرابيل التي هي الدروع والألبسة ما يقي بها الإنسان الطعن والضرب في الحروب، وسمى الله تعالى ذلك بالبأس، لما فيه من الشدة والغلظة، ونسبها للإنسان ﴿بَأْسَكُمْ﴾ لأنها من أفعال الإنسان، ولا بد أن يكون منطلق أحد الطرفين في الحرب باطلاً، والآخر مدافعاً. وهذه نعمة من الله تعالى أن هيأ فكر الإنسان لصناعة ما يتوقى به، فإن الله تعالى هو المعطي والهادي للخير والحق، وهناك من يستخدم النعمة للشر.

ثم يُذَكِّر الله تعالى بأن هذا الإنعام منه عَزَّ وجل عليكم من أجل أن تُسْلِمُوا له تبارك وتعالى تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فما سبق من اتما وإكمال النعمة عليكم أيها الناس، وتذكيركم بها، وتفصيل حججها عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ليحصل منكم الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والخلوص له من الشرك، والانقياد له بالطاعة، وفق ما جاءكم به رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد ورد الحث على الاستسلام لله تعالى بأسلوب الترغيب إذ أفادت **(لعل)** الحث والترغيب والتحضيض لهم على الاستسلام لله عَزَّ في علاه. وورد الاستسلام بصيغة المضارع المستمر، ليفيد الاستسلام الدائم المستمر؛ الذي لا ينقطع. وقد جمع الله سبحانه وتعالى للإنسان هذه النعم التي لا تحصى ولا تُعد. اللهم وفقنا لشكرك وذكرك بما يرضيك عنا.

ثم يتوجه التوجيه الكريم والخطاب المبين من الله تعالى إلى رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ فإن أعرضوا وأدبروا عن الحق على أعقابهم، فلا تثريب عليك أيها النبي، فإن مهمتك أن تبلغهم ما أُنزِل عليك بلاغاً ظاهراً واضحاً وبيناً، لتكتمل الحجة عليهم. فإنه قد أنعم الله تعالى عليكم من الآيات والبيان ما يحقق لكم الإسلام والطاعة، وفي هذا بيان من أنه ليست من مسؤوليات النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحقق إيمان العباد، وإنما مهمته عليه الصلاة والسلام الإبلاغ والبيان بما أنزل الله تعالى، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومَن ضل فإنما يضل على نفسه. وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، بأن لا تحمل هم من لم يؤمن. مما يتقرر به أهمية تحديد المسؤولية عند التكليف، وألا يُكَلَّف الْمُكَلَّف بما ليس من مقدوره، وأن مهمة الداعية إلى الله تعالى بيان الحق، وهداية الدلالة، وأما هداية التوفيق فهي لله تعالى، فلا يملكها أحد لأحد، غير الدعاء وسؤال الله تعالى ذلك.

وفي البيان ما يدل على أهمية وضع الاحتمالات، إذ لا جزم بما سيكون عليه الأمر والنتيجة، ففي قوله تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ ما يدل على احتمال القبول، واحتمال التولي، وأنه حال التولي، فلا تثريب عليك أيه النبي صلى الله عليه وسلم فيما حصل منهم، وبذلك فإن الإنسان لا يجزم بالنتيجة على أي وجه من الأوجه، لأن في الجزم تعدي، وكذلك لما ينجم عن الجزم في الأمر المتوقع من الآلام النفسية، لمخالفتها ما يجب أن يكون، وما يتوقعه من النتيجة، ولأن السعي في الأمر قد لا يكلل بالمراد، فتأتي النتيجة بخلاف المتوقع. فبالرغم من قوة الحجج إلا أن هناك من يعاند ويكابر. وبالرغم من عِلم الله تعالى بما سيكون منهم قبل أن يكون إلا أنه عَزَّ وجل أجرى الخطاب مجرى واقع الإنسان. ليتعلم هذا الإنسان من كل ما يحتويه القرآن العظيم، وما يمكن أن يستنتجه من السياق والبيان، فإنه كتاب علم وحكمة وإعجاز، وإنه من لدن حكيم عزيز.

وفيه كذلك بيان لمهمة النبي صلى الله عليه وسلم، ومهمة الداعية والمصلح، بأنها في البلاغ المتصف بالواضح المبين ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ وهو الواضح والظاهر بالحق، مما يفيد أن الحق في هذا الدين واضح، لا لبس فيه، وأن على من تولى شأن الدعوة إلى الله تعالى بأن يتحلى بالعلم الذي يُمَكِّنُه من تجلية جهل الجاهلين، ويوضح لهم آيات الدين وحججه وبراهينه، فيقيم الحجة عليهم.

ثم يُعَقِّبُ اللهُ تعالى على شأن من تولى عن الحق، ولم يدخل في الإسلام، فيكشف بأن توليهم وامتناعهم ليس من قصور في الحجج والبراهين، والأدلة والبيان، بل عن نكران جحود، بعد أن حصلت لهم المعرفة التامة لها، ولكنهم يجحدون وينكرون ما جاءهم من الحق ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ فَيُثبِتُ اللهُ تعالى علم الكافرين بنعمة الله تعالى التي أنعم بها عليهم ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ وسواء ما كان من تلك النعم في أنفسهم من الخلق والإيجاد، ومن تفاصيلها كالسمع

والأبصار والأفئدة، أو مما سخره لهم من الأنعام والظلال والزروع، والأمطار، وما جعل في خلقه من الآيات كالنحل وغيرها مما ذكره الله تعالى، وما جاء به الأنبياء من الحجج والآيات الظاهرات البينات ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ثم بعد تحقق معرفتها منهم لها ينكرونها، ويجحدون بها، وهذا من قوة الكفر والتمادي في الباطل.

ومن دقائق البيان وغزارة عمقه أن رتب الله تعالى الإنكار بعد المعرفة بأداة الترتيب ﴿ثُمَّ﴾ والتي أفادت ترتيب واقع حالهم، بأنه حصل لهم العلم بإنعام الله تعالى عليهم، وبنعمه الكثيرة العظيمة الدالة على وحدانية وربوبية الله تعالى، ثم بعد أن حصل لهم العلم ينكرونها ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ فإنكارهم إنكار جحود وتعدي، لا إنكار جهل بها ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فأكثر هؤلاء المعاندين لم يُسلموا، بل تحقق فيهم الكفر لتماديهم. وفي تعيين أكثرهم بالكفر، ما يفيد أن القليل منهم دخل في الإسلام. وهذا من غزارة البيان من غير تكرار.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا
رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا
شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ
إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧)
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)
وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا
عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾

بعد إقامة الحجة، وتحرير موقف الكافرين بدقة متناهية، ينتقل السياق الكريم إلى بيان حال الكافرين المعاندين الذين جحدوا الحجج والآيات العظيمة، بما يفيد الوعيد والتهديد لهم ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وأخبِرهُم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بيوم القيامة، ذلك اليوم الذي نبعث فيه من كل أمة برسولها، فيشهد على من آمن وعلى من كفر، ثم لا يؤذن للكافرين بالاعتذار عما كان منهم من الكفر والعصيان، ولا يُطلب منهم إرضاء ربهم بالتوبة.

وقد جاء الوعيد والتهديد لهم بيوم القيامة من خلال مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك إيماء إلى الإعراض عنهم، وأنه لا جدوى من مخاطبتهم. فاذكر أيها النبي يوم البعث، يوم نبعثهم على ما وقعوا فيه من الكفر ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ وشهيد كل أمة نبيها، فيشهد عليهم بما كان منهم، فيشهد لمن آمن بالإيمان، ولمن كفر بالكفر والجحود والتكذيب ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ فلا يؤذن للذين كفرا بالاعتذار عن كفرهم وجحودهم، ليُؤخذ منهم، ويُرَدُّ عليهم فيما اعتذروا فيه، فإنه مجرد الإذن والسماح لهم، لا يجدونه ذلك البوم. لأنهم ذلك الوقت لا يملكون فسحة ولا مجالاً للاعتذار، وإنما هو حساب وجزاء. إذ يُعطي قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ دلالة الطرد، والإبعاد عن تحصيل الإذن والسماح لهم بالاعتذار، فإنه يوم خزي وندامة عليهم، بل ومن شدة الإبعاد أنهم يُبْعَدُون عن الاستعتاب ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ فلا يُطلب منهم العتبى، التي هي الاسترضاء، فلا يُطلب منهم أن يُرضُوا ربهم تبارك وتعالى، إذ ليس الوقت ذاك هو وقت اعتذار وتراجع عن الكفر والجحود، فليس لهم الحق في الاعتذار، ولا حتى أن يُطلب منهم أن يلتمسوا رضى الله تعالى ذلك الوقت، فقد انقطع العمل، ووقع الحساب والجزاء، وفي هذا إقناط لهم، وإخبار لهم بما سيكون عليه حالهم يوم القيامة. ومع كل هذا البيان والتفصيل لما سيكون عليه أمرهم يوم البعث والنشور، إلا أن أكثرهم مستمر على الكفر والجحود. فلم يحرك هذا الإخبار والإنذار مشاعر الخوف فيما يؤول إليه أمرهم من العذاب الشديد. فقد قست قلوبهم.

ومن جميل دقائق البيان عطف الخاص على العام ليفيد تأكيد اليأس القنوط لهم، فقد عطف البيان الكريم ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ على ما هو أعم، وهو ﴿ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ليفيد المبالغة في قطع الرجاء من أن يكون هناك أمل لهم في تحقيق الطاعة والامتثال لله تعالى، عندما يعاينون لأهوال يوم البعث. وقد ورد البيان بصيغة الفعل الذي لم يُذكر فاعله ﴿ لَا يُؤْذَنُ ﴾ وكذلك العُتْبَى ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ لزيادة التهويل. فقد حصل لهم العلم بذلك، والعلم بمن قضى به، وهو الله سبحانه وتعالى، ولكن كيف سيكون ذلك المنع، فهو مبني للمجهول، لزيادة تهويل ذلك الموقف، الذي لا حيلة لهم فيه، ولا إرادة، ولا قدرة على توقيه، حتى بالاعتذار والندم، ليتأكد لهم أن عليهم بسعة ما هم فيه من الدنيا، وأن يتداركوا أمرهم، وأما الآخرة فليس فيها إلا الحساب والجزاء. ومن أغراض عدم تسمية الفاعل هنا لإفادة شموليته، لعموم الكافرين، فلا يمنحون جميعاً الإذن من الله تعالى، ولا يجدون جميعاً مقاماً للاستعتاب. كما أفاد تجاهل ذكر الفاعل تهويل الموقف، فهل الملائكة هي التي تمنعهم؟ أو هل يُختم عليهم؟ أو ذهولهم من شدة الموقف؟ أو يطمس الله على قلوبهم؟، فلا يعرف الْمُخاطب كيف سيكون ذلك، ليزداد ذهولاً وخيفة وترهيباً، وليظل في حيرة وارتباك،

وليكون في محل تجاهل واستصغار، فكما تجاهلوا آيات الله تعالى تم تجهيلهم بتفاصيل الموقف، فإن المهم أن يعرفوا ما سيكونون عليه، وأما تفاصيل ذلك فسيعرفونها يوم القيامة معاينة ومعايشة لها.

ثم يكشف الله تعالى للكافرين حالهم يوم الجزاء ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي: إذا رأى الذين كفروا العذاب الذي يستحقونه بكفرهم، وهو عذاب جهنم وبئس المصير، فلا يحصل لهم شيء من تخفيف العذاب، بل يستوفونه بكماله، ولا هم يُمْهَلُون، ويُعطَون فرصة ليتوبوا، ويعتذروا، فقد تقطعت بهم الأسباب، وحل بهم العذاب الواقع بهم.

ثم ينتقل البيان إلى الإخبار بصورة المشركين وحالهم عند رؤية من أشركوهم مع الله تعالى ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فإذا أبصر المشركون آلهتهم التي أشركوها مع الله تعالى في العبادة ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ﴾ أي: هؤلاء شركاؤنا الذين كنا نعبدهم من دونك ﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فتنطق تلك الآلهة بقدرة الله تعالى، فتُكذّبهم، بأنكم أيها المشركون لكاذبون حين جعلتمونا شركاء لله تعالى، وعبدتمونا معه، فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا وادَّعينا استحقاق الألوهية والعبادة لنا من دون الله تعالى، فإن اللوم واقع عليكم بما فعلتم، وليس علينا منه استحقاق.

ومن دقائق تصوير الحال أن هذه الآلهة التي زعموا أنها تقربهم إلى الله زلفا قد بادرت بسرعة في الرد عليهم، لأن حرف الفاء المقترن بفعل الإلقاء ﴿ فَأَلْقَوْاْ ﴾ أفاد المبادرة وسرعة المتابعة في تكذيب قول المشركين وزعمهم. ومن عظيم قدرة الله تعالى أن أنطق تلك المعبودات التي عُبِدَت من دونه جَلَّ جلاله، واختصروا ردهم في جملة واحدة ﴿ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فردت عليهم جميع ما كانوا يَدَّعُونَهُ لتلك الآلهة. وفي هذا البيان غاية الحجة على المشركين، بتصوير الموقف يوم العرض والحساب تصويراً دقيقاً وواضحاً وبليغاً، فلا يسعهم إلا التأمل والتفكير فيه، والاستسلام في الدنيا قبل استسلام الذل والمهانة والعار، مع العذاب المقيم في الآخرة. وحين ذلك يستسلم المشركون للأمر الواقع ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي: فأظهر المشركون ﴿ ٱلسَّلَمَ ﴾ وهو الخضوع والتذلل والاستسلام حين ذلك، مع ترك الجدال والعناد والتطاول بالجحود والتكذيب، فاستوعبت دلالة لفظة ﴿ ٱلسَّلَمَ ﴾ كافة جوانب الخضوع

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ فغاب عنهم ما كانوا يخترعون ويختلقون من الباطل والأكاذيب، والتي منها شفاعة آلهتهم لهم.

ويزداد البيان بياناً عن شدة عذاب الكافرين في الآخرة، فيقول الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ فالذين كفروا، ولم يكتفوا بالكفر، بل سعو في صد الناس عن الإسلام، ونَفَّرُوهم عن دين الله تعالى بتشويه الدين، والكذب على الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ فزادهم الله عذاباً فوق عذاب كفرهم، لقاء صدهم للناس عن دين الله تعالى ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ بما كان يحصل منهم من الإفساد، بإضلال الناس وبتزيين الكفر لهم، وتشويه الإسلام، واختلاق الكذب، والافتراء على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن عدل الله تعالى أن المضاعفة جاءت بسبب ما زادوا به عن الكفر. فقد جمع هؤلاء بين الكفر بدين الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وبين إضلال الناس عن دين الله تعالى ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فجاء العذاب مضاعف. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: إنما نُكِّر العذاب الأول ﴿زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا﴾ لأنه نوع خاص لقوم بأعيانهم، وعُرِّف العذاب الثاني ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ لأنه العذاب الذي يُعَذَّبُ به أكثر أهل النار[1] فعذاب الكفر معروف لكثرة بيانه من الله تعالى، ومن رسوله صلى الله عليه وسلم، فجاء مُعَرَّفاً. وأما عذاب صدهم للناس فهو نكرة لأنه أشد، فقد تجاوزوا به أنفسهم إلى غيرهم، فجمعوا مع ظُلم أنفسهم ظلم غيرهم، مع محاربة دين الله تعالى، فاستحقوا عذاباً لا يخطر ببالهم. فورد التنكير لمزيد من التهويل، والتعظيم والتحذير، مما يفيد عدل الله تعالى حتى في العذاب. ومن جميل البيان أن سَمَّى اللهُ تعالى دينه ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الطريق الموصل إليه وإلى رضاه تبارك وتعالى ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والسبيل هو الطريق، بما يعني أن دين الإسلام هو الطريق الوحيد الذي يوصل العبد إلى مرضاة ربه عَزَّ وجل، وإنعامه للعبد في الدنيا والآخرة.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٥١/٤)

وبعد أن ذكر عَزَّ وجل مشهد يوم الحساب فيما سبق، يؤكده تبارك وتعالى مرة أخرى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ وجاء الوعيد والتهديد لهم بيوم القيامة من خلال مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ أيها النبي ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وفي ذلك إيماء إلى الإعراض عنهم، وأنه لا جدوى من مخاطبتهم. فاذكر أيها النبي يوم البعث، يوم نبعثهم على ما وقعوا فيه من الكفر ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ذلك اليوم الذي يشهد على كل أمة نبي منهم، وهو النبي الذي أُرسل إليهم، وذلك إتماماً ووفاء للحجة، فيعرفونه حق المعرفة لأنه منهم، فلا مجال لإنكاره، ولا لإنكار شهادته لمن آمن منهم، وعلى من كفر، وصد عن سبيل الله تعالى. وشهيد كل أمة نبيها، فيشهد عليهم بما كان منهم، فيشهد لمن آمن بالإيمان، ولمن كفر بالكفر والجحود والتكذيب.

ثم يخص اللهُ تبارك وتعالى شهادة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على أمته بالذكر، إفراداً لها عن عموم الأمم ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ وجئنا بك أيها النبي محمد صلى الله عليه وسلم على من بُعثت فيهم، لتشهد عليهم بما كان منهم. وفي هذا التخصيص رفع لذكر وشأن النبي عليه الصلاة والسلام، إضافة إلى ذكر الامتنان بالقرآن الكريم الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

فيذكر اللهُ تبارك وتعالى امتنانه بما أنزل من القرآن العظيم على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، وبما تضمنه هذا الكتاب العظيم من البيان، والهداية والرحمة والبشارة لمن آمن ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ فمن عظمة القرآن الكريم ومكانة نبيه صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى وصفه بالنزول عليه ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ وهو القرآن الكريم، ثم أخبر تبارك وتعالى أن هذا القرآن متضمن لمضامين عظيمة القدر، وعالية المنزلة، وأنها آيات إعجاز، فأولها ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ فالقرآن الكريم متضمن بالمعاني والإيضاح لجميع أمور الدين، أو بالإحالة إلى ما يتحقق به العلم، كالإحالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بما يبينه من الحق، وهي السنة النبوية. أو الإحالة إلى إجماع المسلمين، أو

الإحالة لأهل العلم الذين يستنبطون الأحكام والمقاصد. مما يبين أن القرآن الكريم وضع الله تعالى به المنهجية العلمية للوصول إلى الحق، ولما يستجد من أمور الناس وأحوالهم، وهذا إعجاز في منهجية القرآن الكريم، وفي منهجية المعالجة لجميع شؤون العباد.

وأما ثاني هذه المضامين للقرآن العظيم فإنه هادي إلى الحق ﴿وَهُدًى﴾ فيهدي من تأمله وأخذ به إلى الخير والحق والصواب، بأساليب عظيمة، وحجج قوية في بيان الحق، وتحقيق القناعة لمن تأمل وتدبر، وأراد الهدى الذي يسعد به من أخذه في الدنيا والآخرة. وأما ثالث هذه المضامين فإن به تحصل الرحمة لمن تبعه ﴿وَرَحْمَةً﴾ فمن اتبع القرآن وعمل به فإن الله تعالى يحقق له بذلك الثواب العظيم، والنجاة من النار، ودخول الجنة، فيكون له رحمة بذلك في سلوكه وأخلاقه ونفسه وطمأنينته. وأما رابع هذه المضامين فإن القرآن الكريم يحمل البشارة للمسلمين ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فالبشرى خاصة للمسلمين دون غيرهم، لأنهم انتفعوا به، فبشر الله تعالى من أخذ به بالجنة، وحسن العاقبة. ومن دقائق البيان أن هذه المذكورات التي يتضمنها القرآن العظيم، والتي يتحقق بها الخير والسعادة لمن اتبعه، فإنها تمثل الدلالات التي استوعبت الخير كله في الدنيا والآخرة. مما يدل على أن من اعتصم بالقرآن الكريم، واهتدى بهديه فإنه قد سلك مسلك النجاة والخير في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ
وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟
ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا
تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن
تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

بعد بيان وإيضاح الله تعالى لما تضمنه القرآن العظيم من الحق والهدى والرحمة والبشرى للمسلمين، انتقل السياق إلى تفصيل عموم الشريعة الإسلامية، بإيضاح أخلاق الإسلام ومكارمه التي يتمناها كل إنسان أن تسود في مجتمعه الذي يعيش فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تضمنت هذه الآية أصول

أخلاق المجتمع التي يتمناها كل إنسان أن تسود في مجتمعه، والتي هي الركائز والقواعد الأساسية للصلاح البشري، لما تحققه للفرد والمجتمع من الأمن والطمأنينة في جميع أوجه الحياة التي يتعامل ويتفاعل معها. وهذه الركائز الأخلاقية تبين أن هذا الدين يحقق للإنسان ما يتمناه من الخير، وما يصرفه عنه من الشر، سواء على مستوى الفرد أو مستوى المجتمع والجماعات، مهما صَغُرَت أو كَبُرَت. فالآية الكريمة تتضمن ما هو مأمور به، وما هو منهي عنه، وذلك بمحتوى بياني شامل وجامع وكامل، بل وفي غاية الدقة وبلاغة البيان. فهناك ثلاثة أمور مأمور بها، وثلاثة أمور منهي عنها، فالمأمور به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فتصدرت الآية الكريمة بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ لتفيد تأكيد أهمية الاهتمام بمضمون توجيهات الآية الكريمة التي أمر الله تعالى بها، كما أن في التأكيد إظهار لأهمية المأمور به، والحرص على تطبيقه وإنفاذه. وأكدت الآية الكريمة أن الآمر بها هو الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ﴾ لما في ذلك من التعظيم لشأن المأمور به، وليفيد كذلك الوجوب، أي: وجوب العمل بهذه المأمورات، وليعطي المزيد من التعظيم لهذه المأمورات. فالأمر الأول هو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بإقامة الحق، وهو الإنصاف، وعدم الحيف، والتطفيف.

ومن بلاغة البيان، ودقة التوجيه أن دلالة كلمة العدل تستوفي جميع أوجه العدل ومقاماته التي لا حصر لها، لتشمل عموم الحق، سواء ما يخص القضاء والفصل فيه، بأن يكون بالحق والعدل، أو ما يخص انصاف الْمُنْعِم بما أنعم، وأعظمها شهادة ألا إله إلا الله، ليعدل الإنسان من نفسه مع ربه تبارك وتعالى، ولتشمل كذلك العدل بين الظاهر والباطن، باستواء السريرة والعلانية، فيتجرد بالعدل بين الظاهر والباطن، فيتجنب بذلك النفاق، وكذلك العدل في جميع المجالات: مع الأهل، والمهنة، ومع الناس. فإنها كلمة عظيمة في سعتها، وعظيمة في تطبيقها، وعظيمة في نتائجها، وفي خيرها على صاحبها وعلى من يتعامل معهم، لأن فيها العدل والإنصاف من النفس، سواء فيما يخص ذات الفرد، أو ما يخص القول والفعل مع الغير. فتتضمن بذلك قمة الفضائل الخلقية، وقمة البلاغة البيانية، ورفعة منهج الإسلام وعدله، وأن في ذلك دلالة على أن هذا الدين هو دين الله تعالى، وأن هذا القرآن العظيم كما قال عنه سبحانه وتعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وليشمل العدل في الدين بعدم الغلو بالإفراط، وعدم الإخلال بالتفريط.

والأمر الثاني هو: ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ والإحسان مرتبة تتجاوز العدل، لأن الإحسان هو التفضل والزيادة عما يوجبه العدل، وهو ما تجاوز الواجب والفرض. وهو ضد الإساءة، ومن دقائق لفظة الإحسان، أنها تشمل جميع علاقات العبد مع غيره، وأولها: الإحسان في حق الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل عن الإحسان، فقال صلى الله عليه وسلم (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه

يراك)[١] ليدل هذا على أن من الإحسان ما هو واجب، كما في قوله صلى الله عليه وسلم (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته)[٢] قال ابن رجب رحمه الله تعالى: ولفظ الكتابة يقتضي الوجوب عند أكثر الفقهاء والأصوليين خلافاً لبعضهم، وذكر رحمه الله تعالى: أن هذا الحديث نص في وجوب الإحسان، وقد أمر الله تعالى به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وهذا الأمر بالإحسان تارة يكون للوجوب، كالإحسان للوالدين والأرحام بمقدار ما يحصل به البر والصلة، وكذلك الإحسان إلى الضيف بمقدار ما يحصل به قراه، وتارة يكون للندب، كصدقة التطوع ونحوها. وإحسان كل شيء بحسبه، فالإحسان في الإتيان بالواجبات الظاهرة والباطنة، فالإتيان بها على وجه كمال واجباتها، فهذا القدر من الإحسان فيها واجب. وأما الإحسان فيها بإكمال مستحباتها فليس بواجب[٣] فالإحسان في الواجبات هو باستكمال الكمال في الواجب، والإحسان في المستحبات هو استكمال الكمال في المستحب، وفيما عدا الواجب والمستحب فإن الإحسان هو التفضل بالزيادة عما يوجبه العدل، وما تجاوز الواجب والفرض. كالعفو عمن ظلم، وقد يزيد عليه بالتفضل والإكرام، وهو ضد الإساءة. فهو مساحة واسعة في فعل الخير، والامتناع عن الشر، ولا يمكن حد الخير فيها بحد، فكل بحسبه.

ويشمل الإحسان بقية جميع العلاقات: مع الزوج، والأولاد، والجار، والأصدقاء، والأقارب، ومع الخادم والعامل، ومع الحيوان، وفي الطعام والنبات، وفي كل شأن للإحسان فيه شأن. ومن أمثلته: العفو، والصدقة غير الواجبة، والتنازل عن الحقوق، والإحسان في التعامل، حتى أن السريرة عندما تكون أفضل وأحسن من العلانية، فإن ذلك من الإحسان. بل حتى في التعامل مع الحيون كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق ذكره (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته) فإن دلالة الإحسان تستوعب زوائد الفضل مع الخلق، ولها عند الله شأن عظيم، فما خصها وعينها الله تبارك وتعالى بالذكر إلا وهي ذات رفعة ومكانة، وجلال عظيم، وأثر بليغ.

والأمر الثالث هو: المعاملة مع القرابة ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: صلة الأرحام، وقد خصها الله تعالى بالذكر من بين عموم العدل والإحسان، من باب عطف الخاص على العام، وعطف المندوب على الواجب، لبيان أن حقهم آكد، وأنهم أخص من غيرهم، فيما يخص درجة العلاقات الاجتماعية، فإن ذوي القرابة

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣٣/١) برقم (٥٠)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (١٥٤٨/٣) برقم (١٩٥٥)

(٣) ابن رجب، جامع العلوم والحكم (١٤١-١٤٢)

مخصوصون في العلاقات والعدل والإحسان أكثر من غيرهم، تأكيداً وبياناً لأهميتهم، وإثبات علو درجتهم عن غيرهم. بما يفيد وجوب الحرص على التقارب معهم، والإحسان إليهم، فإذا كان العدل واجب، فيكون معهم أوجب، وإذا كان الإحسان مندوب له، فإن الإحسان إليهم أحق بهم من غيرهم إذا كان في الأمر تفاضل. وأسلوب التخصيص بعد العموم يفيد: إظهار ميزة ومكانة الْمُخَصّص عن غيره مما شملهم العموم، وتأكيده وبيان أهميته، والتنبيه عليه، وهذا يبين أهمية منهجية التخصيص لما يستحق التخصيص من العناية والإظهار، وأن من دقائق أساليب القرآن الكريم إظهار الخاص عن العام.مما يعلم المؤمن منهجية ترتيب الأولويات في حياته، وجميع شؤونه.

ثم يقابل سبحانه وتعالى ما أمر به بما نهى عنه، فيقابل الأمر بالفضائل، النهي عن المعاصي، وهذا من جميل البيان، وبديع السياق، ويفيد أن الأمر للوجوب، والنهي للتحريم، ومن بلاغة البيان أيضاً: استجماع النهي للمعاصي جميعها، تحت أصولها المذكورة، بمثل ما أُسْتُجْمِعَت الفضائل في أصولها، فقال تعالى ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فالنهي يقتضي التحريم ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ فهذه الثلاثة أمور منهي عنها. وهي أصول جميع المفاسد المخلة بحياة الفرد والمجتمع، فأولها: النهي عن ﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ والفحشاء ما تناهى قبحها، كالقتل وشرب الخمر والزنا والقذف. هي الصفة المتزايدة في القبح من الأقوال والأفعال. قال السعدي رحمه الله تعالى: هو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا والسرقة، والعجب والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش[1] والثاني هو: النهي عن ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ فهو يعم جميع المعاصي بجميع أنواعها، ويجمعها: ما أنكره الشرع بالنهي عنه. قال السعدي رحمه الله تعالى: ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية تتعلق بحق الله تعالى[2] وحق العباد. وهو الباطل بجميع صوره ودرجاته. والمنكر هو: الباطل، لأن العقول تنكر صحته[3] فالمنكر أعم من الفحشاء، والفحشاء أخص من المنكر، فكل فحشاء منكر، وليس كل منكر فحشاء، فالفحشاء ما تناهى قبحه. وهذا من شمولية التوجيه ودقته، ليستوعب النهي عما تجاوز في الفحش، وعما هو دونه. لإظهار النهي عنه.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧٩/٣)

(٢) المرجع السابق (٧٩/٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٤/٣)

والثالث: النهي عن البغي ﴿ وَٱلۡبَغۡيِ ﴾ هو التعدي على الحقوق، وحقيقة البغي هو تجاوز الحد إلى التعدي عليه، ليدل على جوامع الظلم. فيشمل ما سبق ذكره من الفحش والمنكر، فتخصيصه بالذكر من عموم الفحشاء والمنكر لإبراز قوة خطره على الباغي، وقوة أثره على من بُغي عليه، وما ينجم عنه على الطرفين. وفي بيانه وإظهاره من العموم تأكيداً له ولشناعته، لأنه يحصل نتيجة الطمع، ونتيجة الغضب، فيطمع في حقوق وأملاك غيره، أو استضعاف الضعيف وقهره، أو نتيجة الغضب، فيحصل عن الغضب العنف الذي يتحقق به التعدي والظلم، ومن ذلك المبالغة في مؤاخذة الغير، نتيجة سلطان اليد وقوة الموقف.

وفي هذا ما يفيد أن من أساليب الإيضاح عطف الخاص على العام؛ للبيان والتنبيه، ولفت الذهن للخاص، أو لنفي احتمال متوقع عند الْمُخَاطب؛ بأن العام قد لا يشمل الخاص. وفي ذكر الخاص بيان الاهتمام والحرص بالمخصوص. كما يفيد ذكر الخاص بعد العام على تأكيده، وبيان خطره في هذا السياق، والتنبيه عليه، وهذا يبين منهجية بناء الأساليب الخطابية والتعليمية والتوجيهية، وتحرير الأنظمة واللوائح. وما يلزم فيها من تفنيد المخصوص، والتنبيه عليه من بين العموم الذي قد لا ينتبه إليه الْمُخَاطَب، وأيضاً احترازاً من عدم الفطنة له. فإن أوجه دواعيه كثيرة ومتعددة، بحسب الحال والمقام.

فجمعت هذه الآية الكريمة أصول التشريع والأخلاق، وأصول ما يتحقق به أمن المجتمع، وتتحقق به الأخوة، وما تُصان به الدماء والأعراض والدين والعقل والمال والأنفس في جميع شؤونها. فهي آية إعجاز في الأحكام، وآية إعجاز في الشمولية والاحتواء، وإعجاز في البيان. فجعل الله تعالى مضمونها عظة ﴿ يَعِظُكُمۡ ﴾ فإن الله تعالى يعظكم فيوصيكم بهذه الموعظة العظيمة من كل وجه، بما يُوجب التمسك بها، وإنفاذها وتحقيقها من كل مسلم ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ فلعلكم بهذا الوعظ أن يحصل لكم به التذكر للحق، فتقومون بإنفاذها والقيام بها، وأن تكون عالقة في أذهانكم دائماً وأبداً، فكلما أقدمتم على شيء من ذلك، تذكرتم، فاستجبتم لما أمركم به ونهاكم عنه ربكم سبحانه وتعالى.

وبعد أن أمر الله تعالى عباده بجامع الخير، ونهاهم عن مجامع الشر، انتقل بهم التوجيه الكريم إلى عموم الوفاء بالعهد، وأعظمها الوفاء مع الله تارك وتعالى ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ لقد عطف الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة على ما سبقها، وهي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ وذلك في تعاقب وترابط بديع لمن تأمله، ليشمل الوفاء بالعهد جميع العهود ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾ فأوفوا ﴿ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بميثاق الله تعالى الذي واثقتم به غيركم، فأوجبتم على

أنفسكم حقاً لمن عاقدتموه، وواثقتم عليه، بما يفيد أن لا تخالفوا الأمر الذي تعاقدتم فيه بالأيمان والمواثيق. ومن جميل بيان النص الكريم سعة سلطانه، ورحابة مجاله، وذلك لظاهر عمومه، الذي يشمل كل عهد يقع من الإنسان مع غيره، ولكل جماعة مع غيرها، ولكل دولة مع غيرها، وليشمل المواثيق مع الله تعالى، كعهد البيعة في العقبة الأولى، والثانية، وبيعة الرضوان، وعهد شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغيرها، وليشمل مواثيق البيوع، ومواثيق الدفاع، ومواثيق الحماية، وجميع المواثيق، وسمى تبارك وتعالى تلك العهود ﴿ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ فأضاف العهد له تبارك وتعالى، تعظيماً لهذه العهود، ولأنها معاهدات يستشهد المؤمن عليها ربه تبارك وتعالى بما عاهد عليه غيره، وأنه محاسب على ما استشهد الله تعالى عليه، ولما يترتب عليها من الثقة بخصوص ذلك الميثاق، وبما يعود به على مستقبل الثقة مع الغير، فَيُعرَف ذلك الفرد من الناس بوفائه مع غيره، وتُعرف الجماعة والدولة والحكومة بوفائها، فيصبح ذلك شعاراً لهم، فتتولد عنه الثقة والاطمئنان.

ومن قوة تأكيد الوفاء بالعهد، وتعظيم شأنه أنه ورد بصيغة الأمر ﴿ وَأَوْفُواْ ﴾ وهو أمر يقتضي الوجوب، وتم تأكيده بأداة الشرط ﴿ إِذَا ﴾ فشرط في المعاهدة الوفاء، بأن تُوفُوا بما عاهدتم الله تعالى عليه. ثم يزداد التوكيد بالنهي عن فعل ما يُضاد الوفاء بالمواثيق، وذلك بالتشديد عليها، وتغليظها وتهويلها، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ فلا تخالفوا الأمر الذي تعاقدتم عليه، وشدتم عليه بالأيمان على أنفسكم، فأكدتم شأنها بالمواثيق، ثم يحصل منكم الكذب والحنث، فتنقضوها بعد إبرامها. فتبطلوا ما كانت لأجله الأيمان والمواثيق عموماً، فنقض الأيمان هو إبطال موضوع المحلوف عليه. والنهي يقتضي التحريم، أي: لا تُوقعوا أنفسكم في الحرام بنقضكم المواثيق، خاصة بعد توكيدها بالأيمان، لأن الأيمان لاحقة للتفاوض والتفاهم، وتم تأكيدها بما تم الاتفاق عليه بالأيمان ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ فبعد توثيق ما تعاقدتم عليه، فقد أوجبتم على أنفسكم الوفاء، فلا يحل لكم نقضها. وفي هذا تأكيد وتهويل وتغليظ لمن ينقض المواثيق، مما يدل على منزلة الأيمان ومكانتها، وتحريم نقضها بعدم الوفاء بها، أو الإخلال بشيء منها. وليتأكد بذلك أن منهج الإسلام في تشريعه يؤسس في عباده أعلى مكارم الأخلاق، ويغرس فيهم الثقة، ووجوب إنفاذ ما يتعاهدون ويعاهدون عليه غيرهم، أو بينهم، وبالتالي يجعلهم في مكان الثقة ومركزها ومحلها، بما أوجبوه على أنفسهم لغيرهم.

ومن جميل ودقة الفهم لأهل العلم ما بينه الشوكاني رحمه الله تعالى، من أنه: ليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالأيمان المؤكدة، لا بغيرها مما لا تأكيد فيه من الأيمان، فإن تحريم النقض يتناول الجميع، ولكن في نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذي في نقض ما لم يؤكد منها[1] فاستوعب النص عموم المواثيق، سواء كانت مؤكدة بالأيمان، أو لم تكن مؤكدة بالأيمان، فتحريم النقض واقع على كلا الوجهين. فالمواثيق المؤكدة

(1) الشوكاني، فتح القدير (١٩٠/٣)

بالإيمان إثمها فوق الإثم الذي لم يُوثق بالأيمان ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ فقد جعلتم الله تعالى على ما تكافلتم وتعاهدتم عليه ﴿كَفِيلًا﴾ أي: رقيباً وضامناً وراعياً وشاهداً. فكيف يليق بكم أن تنقضوا الأيمان والعهود والمواثيق التي أشهدتم الله تعالى عليها، وهو سبحانه وتعالى ذو الجلال والملكوت والجبروت على ما تعاهدتم عليه، فإنه لا يليق بالمؤمن أن يكون منه ذلك التصرف، فهو استثارة لإيمان المؤمن، ونخوته، وخوفه من الله تعالى، للوفاء بعهوده ومواثيقه مع غيره، فإنه أسلوب استحثاث عظيم في موقعه، وعظيم في دلالاته، وعظيم في جلالته ومكانته سبحانه وتعالى، وتوثيقي وأخلاقي رفيع، وإعجاز بياني، وكذلك من حيث الأسلوب وروعة البيان، واستثارة الإيمان نحو الوفاء، والخوف من الله الجبار العظيم، ورجاء ما عند الله تعالى من الأجر والثواب في الوفاء بالعهود والمواثيق. ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده الموفون بالعهود والمواثيق.

ثم يختم الله تعالى هذا البيان العظيم بالتحذير من التساهل في المواثيق، ببيان كمال اطلاعه وعلمه بما يفعلون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فإن الله تعالى عليم ومطلع على جميع أفعالكم، فلا يغيب منه شيء البتة. وقد بدأ التحذير الكريم من الله تعالى بأداة التوكيد ﴿إِنَّ﴾ لتؤكد ما بعدها من بيان التحذير. فيؤكد عَزَّ وجل أنه يعلم ما تقومون به من أفعال، سواء من مواثيق أو غيرها، وفي هذا دقة في شمول وعموم الإحاطة بجميع نشاط وتصرفات الإنسان. ووردت كلمة العلم بصيغة المضارع ﴿يَعْلَمُ﴾ لتفيد استمرارية العلم وديمومته، وعدم انقطاعه عنكم لحظة واحدة، لأنه سبحانه وتعالى لا تأخذه سِنة ولا نوم. وكذلك وردت كلمة ما يفعله الإنسان بصيغة المضارع ﴿تَفْعَلُونَ﴾ لتفيد تعميم استمرار عمل الإنسان، التي منها المواثيق، مع دوام علم الله تعالى بتصرفات الإنسان، وعدم انقطاعه عنهم البتة. ليثبت بذلك الحساب والجزاء لكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، بما يفيد التحذير من نقض العهود، والتبشير للمطيع، بما يغرس في المؤمن استشعار مراقبة الله تعالى له في جميع تصرفاته.

ثم يتدرج التوجيه الكريم بالانتقال من البيان الواعظ إلى التمثيل التحذيري، الذي يصور الأمر بمثال هو في غاية الدقة من التصوير، وتجليت موقف نقض المواثيق، ليؤكد به ما سبق من البيان ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فلا تعودوا بعهودكم ومواثيقكم من الوفاء إلى النقض، فيكون حالكم مثل المرأة التي غزلت غزلاً، فضبطت فَتْلَه، وتعبت فيه حتى أحكمته، ثم نقضته، وحلَّت ما غزلته وبَذَلَت فيه جهدها ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ

بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا ﴾ فبعد قوة وإحكام غزلها، حتى بلغ أنه لا يقبل النقض من تلقاء نفسه، فإذا به قد تحول إلى ﴿ أَنكَٰثٗا ﴾ أي: أنقاضاً، فتحول الغزل المشدود إلى خيوط عديدة، بعد أن كان غزلاً موثقاً بِشِدَّة تداخل خيوطه وتماسكها مع بعضها البعض، ليصبح أنقاضاً بسبب نقضها وتفكيكها لذلك الغزل المحكم.

فمثل هذه المرأة التي نقضت غزلها كمثل الذين اتخذوا أيمانهم مخادعة لغيرهم، بتفكيك المواثيق التي أحكمت بالعهود ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ ﴾ أي: تجعلوا أيمانكم التي قطعتموها على أنفسكم ﴿ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ ﴾ أي: خديعة، وفساداً وإفساداً مع من واثقتم بالمواثيق والعهود، فتتحول الأيمان الصالحة إلى أيمان كاذبة فاسدة. فتكون الأيمان مخادعة مع الغير، ومجالاً للمكر والخديعة، مبيناً تبارك وتعالى علة الخديعة وهي ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍ ﴾ أي: أن تكون علة المخادعة وأسبابها، هي أن طائفة أو جماعة أو أفراداً ﴿ أَرۡبَىٰ ﴾ أي أزيد في قوتها، أو أكثر مالاً ونفعاً ممن عاهدتموهم، ليكون ذلك مجالاً لترك الأقل ممن عاهدتموه، والذهاب مع الأكثر والأقوى، فيصبح المعول عليه هي المفاضلة، وليس ما قطعتم من الأيمان، لأن لفظ ﴿ أَرۡبَىٰ ﴾ يفيد التفضيل، فهو اسم تفضيل. كما يستوعب المعنى صورة أخرى كذلك، وهي: أن تتخذوا من كثرتكم وقوتكم سلطة على غيركم في نقض الميثاق، فتحلفون أيماناً لغيركم إذا كانوا أكثر أو أقوى منكم، فيطمئنون لكم، فإن استقويتم، ومكنكم الله تعالى، فتمكنتم من إمكانية نقض الميثاق استخدمتم قوتكم في نقض العهد والميثاق، وربما حالفتم قوماً، حتى إذا وجدتم من هو أقوى، نقضتم العهد الأول، وذهبتم للتعاهد مع الأقوى. مما يدل على صدق الإسلام في تعاملاته، وفي توجيهه، وتربيته لأتباعه بأن يكونوا مثالاً للصدق والوفاء. ومرتكزاً للحق مهما كانت التفاضلات، والمغريات.

فمن بلاغة البيان أن جمع هذا التمثيل والتصوير جميع حالات النقض المبنية على صورة المناقلة والمناقضة، بحسب القوة والتمكن والسيطرة، والمسك بزمام الأمور. فَيُحَذِّر اللهُ تبارك وتعالى من مثل هذه الحال التي قد يبتليكم الله تعالى بها ﴿ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾ فإن الله تعالى يختبركم بما تواثقون فيه غيركم، أتستوفون الميثاق والعهود، أو تنقضونها، وتتناقلون عنها بالمزايدة، مما يفيد أن الإنسان قد يبتليه الله تعالى ببعض المواقف، ليرى منه مدى صدقه، وإيمانه، ووفائه بميثاقه، وصبره على الامتثال.

ثم يحذر تبارك وتعالى من مصير يوم القيامة، والقضاء بالحق والعدل بين المحقين والمبطلين ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ فيوم القيامة يكشف ويبين الله تعالى الباطل والمبطلين بإثارة الخلاف والاختلاف لنقض العهود والمواثيق، فيجازيهم بما يستحقون من العذاب، ويكشف ويبين الحق

والمحقين، فيثيبهم بما يستحقون من الثواب العظيم. ليعطي تبارك وتعالى بهذا البيان الحقيقة التي تكون يوم القيام، بما يفيد التحذير والإنذار من مسلك الباطل، والجنوح عن الحق إلى الظلم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

يخبر الله تعالى عن كفر الكافرين بأنه ليس بخارج عن إرادته ومشيئته، فلو شاء لجعل وألزم جميع الخلق بأن يكونوا على ملة واحدة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تبين هذه الآية الكريمة أن مخالفة من خالف الإيمان والتوحيد بكفره وشركه ليس معناه أنه خارج عن إرادة الله تعالى ومشيئته، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فلو شاء الله تعالى لجعل جميع الناس على ملة واحدة، متفقة على الحق، فيكونوا مؤمنين مسلمين، فلا يختلفون في شيء ولا يتفرقون ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ولكنه سبحانه وتعالى يضل من يشاء من عباده الذين آثروا الضلال على الهدى، عدلاً منه فيهم ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: ويهدي من يشاء من عباده الذين آثروا الحق بالإيمان والانقياد لله تعالى بالتوحيد والخلوص من الشرك، عدلاً منه فيهم ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وليسألن الله تعالى عباده عما كانوا يعملون في الدنيا، فيما أمرهم به، ونهاهم عنه، ويجازي كلاً بما يستحق من العقاب والعذاب، ومن الجزاء والثواب. مما يفيد الترغيب والترهيب، والتحذير من العصيان بالكفر والشرك والمعاصي. وفي قوله تعالى ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دلالة على أن العمل كان اختياراً منهم، والسؤال محاسبة على ما اختاروا من العمل، وسواء ما كان من الطاعة، أو ما كان من الكفر، ليثبت بذلك أن الإنسان على نفسه بصيرة، وكما

قال عَزَّ وجل في سورة التكوير ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴾ فمن شاء اتخذ سبيل وطريق الاستقامة الذي يتحقق له به النجاة. وفي سورة الشمس، قال تعالى ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ فعرفها وأفهمها بما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها. وقال الله تعالى في سورة التكوير ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فليس لأحد الانفراد بالمشيئة المستقلة، والمنفردة عن مشيئة الله تعالى فكل مشيئة تحت سلطان مشيئة الله تعالى. بما يفيد: أن الله تعالى لو شاء أن لا تكفروا، لجعلكم مؤمنين بقدرته وسلطانه، فلا تعتقدوا بكفركم أنكم خرجتم عن سلطان ربكم ومشيئته. فإنكم تحت قبضته. بما يصحح مفاهيم العباد عن المشيئة، بأنها مشيئة مقيدة بمشيئة الله تعالى. يصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، ويعلمهم الحق وسبيله، حتى يعلموا ما يجب عليهم، وما هم عليه. وأن ذلك لا يعني أنهم خارجون عن مشيئته سبحانه وتعالى. كما يصحح بهذا البيان أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم.

ثم يتدرج البيان من نهيه عَزَّ وجل عن مطلق الحلف والأيمان إلى نهيه عما هو أخص، وهي أيمان الخديعة، فما أعظمه من تدرج، وما أعظمه من نهي ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ينهى الله تبارك وتعالى نهياً قاطعاً أن يتخذ المؤمنون أيمانهم خديعة بينهم ﴿ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ ﴾ أي: مفسدة، ومكراً، وخديعة، فيحصل بذلك الزلل عن الحق ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا ﴾ فتنحرفوا عن الحق بعد ثبوتكم فيه، بسبب اتخاذكم الأيمان وسيلة للمكر والخديعة فيما بينكم ﴿ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ ﴾ مما يوجب عليكم الحذر من ذلك اشد الحذر. ووردت الإشارة إلى إفراد القدم ﴿ قَدَمُۢ ﴾ وهي كناية عن قوة السقوط، لأن انحراف القدم، يُعَطِّل قوة الأخرى، فلا تستهينوا بالمخالفة الواحدة، فإنها تُسقط غيرها، وتنحرف بها عن الثبوت. وهذا يشمل جميع الأيمان. وتفيد جملة ﴿ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا ﴾ المبالغة في شدة ما كانت عليه من الحق، فإنه مع تلك القوة من الثبوت يحصل الزلل، مما يفيد أن الثابت ليس بمنأى عن الزلل، مما يوجب الحذر، بل وأن يتوقى أشد الحذر السقوط ومعالمه وطرقه وشبهاته ومغرياته. وهو مَثَلٌ لمن كان على الاستقامة، ثم حاد عنها، فزل بذلك عن طريق الحق.

فإن نقض العهد يزل به المؤمن في دينه، كما تزل القدم بعد الثبات على الاستقامة ﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وتذوقوا العذاب السيء الذي يخزيكم، ويحزنكم، عقاباً لكم على ما فعلتم

﴿ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بما أضللتم به أنفسكم وغيركم عن دين الله تعالى وهُدَاه، ليشمل بذلك اتخاذ الأيمان وسيلة للمكر والخديعة مع غير المسلمين، فلا يثق بعد ذلك الكافر في أهل هذا الدين، ويشك فيه، ويصد عن التعرف على هذا الدين والدخول فيه. ﴿ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: لكم عذاب مبالغ في عظمته وشدته.

ويتتابع التوجيه الكريم بالنهي عن نكث العهود مقابل تتبع عرض الدنيا ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ فلا تقبلوا بالمعاوضة المختلة في موازنتها وميزانها مع الإيمان بالله عَزَّ في علاه ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فتجعلوا عهد الله تعالى ثمناً زهيداً لعوض حقير زهيد، فتشتروا بعهد الله تعالى عوضاً حقيراً عنه، زائلاً.

وقد ورد الثمن القليل عاماً ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ليستوفي كل عِوض من مال وجاه. وكلمة الشراء ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ ﴾ تفيد المعاوضة، بالأخذ والعطاء، والقبول والرضى بين الطرفين، على المدفوع وعلى المقابل. وهي صورة مماثلة لعملية البيع والشراء، مما يدل على دقة تصوير وتمثيل الموقف بأدق الأمثلة، وأوضح الصور. وهذا من غزارة البيان وروعته في كتاب الله تعالى. مما يفيد أن كل عِوض أمام عهد الله تعالى هو حقير زهيد، مهما كان في العين كبيرا، في حجمه وعدده، وما يقضيه ويحققه من أعراض الدنيا، فإنه ذاهب وزائل، ويسير حقير، أمام ما هو باق، وعظيم المثوبة الدائمة عند الله تعالى. ولذلك قارن تبارك وتعالى بينه وبين ما هو عنده لمن وَفَّى بعهد الله تعالى ﴿ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ فوردت المقارنة بصورة المفاضلة ﴿ هُوَ خَيۡرٌ ﴾ لإدراك حجم المفارقة، وعدم الغرور بالزائل. وتم تخصيص الخيرية للموفين بالعهد ﴿ خَيۡرٌ لَّكُمۡ ﴾ وسبقتها أداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ أي: أن الذي ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ لا يقارن بما أبهركم وأشغل عقولكم، وأغراكم، فهو خير منه من حيث عظمته وكثرته، وبقائه، وزمنه، وحاجتكم له يوم القيامة. وجملة ﴿ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ تشمل ما يكون لكم في الآخرة، وتشمل ما يعوضكم ويعطيكم في الدنيا من الخير الفاضل عن المفضول الذي أغراكم، وهو زائل، فلا بقاء له. فإنه وعد صادق من كريم، وأسلوب قرآني عظيم في مضمونه، وسياقه، وأهدافه، وأخلاقه، وفي معالجته لما يختلج في النفس عندما تغريها أعراض الدنيا.

وهذا البيان بهذا الأسلوب والتوجيه الكريم يغرس في النفس المؤمنة الارتفاع بسلعة الله تعالى على كل سلعة، والاستغناء بها عن كل ثمن، وألا يقدم المؤمن عليها أمراً مخالفاً لها، معتقداً أن يجر منفعة له، أو يجبر

نقصاً عنده، فإن سلعة الله تعالى غالية، وأعظم من أن يُشْتَرَى بها ثمناً قليلاً، فإن كل ما عداها هو دونها، فما عند الله تعالى خير وأدوم وأعظم نفعاً وفائدة، فإن العقول لا تتصوره.

ثم يرد الله تعالى الْمُخَاطَبين إلى التعقل والتبصر ليحصل لهم العلم الحقيقي، وينتفي عنهم الجهل المركب، المخالف للعلم بالحقيقة النافعة لكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإن كنتم تعلمون الحق، وقد علمتموه فتمسكوا به، ولا تشتروا بعهد الله تعالى ثمناً قليلا، فَرَدَّ الله تعالى عباده المؤمنين إلى العلم الذي علموا به، فاعلموا بعواقب المعاوضة في هذا الشأن، فإن فيها فقد لخير عظيم، مقابل عِوض زهيد حقير وزائل. وفي هذا دلالة على أهمية العلم، وأهمية التطبيق والممارسة للعلم. ومن جميل أساليب القرآن الكريم التعليل، فعلل تبارك وتعالى النهي ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ بعلة محفزة للمؤمنين، وهي ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وهي قاعدة عظيمة يعالج ويواجه بها المؤمن نفسه، ويعظ وينصح بها غيره. فكلما وقف في موقف مشابه لذلك، قال لنفسه ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وإن رأى غيره واقع في مثل ذلك، نصحه ووعظه بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فهي آية واعظة للمؤمن في الأحوال والمواقف الكثيرة.

ثم يُعقّب الله سبحانه وتعالى بالتفصيل الذي يؤكد لهم حقيقة ما بينه وأوضحه في الآية السابقة ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فهذا تعليل آخر، يؤكد ويُفَصِّل ويُكَمِّل التعليل الذي قبله ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ فما تُحَصِّلُونَه من أعراض الدنيا مصيره للنفاد والانقراض والانتهاء والاضمحلال، مقارنة بما عند الله تعالى ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ فالذي عند الله تعالى مما وعدكم به لا يفنى ولا ينتهي، فمتصف بصفة الاستمرارية، فهذه المقارنة تُوجب على العاقل أن يأخذ بالباقي المتصف بصفة الاستمرار، وعدم النفاد والانتهاء. فإن فيها مخاطبة للعقل والفكر، مما يبين أن هذا الدين هو دين العلم، ودين الحقيقة، وأنه ينهض بالعقول إلى السمو والرفعة في قراراتها واختياراتها، وفي تفضيلها وحساباتها أمام تفاضل الأشياء. ووردت المقارنة بجميع ما عند الإنسان ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ لتشمل النوع، والكثرة، وكذلك تشمل عموم العباد. وفي كلمة ﴿يَنفَدُ﴾ إفادة الانتهاء بالنقص والانقراض، حتى يتلاشى، فينتهي، فلا يبقى منه شيء. بينما كلمة ﴿بَاقٍ﴾ أفادت عدم الانتهاء، ونفت عنه النقص، فلا ينقص بالأخذ، والاستعمال، بل يبقى كما هو، فضل من الله عَزَّ وجل.

ثم يأتي محفز آخر بتعليل ثالث ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فأفادت الآية الكريمة أن هذا الأمر يحتاج إلى الصبر أمام مغريات وشهوات النفس ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ فدل عباده على العلاج بالصبر، لمدافعة ومغالبة هوى النفس، مما يبين ويكشف حقيقة النفس الإنسانية، في استعجالها لمرادها من المحبوبات، دون التأمل والنظر في عواقبها، وذلك بتقديم هوى النفس على العواقب، فَيُقْدِمُ الإنسان على شراء عرض الدنيا بعهد الله تعالى وميثاقه وآياته وحُرُمَاتِه، ولكن يتغلب على جميع ذلك بقوة وعزيمة الصبر. فيقرر تبارك وتعالى الحقيقة والطبيعة البشرية التي تحتاج إلى الصبر في معالجة ما يغريها، ويستثير هواها. وقد اقتصر البيان على إيضاح العلاج بالصبر، لأن العلة من الصبر هو توثيق النفس وضبطها عن هواها، بالمجاهدة على الصبر. وكذلك تبياناً وكشفاً لحقيقة النفس وما يختلج فيها من الاستعجال لما تنبهر به. وهذه قوة بلاغية سامية الأسلوب والدلالة. فعلاج كل ذلك في الصبر. وأنه مقابل هذا الصبر على الطاعة والامتثال يحصل الوفاء، فيحصل الأجر والمثوبة.

فقال تعالى عن المثوبة للصابرين ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ووعد الله عَزَّ وجل حق لا ريب ولا شك فيه. فإن الله جَلَّ جلاله يعد وعداً لعباده بأنه سيجزي من صبر على عهده تبارك وتعالى ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فليس الجزاء بما يعادل صبرهم فقط، بل يتجاوز ذلك إلى المبالغة في الجزاء والإكرام ﴿بِأَحْسَنِ﴾ فكلمة ﴿بِأَحْسَنِ﴾ تفيد المبالغة في المثوبة، التي تتجاوز ما يستحقون ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ بأفضل مما عملوه من الالتزام والوفاء والطاعة لله تعالى، ثم أسند تبارك وتعالى الجزاء له عَزَّ وجل ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ فالذي سيجزي الصابرين على الطاعة هو الله الكريم الغني تبارك وتعالى، ونوه عنهم بفعل الصبر ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ فالصبر منهم كان صفة لهم، ودلالة على قوة امتثالهم للطاعة. مما يبين أهمية الصبر أمام جميع المغريات، فهو القوة التي يتغلب بها المؤمن على جميع المغريات.

ثم يزداد التأكيد من رب العالمين بكمال الثواب لكل عمل يقوم به العبد المؤمن من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، وجَمَعَ مع إيمانه طاعة ربه، والامتثال لدينه ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فإن مَن عمل عملاً صالحاً من أي أحد من المؤمنين، سواء كان ذكراً أو أنثى، فإننا نجعل حياته حياة طيبة. وقد بينت الآية الكريمة

العلاقة الترابطية والتكاملية بين الأعمال الصالحة وبين الإيمان، لتكون شرطاً للمثوبة العظيمة بالحياة الطيبة في الدنيا، وبدخول الجنة من غير ظلم لهم فيما عملوا، ولو كان عملاً يسيراً من الصالحات.

وقد بدأت الآية الكريمة بالترغيب في عمل الصالحات من خلال احتواء جميع الأعمال الصالحة، سواء كانت قليلة أو كثيرة. وأياً كان هذا المؤمن، ذكراً أو أنثى. فقوله تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ ﴾ تفيد أياً كان هذا العامل، وأي عمل يعمله. وقد شمل حرف ﴿ مَنْ ﴾ كلا الجنسين الذكر والأنثى. فأعطى دلالة التأكيد والمبالغة في تقرير ما وعدهم الله تعالى به.

ويشترط فيه الصلاح ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ وهو كل عمل صالح أياً كان نوعه وحجمه. ومن الفوائد أنه لما أن الصالحات كثيرة النوع مع تفاوتها في الدرجات، وتفاوت قدرات العباد في تحصيلها، فمن مبسوط له في الرزق فينفق، ومن مبسوط له في الذكر، ومن مبسوط له في قضاء حوائج الناس، فجاء سياق الوصف بما يتناسب مع ذلك التفاوت، وذلك التنوع ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ فليس جميع الصالحات، وإنما من تلك الصالحات. كما شمل لفظ ﴿ صَٰلِحًا ﴾ جميع أنواع الأعمال الصالحة. وقد شمل قوله تعالى ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ جنس الذكر وجنس الأنثى، على حد سواء، فلا فرق بينهما، فكل له نوع من الاستطاعة، فشمل بذلك جميع أعمار الجنسين، وقدرات وخصوصية كل جنس. كما اشترط الإيمان لقبول عمل الصالحات ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ما يفيد أن الإيمان شرط لقبول الأعمال الصالحة. مما يؤكد أهمية الإيمان، وأنه الركيزة الأساسية لقبول العمل. وقد أفاد التنصيص على الذكر والأنثى ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ زياد التأكيد بالتفصيل، بالرغم من أن حرف ﴿ مَنْ ﴾ يشملها، ولكن لزيادة العناية، وزيادة التحضيض، بإظهار المساواة بين جزاء العمل الصالح للذكر وللأنثى.

فهؤلاء المؤمنون الذين يعملون الصالحات لهم مكافأتان عظيمتان، واحدة في الدنيا، والثانية في الآخرة، فقال تعالى ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ففي الدنيا قال تعالى ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ فهذا وعد من الله تعالى بأن يجعل حياته طيبة، وورد ذلك بصفة العموم، ليستوفي أنواع الطيب كله، سواء في الرزق الحلال، أو التوفيق للطاعة، وتحصيل القناعة، وطمأنينة النفس، وغير ذلك مما تطيب به النفس. فتعميمها يدل على كثرتها وتنوع مفرداتها، وأساسها الذي تقوم عليه هو طمأنينة النفس، وتحصيل العافية والقناعة والرضا.

وأما الجزاء في الآخرة فهو قوله تعالى ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فمقابل هذا العمل الصالح مع الإيمان فإن ربكم يعدكم وعداً بأن يجزيكم ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فليس الجزاء بما يعادل ذلك العمل الصالح فقط، بل يتجاوز ذلك إلى المبالغة في الجزاء والإكرام ﴿ بِأَحْسَنِ ﴾ فدلالة كلمة ﴿ بِأَحْسَنِ ﴾ تفيد المبالغة في المثوبة، التي تتجاوز ما يستحقون، فإنها ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ بأفضل مما عملوه من تلك الأعمال الصالحة. وقد أسند تبارك وتعالى الجزاء له عَزَّ وجل ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ فالذي سيجزي على ما كان منهم هو الله تعالى، الكريم الغني تبارك وتعالى، بما يفيد أنه جزاء عظيم لا تدركون دلالته إلا بمشاهدته. ونوّه عنهم بفعل ما كان منهم من العمل ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فقد كان العمل الصالح منهم صفة لهم، مما يدل على قوة امتثالهم للطاعة، بالمسارعة في عمل الصالحات. مما يبين أهمية العمل الصالح أمام جميع المغريات، فهو الركيزة التي يتغلب بها المؤمن على جميع المغريات، وجميع أنواع شح النفس وانقباضها عن الخير.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ
﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

بعد أن حث سبحانه وتعالى عباده على التمسك بعهده، ونوّه عن قوة الصبر في معالجة هوى النفس، وأثر ذلك في بلوغ وتحصيل أحسن الأجر والثواب، أتبعه سبحانه وتعالى ببيان منهج التخلص من العدو اللدود الشيطان الرجيم ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ففي هذه الآية الكريمة يُوجّه سبحانه وتعالى الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، لتسترشد وترشد أمة الإسلام بهذا الأساس العظيم، وبدأ الخطاب الكريم بالربط بين هذه الآية وبين ما سبقها بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَإِذَا ﴾ حيث أفادت الفاء ترتيب الاستعاذة بعد الذي سبقها، من حيث التوجيه، وتتابع معالجة حال الإنسان مما يعترضه من نفسه، ومن الشيطان، فإن الذي من نفسه يعالجه بالصبر على الطاعة عن المغريات التي تُبعده عن لزوم الحق، وأما الذي

من الشيطان فيكون بالاستعاذة بالله تعالى من الشيطان ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن أن الاستعاذة قبل القراءة: هذا قول عامة العلماء واللغويين[١] ومعنى الاستعاذة: أن تسأل الله تبارك وتعالى أن يعصمك من الشيطان، فيمنعه عنك، ويقيك من وساوسه، فيقول العبد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فوصف سبحانه وتعالى الشيطان بالرجيم ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ لأنه مرجوم بالنجوم، ومرجوم بالطرد من رحمة الله تعالى. قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: الرجم: المرجوم بالنجوم[٢] والرجم: الرمي بالحجارة، وقيل الرجم: اللعن والطرد[٣] فالشياطين مرجومون بالنجوم كما قال تعالى في سورة الملك ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ وأيضاً الشياطين ملعونة، مطرودة من رحمة الله تعالى.

وفي تخصيص قراءة القرآن بالاستعاذة، ليدل ذلك على أن ما سواه أحوج، فإذا كان القارئ لكتاب الله تعالى يحتاج ان يستعيذ ويلوذ بالله تعالى أن يعصمه من الشيطان الرجيم، فإنه لسائر الأحوال أحوج ما يكون للاستعاذة، فالقرآن كلام الله تعالى، ومع ذلك يحتاج الإنسان أن يتعوذ من الشيطان الرجيم، لأنه عدو للإنسان في كل خير، مهما بلغت درجته، بل كلما ارتفع مقام الخير زاد حرص الشيطان على منع انتفاع الإنسان منه. وإذا كان الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة، ذو المقام المحمود فإن أمته أحوج في ذلك. فتظافرت دلالتان على أهمية وحاجة الإنسان للاستعاذة من الشيطان الرجيم، الأولى: عند قراءة القرآن العظيم، فمع عظمة وجلالة القرآن الكريم فإن المؤمن مأمور بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن، فكيف بما هو دونه من شؤون الإنسان وأحواله. والثانية: أن المأمور به مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وهو المعصوم عليه الصلاة والسلام، فكيف بمن هو دونه، والجميع دونه، فإنهم أحوج له. فإنه توجيه في سياق بليغ، قد تعاظمت بلاغة معطيات دلالته.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بانتفاء سلطان الشياطين على من اتصف بصفتين: الإيمان، والتوكل ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ بما يبين ويؤكد أن الاستعاذة كما هي مطلوبة من النبي صلى الله عليه وسلم فهي مطلوبة من جميع المؤمنين. وأن الشيطان ليس له التسلط على من

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٥٩/٤-٣٦٠)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (١٢٥/٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/١٠)

اتصف بصفتين عظيمتين، الأولى: الإيمان ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ مما يبين عظمة الإيمان وأثره، وأهميته، فهو الذي يُلزم المؤمن بالطاعة والانقياد لله رب العالمين. والصفة الثانية: التوكل على الله تعالى ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فمن اتصف من المؤمنين بالتوكل على الله تعالى مع إيمانه، فإن الشيطان ليس له تسلط عليه. وشأن الاستعاذة أنها من التوكل على الله تعالى، فالمستعيذ أوكل أمره إلى الله تعالى، بأن يمنع عنه تسلط الشيطان عليه. والتوكل هو: تفويض الأمر إلى الله تعالى في الأفعال والأقوال. مما يفيد ويبين أهمية هاتين الخصلتين العظيمتين، فإنهما قوتان عظيمتان في التصدي للشيطان، حتى أن المؤمن لا يغتر بوسوسة الشيطان ومكائده، ولا يؤثر فيه إغراء الشيطان من تزيين الباطل، كإفساد العهود والعقود، مهما قابلها من الإغراء. فالمؤمن المتوكل إذا أغراه الشيطان ووسوس له، لا يتابعه في التنفيذ لما أغراه به، ووسوس له فيه، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في مشاعره فيغويه، فلن يتجاوز الاغراء إلى التنفيذ.

ثم يبين سبحانه وتعالى حقيقة تسلطه ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ فحصر سبحانه وتعالى تسلط الشيطان في الإغواء على من اتصفوا بصنفين: الصفة الأولى: الذين يتولون الشيطان ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ أي: يتخذونه ولياً من دون الله تعالى، فيقدمون له الطاعة، واتباع ما يزينه لهم. والصنف الثاني: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ أي: الذين يشركون بالله تعالى بسبب تزيين الشيطان لهم الشرك بالله عَزَّ وجل، فيكون شركهم بالله تعالى هو من أجل طاعته. وفي حصر سلطانه بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ ما يؤكد حقيقة تسلطه على من تولاه، وأشرك بالله تعالى، وبهذا الحصر ينتفي تسلطه على من آمن وتوكل على الله تعالى، وفي هذا زيادة بيان وتأكيد، وتنبيه لأثره، وتحذير المؤمنين من الشرك، وعلاقته بالشيطان، وكذلك التحذير من ولايته وتوليه، بطاعته فيما يزينه لهم.

ومن دقائق السياق الكريم أن جاء توليه بصيغة المضارع ﴿ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ ليعطي دلالة الاستمرار، فطالما أنهم مستمرون في توليه، فإن الشيطان مستمر في تسلطه عليهم، وكذلك ينطبق في حق من أطاع الشيطان فأشرك بالله تعالى. مما يفيد: أنهم إذ أرادوا الخروج عن تسلط الشيطان فعليهم ترك توليه، وتحقيق الإيمان والتوكل على الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى حال المشركين الذين تولوا الشياطين فتولاهم، بأن مسلكهم مع القرآن هو مسلك الشياطين، إذ قابلوا القرآن بالعناد والطعن والافتراء ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فإذا رفع الله تعالى آية بآية

أخرى، فنسخها بغيرها من الآيات الكريمة، وهو التبديل ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ أي: فإذا رفعنا ونسخنا آية بغيرها، وهو العليم بما يقرره سبحانه وتعالى ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ وذلك لحكمته التي وسعت جميع أوامره ونواهيه وشرعه الحكيم، فاستوعب النسخ والتغيير أحوال من أُنزل فيهم القرآن الكريم، ومنهج التدرج في المعالجة والتغيير، لأنه العليم بما يُنَزِّل ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ فهو سبحانه وتعالى الأعلم بما ينزل ويعالج به عباده، لحكمته في معالجة شؤون عباده عَزَّ في علاه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم إنما أنت يا محمد مفتر، بالكذب، ومُتَقَوِّل، فإنك تختلق على الله تعالى، بأن تقول شيئاً عن الله عَزَّ وجل، ثم تُغيره وتُبدله، وذلك من باب الطعن والتشكيك.

فيرد الله تعالى عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فأكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون لجهلهم بحكمته سبحانه وتعالى في النسخ، فإن رفع الآية مكان آية لمصالح يعلمها الله تعالى، ولا يعلمون الحكمة منها لجهلهم. فإنه سبحانه يعالج عباده بما يناسب حالهم في كل شأن ووجه، وبحسب متغيرات الواقع في حالهم، وحال من بعدهم. وفي قوله تعالى ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يفيد أن القليل منهم يعلمون ويدركون حقيقة النسخ، وفوائده ومصالحه التي يتحقق بها الحق، ولكن لعنادهم، يرمون النبي صلى الله عليه وسلم بالافتراء على الله عَزَّ وجل. ومن دقائق البيان اثبات العلم للقليل منهم، من خلال نفي العلم عن أكثرهم، فالأكثرية هم أتباع جُهَّال، يتابعون القليل الذين يعلمون مصالح وفوائد نسخ الآية بآية أخرى. ولكن يقولون الكذب من أجل تشويه الرسالة، وسُمعة الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى يصدوا غيرهم عن سبيل الله تعالى.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يُجيب على طعنهم فيما نسخ الله تعالى من آيات، بما ينفي إشاعتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم واتهامه بالكذب والافتراء، فيقول عَزَّ وجل مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ وفي هذا البيان من الله تعالى تزكية لنبيه عليه الصلاة والسلام. فيا أيها النبي ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أخبرهم بأن النسخ ليس منك، بل إن الذي نَزَّل النسخ من عند الله تعالى هو ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي: جبريل عليه السلام، ومن دقة التسمية لجبريل عليه السلام أن وردت تسميته هنا باسم ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ لما تتضمنه هذه التسمية من القداسة والنزاهة والتطهر عن كل عيب، ومنها الكذب والافتراء، وفي هذا رد عليهم حتى من خلال التسمية لجبريل عليه

السلام، وفي ذلك تزكية لجبريل عليه السلام، بل ومن منزلته وكرامته أنه هو الْمُعَيَّن بإنزال الناسخ من عند الله تعالى مباشرة ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فهو المباشر للتنزيل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فإن سند نزول القرآن من عند الله تعالى على جبريل، ثم من جبريل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. ثم وصف تبارك وتعالى نزول كتابه العظيم بسياق الربوبية والصدق ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فنزوله بالحق المتضمن لكل أوصاف الحق المنافي للباطل، فمضمونه حق، والناسخ والمنسوخ حق، وتشريعه حق، وأمره ونهيه حق، وأخباره حق. وهذه تزكية من الله تعالى لكتابه القرآن الكريم. وفيه كذلك تخصيص المخاطب ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وإضافته له سبحانه وتعالى ﴿رَّبِّكَ﴾ وفي هذا مزيد تكريم وعناية برسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر ويوضح سبحانه وتعالى أهداف وغايات نزول القرآن الكريم، وما تضمنه من الذكر الحكيم.

فالغاية الأولى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ففي توارد آيات القرآن العظيم على المؤمنين من ربهم تبارك وتعالى على نبيهم عليه الصلاة والسلام شيئاً فشيئاً هو لتثبيتهم على ما هم عليه من الثبات. إذ يحمل البيان الكريم تزكية للمؤمنين وعناية بهم، إذ سماهم بالمؤمنين، ليدل على التزكية، واستقرار الإيمان في قلوبهم، ولكن ليزدادوا به ثباتاً، مما يفيد حاجة المؤمن للثبات، كما كان يدعو عليه الصلاة والسلام (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) [1] فتوارد آيات القرآن الكريم وقتاً بعد وقت ليحل في قلوب المؤمنين الثبات على الحق، ويزدادوا به ثباتاً أمام مجريات الأحداث التي تمر بهم، وتقلباتها من النصر والظفر والاستشهاد، والتأخير والتأجيل، كصلح الحديبية، وقتلى شهداء أحد. ففي نزول القرآن متتابعاً قوة عظيمة للمؤمنين، وتثبيتاً لهم على الحق المبين. كما أن في نزول الناسخ والمنسوخ من الآيات الكريمة ما يدركون به الحق، والتدرج في المعالجة، وأن المنسوخ كان في وقته نعمة، وأن الناسخ له نعمة أخرى في حينه ووقته، فيعرفون أن في ذلك مصالح عظيمة، تدل على أن هذا القرآن من عليم خبير حفيظ سبحانه وتعالى.

والهدف الثاني: ﴿وَهُدًى﴾ أي: يهديهم إلى الحق والحقائق، ويكشف لهم الباطل، ويوضح لهم منهج وأساليب التخلص منه، ومواجهته، ويوضح لهم الحق، ومنهجية التمسك به، وأساليبه، وأركانه، كالحث على الصبر والتوكل، وجزاء ذلك، ومنهج الانتصار على شر الشيطان، بالتعوذ بالله تعالى منه، والتوكل عليه عَزَّ وجل، وغير ذلك مما تضمنه القرآن العظيم.

(1) الترمذي، سنن الترمذي، برقم (٢١٤٠)

والغاية والهدف الثالث هو: ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ فيبشرهم الله تعالى بمضامين آيات القرآن الكريم بما يستبشرون به في قادم أيامهم في الدنيا، وفي الآخرة، كالنصر والفتح، وسعة الرزق، والجنة، وثواب الاستشهاد في سبيله سبحانه وتعالى. وهذا بيان لما يخص المسلمين من القرآن الكريم. بما يدل على أن لهم ما يخصهم، توفيقاً وتشريفاً لهم من ربهم تبارك وتعالى. وفي ذلك بيان بأن القرآن الكريم هو المصدر لتثبيت النفوس على الحق، وأن من قرأ القرآن وتعلمه فإنه يثبته على الحق، ويحول بينه وبين الزيق، وأن من تمسك بتوجيهاته فإنه يأخذ به إلى الهداية والتوفيق، وأن فيه من البشارات ما يسعد به المسلم، وبما يعوضه الله تعالى به من العوض العظيم لمن تمسك بهدي الإسلام، فأطاع الله تعالى، وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن قوة الرد على دعواهم بالافتراء على النبي صلى الله عليه وسلم، أن جاء الرد بما هو أعلى من النفي، فجاء بإثبات الحق على هيئته ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فإن هذه الإجابة قد تجاوزت الاقتصار على نفي زعمهم إلى إثبات هيئة التنزيل من الله تعالى، وإثبات صدق النبي عليه الصلاة والسلام، وأن مهمته إبلاغ العباد بما أنزله الله تعالى عليه، فلم يمنحه تبارك وتعالى حق التعديل والنسخ والرفع، فذلك لله تعالى، فينزل به الروح الأمين على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وفي قوله ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ لفتة جامعة بين إثبات تنزيل القرآن العظيم وإثبات الربوبية، فهي إشارة إلى توحيد الرب سبحانه وتعالى، وأنه ليس هناك غيره له حق الربوبية والألوهية تبارك وتعالى، وليس الأمر كما هو حال المشركين الْمُخَاطَبين بهذا الخطاب، الذين أشركوا مع الله تعالى غيره. كما أن وُرُود الخطاب من الله تعالى جاء مباشرة للنبي صلى الله عليه وسلم، ليخبرهم، ولم يتم توجيه الخطاب لهم مباشرة، بل جاء من خلال الذي رموه بالافتراء صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك زيادة رفعة وتخصيص له عليه الصلاة والسلام في إجابتهم بالحقيقة، ليكشف به الله تعالى الحق للكثير الذين لا يعلمون، وهم اتباع الذين يعلمون الحق وينكرونه، كما وصفهم سبحانه وتعالى في الآية السابقة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فأكثرهم لا يعلمون الحقيقة، حيث يُلَبِّسُ الذين أنكروا الحق على اتباعهم الجهال، الذين يتابعونهم في ضلالهم من غير علم.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ
وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

ويستمر كشف طُعُون وأقوال المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم، ويرد الله تبارك وتعالى عليهم بما يحقق الكشف والرد الشافي لعيوب أقوالهم، وهزالة تفكيرهم، حتى لا ينخدع بكلامهم الجهال من أتباعهم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ فيقرر الله تبارك وتعالى علمه الدقيق بما يقولون في نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم من الطعن والبهتان، ليبطل افتراءهم وتلبيسهم على الناس ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ فإنه لا يخفى علينا قولهم بأن واحداً من الناس يعلمه الذي يقوله من القرآن وغيره من السنة المطهرة، وأنه ليس من عند الله تعالى. وقد افتتح تبارك وتعالى بيانه بحقيقة علمه بما يقولون، ومؤكداً ذلك بأداة التأكيد المسبوقة بلام القسم ﴿وَلَقَدْ ﴾ التي أكدت تحقق علم الله تعالى بحقيقة وتفاصيل قولهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ وأوضح بيان ربنا تبارك وتعالى أن أولئك المشركين مستمرون في قولهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ فهم يقولونه على سبيل الاستمرار والنشر بين الناس، واتضح هذا المعنى من خلال إيراده بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿يُعَلِّمُهُۥ ﴾ الذي يفيد استمرارهم في طعنهم هذا، ولم يذكرهم بصيغة الماضي الذي يفيد أنهم قالوا وتوقفوا، بل إنهم مستمرون في بهتانهم، بل ومن قوة بهتانهم وكذبهم وتعمدهم أنهم جزموا بما قالوا، وذلك بحصر ما أشاروا إليه بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا ﴾ التي تفيد القصر، أي: قصر وحصر ما يقوله عليه الصلاة والسلام بأنه فيما يتعلمه من هذا الإنسان، فهو إنسان من البشر، وذلك لإخراجه عن كونه من الله تعالى، وإبعاد ذلك تماماً، تلبيساً على الناس، وصرفهم عما يقوله عليه الصلاة والسلام من القرآن العظيم والسنة المطهرة.

فيرد الله تبارك وتعالى عليهم بقوة البيان، وقوة الدليل والحجة الباهرة والبرهان التي يدركها كل عربي ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ فإن لسان الذي يميلون إليه ويزعمون أنه يعلم النبي صلى الله عليه وسلم هو أعجمي، قال الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى: كانوا يزعمون أن الذي يعلم محمداً هذا القرآن عبد رومي، فلذلك قال تعالى ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ وهذا القرآن لسان عربي مبين[1] وقال أهل التأويل: على اختلاف منهم في اسم الذي كان المشركون يزعمون أنه يُعلِّم النبي محمد صلى الله عليه وسلم هذا القرآن، أن

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٦٤/١٤)

اسمه بَلْعَام، وكان نصرانياً بمكة[1] وأصل الإلحاد الميل. وبهذا فإن ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي يميلون إليه ﴿أَعْجَمِىٌّ ﴾ والأعجمي الذي يكون من العجم، ولا يفصح. وذكر الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى بأن العجمة: الإخفاء، وهي ضد البيان، والعرب تُسمي كل من لا يعرف لغتهم، ولا يتكلم بها أعجمياً، قال الفراء: الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب[2] فالأعجمي من الناس هو الذي لا يُفصح، سواء كان من العرب أو العجم. وهذا البيان من الله تعالى يوضح زيف الطاعنين في كتابه وفي رسوله صلى الله عليه وسلم بقولهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ فيكشف الله تعالى لهم زيفهم بدليل قاطع من أن الذي يُشيرون إليه من البشر هو أعجمي ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ فكيف يُعَلِّم الأعجمي الذي لا يكاد يفصح عن مراده، فيعلم رجلاً عربياً فصيحاً بليغاً، كما شهدت له صلى الله عليه وسلم الأحاديث التي تواترت عنه عليه الصلاة والسلام. ففي هذا كشف لزيفهم وكذبهم، ودحضاً لافترائهم.

وسمى الله سبحانه وتعالى الكلام ﴿لِّسَانُ ﴾ فسماه باسم آلة النطق، التي هي المعبر والموضح الحقيقي لنوع لسان المتكلم. وفي هذا عمق بياني في قصد آلة التحدث التي ينكشف بها نوع المتحدث، وفصاحته وبلاغته، وعروبته أو أعجميته، ففي اختيار اللسان جمع بين بلاغة البيان، وبين قوة الحجة، وكشف زيفها، ودحرها ودحضها. وإثبات غزارة وإعجاز القرآن الكريم من أنه لا يمكن أن يكون بهذا العمق الدقيق إلا من عند الله تعالى. بل ومن مدح الله تعالى وثنائه على كتابه القرآن العظيم أن سماه بآلة النطق ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ فهذا المنطوق باللسان الذي هو القرآن الكريم ﴿عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ فصيح، وأضاف على عروبته أنه ﴿مُّبِينٌ ﴾ وكلمة مبين بمعنى فصيح، وموضح لمقاصده ودلالاته بأعلى درجات الإفصاح، بل متناهي في إبانته إلى ذروته، لأن كلمة ﴿مُّبِينٌ ﴾ من الإبانة التي تعطي دلالة الفصاحة، والمبالغة في الوضوح والإيضاح، بحيث لا تلتبس على العربي. بل يفهمها في أعلى درجات الإبانة من الإفصاح والبلاغة. ففي مضمون هذا البيان إعجاز من الله تعالى لكتابه القرآن العظيم، وفيه تزكية وثناء على نبيه صلى

(١) المرجع السابق (٣٦٥/١٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (١٩٥/٣)

الله عليه وسلم بفصاحته، وأنه أهل لتلقي القرآن المبين. اللهم بلغنا فيه العلو والمقام الرفيع في فهمه والعمل به، بفضلك وكرمك فإنك أكرم الأكرمين يا رب العالمين.

ثم يبين الله تعالى بعد إيراد خبر الطاعنين في كتابه العظيم، وكشف افترائهم من الكذب على الله تعالى، وعلى القرآن الكريم وعلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم يبين عَزَّ وجل جزاء من كفر ولم يؤمن بآياته ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فالذين كفروا بآيات الله تعالى ينالهم أمران عظيمان: الأول: ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ فلا يوفقهم عَزَّ وجل للهدية، وذلك عقوبة لهم على تماديهم في الكفر، وتماديهم على آيات الله تعالى بالطعن والتكذيب، وصد الناس عن القرآن الكريم، بما يفترونه من اختلاق واختراع الكذب. والثاني: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وأنهم موعودون من الله تعالى بعذاب شديد في ألمه ووقعه عليهم. وهذا في الآخرة، بأن جزاءهم جهنم وبئس المصير، وقد يجمع الله تعالى لمن يشاء العذاب في الدنيا والآخرة.

فبعد أن نزه تبارك وتعالى كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم عن الافتراء والكذب، يوضح ويبين عَزَّ وجل صفة من يفتري الكذب، بأنهم متمرسون للكذب، حتى أصبح سجية وخلقاً لهم ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ فالذين يخترعون الكذب على الله تعالى هم ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ فالذين ينكرون آيات الله تعالى، المعجزة في حجيتها ودلالتها، والواضحة في بيانها تفصيلاً وتشريعاً وإخباراً، فيكذبون بها، فإنه ليس بعد هذا الكذب بآيات الله تعالى صفة خلقية، ولا ركيزة يمكن أن تكون باباً لهم للإيمان، لأن سياق ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ تبين أنها صفة ترسخت فيهم، فأصبح التكذيب غير مستغرب منهم، لما انطبعوا عليه من الافتراء، فليس بعد الكفر بآيات الله تعالى حجة يمكن أن يؤمنوا بها، فإن أقوى حجج الله تعالى آياته، ومنها القرآن الكريم، لما فيه من قوة البيان، وظهور الحجة. فإن هؤلاء المكذبين لآيات الله تعالى هم المتصفون والمتخلقون بافتراء واختراع الأكاذيب ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ فالكذب صفة فيهم، لا يستطيعون أن يتخلوا عن الافتراء والاختراع للكذب، فأصبح سجية وخلقاً لهم، فليس هناك كذب أعظم من التكذيب بآيات الله تعالى. ومن دقائق البيان أن الله تعالى حصر في الذين لا يؤمنون بآيات الله تعالى صفة الكذب الدائمة، حتى أصبحت سجية، لأن ﴿ إِنَّمَا ﴾ أفادت الحصر والقصر في الذين لا يؤمنون بآيات الله تعالى أن فيهم صفة الكذب الدائمة، حتى أصبحت سجية لهم. فتكذيبهم ليس عن شبهة، بل عن إصرار وتعمد لما في نفوسهم من الاستعلاء والتكبر.

وازداد تأكيد صفة الكذب فيهم بقوله عَزَّ وجل ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰذِبُونَ﴾ واسم الإشارة ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أفاد التعيين المقصور عليهم بصفة الكذب، بأن من لا يؤمن بآيات الله تعالى، ويكذبها فإن فيه صفة الكذب المتعمد، لأن القرآن العظيم آيات بينة في إعجازه من كل وجه، وأنه من عند الله تعالى. فلا يكذب بها إلا مكابر، فقد أصبحت صفة الكذب ملازمة لمن أنكره. فليس بغريب على من أنكره أن يفتري على الله الكذب.

وفي هذا تصديق لنبوته صلى الله عليه وسلم، وإيمانه، وتزكية من أن يحصل منه افتراء الكذب، فإذا كان الذي يفتري الكذب هم الذين لا يؤمنون بآيات الله تعالى، فإنه لا يمكن أن يقع الافتراء من الذي قد اختاره الله تعالى واصطفاه لرسالته، فأصبح عليه الصلاة والسلام المؤمن الذي يُقتَدى به، ويُهتدى بهديه وشمائله صلى الله عليه وسلم.

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ
بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ
أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ
مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي
كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١ ﴾

لما حذَّر تبارك وتعالى من نقض العهود، ومن أن تزل القدم بعد ثبوتها، وتكذيب من شكك في القرآن الكريم، عقَّب تبارك وتعالى بالوعيد لمن كفر بعد إيمانه ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ وهذه الآية الكريمة تبين منقبة وميزة نزول القرآن منجماً، لما في ذلك من متابعة أحوال المسلمين، ومعالجة أحوالهم، وما ينزل بهم، ففي هذا الآية الكريمة معالجة لأحوال المؤمنين الواقعين تحت فتنة المشركين، وما كان يقوم به أولئك المشركون من محاولة فتنة الراغبين في الإسلام، ممن هم تحت أيديهم، وكذلك الذين أسلموا، ولهم سلطة عليهم. كبلال ابن رباح، وعمار بن ياسر، رضي الله تعالى عنهم.

فيخبر الله تعالى عن كل من كفر بعد إيمانه، وتَبَصُّرِه في الحق، ومعرفته له ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ فإن هذا البيان يخص كل من كفر بعد تحليه بالإيمان، ثم خص تبارك وتعالى بالبيان من شرح صدره بالكفر ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا ﴾ أي: انشراح صدر من كان مؤمناً بالكفر، لأنه دليل على طمأنينته بالكفر، ورضاه وارتياح نفسه إليه، وتفضيله على ما كان عليه من الإيمان، فهؤلاء ينالهم غضب الله تعالى وعذابه العظيم ﴿ فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ فغضب الله تعالى عليه لكفره، ولعدوله عن الإيمان بعد علمه به، إضافة إلى عظيم العذاب الذي سيناله ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ فلهؤلاء لهم عذاب عظيم، لأنهم استحبوا الدنيا على الآخرة، فأقدَمُوا على الردة رغبة في الدنيا، وطمعاً فيما أغراهم به الكفرة الذين أحبو الكفر.

وقد استثنى سبحانه وتعالى غضبه وعذابه عن نوع ممن أعلن كفره، وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ فهو استثناء ممن أعلن الكفر بلسانه فقط، وأما قلبه فليس كذلك، فإنما قلبه مطمئن بالإيمان. فوافق المشركين لفظاً بلسانه، وذلك خروجاً بنفسه من تعذيبهم له، وأما قلبه فهو مطمئن الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم. فالمطمئن الإيمان نطق بالكفر مُكْرَه على قول الكفر ﴿ أُكۡرِهَ ﴾ فقد أُكره وأُلجئ إلى ما يكره أن يكون عليه من الكفر، بالتعذيب والتهديد الذي لا تقوى النفوس على تحمله. ومن دقائق السياق أن الإكراه ورد بصيغة المبني للمجهول ﴿ مَنۡ أُكۡرِهَ ﴾ فلم يُسَمَّى فاعله، ليستوعب كل من أُكرِهِ على الكفر مِن قِبِل غيره، ممن له قوة الإكراه. بل من دقة البيان أنه لم يقل سبحانه وتعالى: أُجبر، لأن الإكراه استوعب وجمع الإجبار مع الإكراه، فإن الإجبار يكون من الغير، والإكراه متعلق بكراهة النفس له، مع انتفاء الإرادة، فهو أعمق دقة في دلالة الإجبار. فالإجبار قد يكون على شيء لا تكرهه النفس، بينما الإكراه متضمناً لما تبغضه النفس ولا تريده.

ومن دقائق البيان الكريم، وجليل فوائده، أن النص الكريم جَمَع جميع من نطق بالكفر تحت اسم الكفر ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ واستثنى الْمُكرَه على الكفر من حقيقة الكفر بعد دخوله في التعميم، بالرغم من أنه ليس بكافر أصلاً، لأن قلبه مطمئن بالايمان، فلم يخالجه شك في إيمانه بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وما جاء به عليه الصلاة والسلام، ولا ارتاب في ذلك، ولا غَرَّتهُ منافع الدنيا، فيكون جَمْعُهُ في صفة الكفر باعتبار ما ظهر منه على لسانه، المماثل لِمَا يظهر من الكافر في التلفظ بالكفر، الذي هو محل حكم الناس عليه، وعلمهم المحصور في ظاهر القول، فأجراه على العموم على ما يظهر للناس،

وأما ما يخفى من حقيقة الإيمان فإنه متعلق بعلم الله تعالى، الذي يصل علمه عَزَّ وجل إلى دواخل القلوب، فهذا ليس هو من فئة الكافرين. وفي هذا بيان وإظهار لعلم الله تعالى بالبواطن التي لا يعلمها البشر، وأن حكم البشر يقتصر على القول بآلة اللسان، وأما ما يكون في حوزة القلوب فهو لله تعالى فقط، ما لم يُفصح عنه صاحبه. لأنه مخفي في القلوب بين العبد وربه تبارك وتعالى، فإنها خفايا قلبية لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، وليس للناس إلا ما ظهر من العباد، وحكمهم وارد على ما ظهر، وأما حوزة القلوب فإنها مخزن الإيمان والحب.

ومن فوائد الآية الكريمة ما ذكره الإمام القرطبي رحمه الله تعالى، أنه: أجمع أهل العلم على أن من أُكرِه على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تَبِينُ منه زوجته، ولا يُحكم عليه بحكم الكفر[١] وهذا يدل على أن منهج الله تعالى يراعي في تعامله واقع الإنسان، وحاله، وما يجري عليه، وما يدفع عنه الأذى. مما يدل على مكانة النفس المؤمنة عند الله تعالى، إذ استثناها من صفة الكفر وإن نطقت به لتتخلص من العذاب والفتنة، طالما أن قلب صاحبها مطمئن بالإيمان، مما يؤكد أن لحوزة القلوب أثر ومكانة، وأنه لا يعلم بحقائق أصحابها إلا الله تبارك وتعالى.

ومن جمال سياق البيان أنه اشتمل على استثناء واستدراك، فالاستثناء لمن أُكره على الكفر وقلبه ثابت بالإيمان ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ وكلمة ﴿ مُطْمَئِنٌّۢ ﴾ تفيد أن الإيمان متحقق إلى درجة السكينة والاستقرار الذي حصل به التصديق الجازم الذي انتفى منه ما يخالفه. وانتفاء الاضطراب والشك والريبة. وأما الاستدراك فهو ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ وليفيد التحرز من تعميم الحكم، باستثناء من قلبه مطمئن بالإيمان. وإثبات أن الموعودون بالعذاب هم الذين انشرحت صدورهم للكفر، فَقَبِلُوا الكفر عن محبة ورضا ورغبة فيه عن الإيمان، فتهللت بالكفر قلوبهم، فحقيقتهم مضادة لحقيقة المطمئن قلبه بالإيمان، ومن دقائق البيان وروعة الوصف وجلاله أن وصف الله تعالى المؤمن الذي أظهر الكفر وأبطن الإيمان ﴿ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أفادت مبالغة المؤمن في إيمانه إلى درجة اطمئنان القلب بالإيمان، وبما يفيد استبعاد الكفر عنه، لوجود الطمأنينة بالإيمان. بينما قابل سبحانه وتعالى طمأنينة المؤمن لدى الكافر بانشراح الصدر للكفر ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ لتفيد المبالغة في الكفر إلى درجة انشراح الصدر به، وبما يفيد استبعاد الإيمان عنه. فالكافر الموعود بالعذاب منشرح الصدر بالكفر، وضائق قلبه بالإيمان، والمؤمن ضائق صدره بالكفر، ومطمئن ومستشعر لحلاوة الإيمان، فهي دقة في المقابلة بين قرار إيمان المؤمن في قلبه، وانشراح صدر الكافر بكفره، بل حصل التضاد حتى في موطن البيان، فموطن بيان إيمان المؤمن في قلبه، وموطن بيان الكافر ورد في انشراح صدره.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٩/١٠)

ومن دقائق البيان أن القلب أخص من الصدر، كما قال تعالى في سورة الحج ﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ فالقلب موطن الإيمان والحب، والخشوع واليقين والخوف، وأما الصدر فهو أعم، وهو موطن الانشراح والضيق. فكأن القلب يضيق بالكفر ويرفضه ولا ينشرح له، فلا يحتمله، لأنه منافي للفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، فورد شأن الانشراح بالكفر في الصدر، الذي هو محل الانشراح والانقباض. والله تعالى أعلم.

ثم يُعلل سبحانه وتعالى كفر من شرح بالكفر صدراً، بأنه نتيجة عامل التفاضل في نفوسهم، فأحبوا الدنيا على الآخرة، ليتبين أن استحبابهم للكفر ليس نتيجة جهلهم بآيات الله تعالى، ولا لوجود علل في الفهم، بل نتيجة عوامل التفاضل السريع ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فنتيجة استحبابهم للحياة الدنيا خرجوا بهذا الاستحباب من الإيمان، وقدموا عليه الكفر. وهذا نتيجة لغرورهم بحطام الدنيا وزينتها الزائلة، وتفضيلهم لها على الآخرة، فآثروا وقدوا الزائل على الباقي، فارتدوا عن دين الله تعالى بعد علمهم ومعرفتهم بها.

وقد بدأ النص الكريم باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي حمل دلالتين متضافرتين غير متضادتين، ليتأكد ويتبين بهما سعة اللفظة في كتاب الله تعالى، لتستوعب الدلالات من غير تكرار، فقد أفادت كما قال الإمام الشوكاني أنها: إشارة إلى الكفر بعد الإيمان، أو إلى الوعيد بالغضب والعذاب(١) أي ذلك الكفر، وكذلك أفادت: ذلك العذاب ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ﴾ أي ذلك العذاب والغضب واقع على من كفر بعد إيمانه لعلة ﴿ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فالسبب هو أنهم ﴿ ٱسْتَحَبُّوا۟ ﴾ ولم يقل تبارك وتعالى بأنهم أحبوا، فوردت السين هنا لتعطي زيادة في المعنى، وهو المبالغة في حب الحياة الدنيا ﴿ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فامتد غور حبهم للدنيا على الآخرة إلى أقصى غايته، إمعاناً في تفضيل الدنيا على الآخرة، واستعجال ما في الدنيا من زينة، فارتدوا عن دين الله تعالى بعد علمهم ومعرفتهم بها. مما يفيد أهمية الانتباه لغرور الدنيا، فقد تجعل الإنسان يرفض الحق الذي يعلم أنه حق، ويأخذ بالباطل الذي يعلم أنه باطل، وذلك استعجالاً وذهولاً ببريق الدنيا وزينتها، مما يجعله يتغافل عن الحق، ويتلهف على نتيجة الباطل المملوء بالغرور. فأوقع تبارك وتعالى كفرهم على تفضيلهم الحياة الدنيا على الآخرة، غروراً بها، ومحبة لها، لينتفي بذلك أن يكون كفرهم نتيجة جهل، أو عدم فهم، أو خلل في الحجج، فليس كفرهم متعلق

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٩٧/٣)

بسبب غير سبب محبتهم للحياة الدنيا على الآخرة، واستعجالهم العاجل على الآجل، فقدموا الكفر على الإيمان لاعتبار الحب الناجم عن المفاضلة بين الحياة الدنيا والآخرة. وفي هذا تنبيه للمؤمن من اغراءات الدنيا، وتنبيه لأسس المفاضلة. وفي هذا البيان من الله تعالى ما ينبه فكر الإنسان، ويقوي فكر المؤمن، للبواعث على الأشياء، وأهمية استقامتها، والنظر إلى ثمرتها الحقيقية، وليست الثمرة الزائلة، التي تعقبها خسارة لا يمكن تعويضها أبداً.

ثم يبين الله تبارك وتعالى عقابه لهم، بعدم توفيقهم وهدايتهم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فبسبب ارتدادهم عن دين الله تعالى بعد إيمانهم، ومعرفتهم لحقيقة الإيمان، وخروجهم عن الإسلام والإيمان، وذلك إيثاراً منهم للدنيا على الآخرة، فإن الله تعالى لم ولن يوفقهم للهداية عقوبة لهم، فلا يلج إلى قلوبهم الخير. ومن إبداع النص الكريم، ودقة سياقه أن الله تعالى بدأ ذلك الحكم عليهم بأداة التأكيد ﴿ وَأَنَّ ﴾ فيتأكد بها ما بعدها، بأن الله تعالى ﴿ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ لا يهدي من كفر، وامتنع عن الحق المبين الواضح، فكيف بمن دخل في الإيمان ثم خرج منه. وفي امتناع هداية الله تعالى لهم، دليل على قوة العقوبة، وأنهم مستمرون في الكفر والباطل، وعدم توفيقهم من الله تعالى للحق بعد انشراح صدورهم بالكفر. مما يبين أن الكفر أعظم الذنوب، لأن الله تعالى ما خلق الخلق إلا لعبادته وحده لا شريك له.

ثم يبين الله تبارك وتعالى المزيد من وصف قوة عقوبة أولئك الذين ارتدوا كفاراً بعد إيمانهم، وتشنيع صنيعهم باستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ فأولئك الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فخرجوا من الإيمان إلى الكفر بعد دخولهم فيه، طمعاً في حطام الدنيا، فإن عقابهم من الله تعالى هو البقاء على كفرهم، وذلك بمنع حواس التعلم والتلقي والتدبر من تحصيل الخير الذي يُخرجهم من الكفر، فختم الله تعالى على قلوبهم بالكفر ﴿ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ فلا تقبل الخير، وكذلك طبع على سمعهم ﴿ وَسَمۡعِهِمۡ ﴾ فختم على سمعهم من أن يسمعوا آيات الله تعالى استماع تدبر وتَمَعُّن واستهداء ﴿ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ فختم على أبصارهم فلا يرون البراهين التي تنتفع بها القلوب.

وجاء سياق البيان باسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذي أفاد الإبعاد والتقليل من شأنهم، أولئك الموصوفون بفعلهم القبيح، بارتدادهم إلى الكفر بعد إيمانهم، وبلغ بهم الكفر إلى درجة أن انشرحت صدورهم به. ثم وصف سبحانه وتعالى نوع عقوبته لهم بالختم ﴿ طَبَعَ ٱللَّهُ ﴾ الذي يفيد الإلجام والمنع والختم من دخول

الخير إليهم. ثم ذكر سبحانه محل وقوع الطبع، وذلك بتعيين موقعه منهم ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ فإن الطبع متكفل بمنع الثلاثة الجوارح الأساسية للتعلم والفهم من تحصيل الانتفاع بالخير، وذلك بمنع إدراكها وتلقيها لما ينفعها في آخرتها، فبدأ سبحانه وتعالى بالقلب الذي هو مقر الإيمان للفرد، فيستحيل عودة الإيمان إليه، وكذلك وقع الطبع والمنع والحجب على حاسة وآلة السمع من أن تسمع ما يُمكّنها من الاستماع الذي يحصل به التدبر والتفكر. ووقع الطبع والحجر والمنع والإلجام على حاسة وآلة البصر التي يبصر بها الإنسان ما يشده إلى الإيمان، فانطفأ نور البصر والبصيرة عن موجبات تحصيل الإيمان من الآيات الكونية التي تحيط بهم. فإنها عقوبة قد ناسبت الجرم ونوعه وطريقته ومقاصده. مما يفيد الحذر من تقديم مراد الهوى على مراد الله تعالى، وألا يغتر الإنسان بملذات الدنيا ومغرياتها، وأن يسأل الله تعالى الهداية، والمغفرة، وثبات القلب على الإيمان. فنسأل الله تعالى المغفرة والثبات والهداية والتوفيق لما يحبه ويرضاه، وأن يجعلنا هداة مهتدين.

ثم يخبر الله تعالى عن صورة ونوع هؤلاء المرتدين ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ فأولئك المشار إليهم، الذين ارتدوا عن الإيمان هم المتصفون بالغفلة، فهم الذين يحملون صورة وهيئة الغفلة في نفوسهم، ففي اسم الإشارة ﴿هُمُ﴾ أفاد التعيين، أي: أن أولئك المعينون، متلبسون ومتصفون بالغفلة وممارسون لها، حتى أصبحت صفة لهم، ومرتبطة بهم، ووشاح لهم وعلامة، فاتصفوا بعدم التمييز، وإهمالهم لما ينفعهم، ووقوعهم فيما يضرهم، وتركهم للخير الماثل أمامهم، والواضح لهم وضوحاً لا شك ولا ريب فيه. مما يدل على أن هذه الصفة تجعل الإنسان يقدم على الشر ويترك الخير، بسبب سوء استعماله لحواسه، وسوء تحليله وتفكيره وتدبيره، وقصور النظر على الحاضر، دون النظر والاكتراث بالقادم، والاهتمام به، وتقديم محبة العاجل على الآجل. وأن صنيعهم فَوَّت عليهم عظيم الخير، وأودعهم في شراك الشر. وفي هذا بيان من أن القرآن الكريم يُبَصِّر الإنسان، ويُفَتِّح عقله على الخير، وينمي فكره، ويربيه على اليقظة والانتباه، وعدم الغرور بالمغريات الفانية. فنعمة القرآن عظيمة. اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا.

ثم يؤكد جَلَّ جلاله خسارتهم في الآخرة ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ فحقاً وصدقاً أن هؤلاء هم البالغون لكمال الخسارة في الآخرة، فليس هناك أكثر خسارة منهم، فقد خسروا الفلاح والنجاة من العذاب، فإنهم واقعون في أشد وأنكل أنواع العذاب، فليس هناك خسارة أوقع مما وقعوا فيه، في آخرتهم. وتضمن السياق الكريم دقائق الإبداع في تحرير الوصف، ابتداء من مطلع الآية الكريمة، التي تصدرت بالوصف والتأكيد ﴿لَا جَرَمَ﴾ والتي أفادت الجزم بالصدق والحق لما

بعدها من البيان، ثم كلمة ﴿أَنَّهُمْ﴾ والتي أفادت الحصر لهم، مسبوقة بحرف **(أن)** التي أفادت المزيد من التوكيد، بأن هؤلاء هم ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ والتي أفادت تحديد الزمان والمكان لهم، بأنه في الآخرة، ثم حددت نوع ما سيكونون عليه ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ فإن هؤلاء هم الذين تحققت لهم كمال الخسارة، فَحُصِر كمال الخسارة فيهم. فقد اشتروا النار، بمنازل الجنان، فاستعاضوا عن منازل أهل الجنة بالخلود في النار، وبالتالي تحقق فيهم كمال الخسارة، فأصبحوا هم الخاسرون حقاً.

ثم ينتقل البيان الكريم من الله العزيز الحكيم إلى ثواب وجزاء الذين فتنهم الكفار من المؤمنين، فجاهدوا أنفسهم على التمسك بالإيمان، وصبروا على الأذى ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فافتتح الله تبارك وتعالى الآية بحرف ﴿ثُمَّ﴾ الذي أفاد تتابع البيان، حتى يظهر للْمُخَاطَب تباعد الفروق بين أهل الإيمان وأهل الكفر الذين ارتدوا بعد إيمانهم، ويتبين للْمُخَاطَب التغاير العظيم بين مسلك الذين ارتدوا، فخرجوا عن الإيمان إلى لكفر، وبين الذين صبروا، كما تبين وتوضح الجزاء، وأنه اختلف باختلاف ما كان عليه الفريقان، وتباينت محصلة قرار تفكير كل فريق، ومسلكه، والأسباب التي اعتمدها واتخذها، والنتيجة والمحصلة التي نالها وحصَّلها كل فريق، لتكون الحالتان درساً وعظة لكل أحد من الناس. وكذلك ليتبين منها منهجية الفوز والنجاة، ومنهجية الغفلة والاستعجال، وما يؤدي كل منهما إليه، سواء من الخير والفلاح أو الشر والخسران. وليكشف تسارع الأزمان، وأثر ونتيجة كل قرار.

وقد توجه الخطاب مباشرة من الله تعالى إلى لنبي صلى الله عليه وسلم بقوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ليفيد هذا التنصيص في هذا الخطاب الكريم: تكريم النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك تكريم المؤمنين الصابرين بمخاطبة نبيهم في شأنهم صلى الله عليه وسلم، وإكرامهم ببيان جزاء صبرهم وهجرتهم وجهادهم. وجعل الله تعالى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم مقرونة ومتصلة بالربوبية ﴿رَبَّكَ﴾ لعلو منزلتها، ومدحاً للنبي صلى الله عليه وسلم، ومسبوقة بحرف التأكيد ﴿إِنَّ﴾ الذي أكد ما بعده. ثم أخبر الله تعالى بخبر حال المؤمنين الذين فُتِنُوا وما كان لهم من تتابع في الخير، وما سيجدونه من الله تعالى، فحصر الوصف سبحانه وتعالى فيهم ﴿لِلَّذِينَ﴾ ليفيد أنهم مخصوصون بما يبينه الله تعالى لهم، وذلك تماشياً مع خصوصية ما أصابهم، وما كان منهم، فما كان منهم الهجرة ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ أي هاجروا من ديارهم إلى المكان

الذي هاجروا إليه، ومن دقائق البيان أن الله تعالى لم يذكر مكان الهجرة، وإنما ذكر فعل الهجرة والانتقال، ليستوعب من هاجر بدينه إلى الحبشة، ومن هاجر إلى المدينة، فاستوعبت دلالة الهجرة تعميم المكان وعدم ذكره، ليتسع ويستوعب من هاجر إلى الحبشة، ومن هاجر إلى المدينة. وهذا إعجاز في البيان عظيم.

ثم ذكر سبحانه وتعالى دواعي الهجرة من أنها حصلت بسبب ما وجدوه من فتنة قومهم لهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ والفتنة هي شدة الأذى والعذاب الشديد، الذي يلازمهم به من يفتنهم عن دينهم، مثل بلال بن رباح وعمار بن ياسر ومن معه، رضي الله عنهم. ومن بديع مضمون السياق أن ورود الفتنة من قومهم جاء بصيغة المبني للمجهول، فَغَيَّب نوع ما فُتِنُوا به، وكذلك الفاتنين لهم، وذلك لاختلاف نوع الفتن التي فُتِنُوا بها، واختلاف الفاتنين في علاقتهم بهم. فاستوفت العلاقة بين الفاتن والمفتون، سواء كان عبداً مع سيده، أو قريباً مع قريبه. فكانت غاية في الإعجاز البياني.

ثم يخبر الله تعالى بأن حال أولئك المؤمنين بعد ما فُتِنُوا وتمكنوا من الهجرة، وتركوا مواطنهم في مكة، ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ فشاركوا المؤمنين بالجهاد في سبيل الله تعالى، وانتظموا في سلك المؤمنين، ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ على مشاق ما أصابهم، وعلى تكاليف الجهاد، وغيره من لوازم الحال الجديد، وصبروا على ما فاتهم نتيجة هجرتهم من مواطنهم. ففي هذا التنويه بصبرهم دليل على قوة المشاق التي لحقتهم، ومع ذلك ثبتوا، متحملين مشقة ومكاره ما أصابهم. إن في ذلك كشف لصعوبة مسارهم بأقل الألفاظ، وأحسن الوصف، وأجمل وأطيب الجزاء وأكمله لهم، من الله تعالى. حيث أوضح وبيَّن الله جَلَّ جلاله حظهم من كرمه عَزَّ وجل عليهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن الله تعالى من بعد تَحَمُّلهم لما فتنهم به الفاتنون حتى تلفظوا بالكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، وهجرتهم من مواطنهم، ومشاركتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بالجهاد في سبيله سبحانه وتعالى، وصبرهم على مشاق ما أصابهم، فإن الله تعالى من بعد كل هذه المذكورات لغفور لذنوبهم، ومحوها، وكذلك تنالهم رحمته سبحانه وتعالى، فَيُصْلِحُ أحوالهم وتستقيم أمور دينهم ودنياهم.

ومن جميل البيان ودقته أن تصدرت ﴿إِنَّ﴾ لمغفرة الله تعالى لهم، ورحمته بهم، لتفيد التوكيد وثبات ما وعدهم به سبحانه وتعالى، إضافة إلى أن تصدرت على المغفرة والرحمة وتقدمت عليها جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ التي حملت اقتران النبي صلى الله عليه وسلم بما حظوا به من المغفرة والرحمة، أي: إن ربك يا محمد، صلى الله عليه وسلم، وبالتالي تعطي دلالة رفعة منزلة النبي عليه الصلاة والسلام، وكذلك علاقته بهذا الأمر، واهتمامه بأمته، وكونه الذي يدعوهم إلى الإسلام، ويرعى شؤونهم الدينية، ويهتم بحالهم ومآلهم.

ثم يصف الله تعالى لعباده الحال التي ستكون يوم القيامة، وحال العباد فيها، ليكون في ذلك نذارة وبياناً ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقد حدده الله تعالى بيوم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ ليفيد عظمة قدرة الله تعالى في الحساب، فلا يمنعه شيء عن شيء، وكل أحد من الناس يأتي بذاته، فلا نائب عنه وله ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ والمجادلة: المحاجة بالاعتذار، للتخلص مما كان منها من السوء، فتدافع عن نفسها، رجاء أن تدفع العذاب والجزاء عن ذاتها، وانشغال كل عبد بنفسه إلى درجة عدم الالتفات لغيره ممن يعزهم ويحبهم من أب أو أم أو أخت أو أخ أو ابن وبنت أو زوجة، فإن فيها وصف لحقيقة سوف تكون حاصلة يوم القيامة﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فتُعطَى كل نفس ما تستحق من خير أو شر، على أعمالها في الدنيا، فذلك اليوم هو يوم حصاد لما زرعت كل نفس في دنياها، ليفيد التحذير، والتعليم، وأخذ الحيطة والحذر، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، والثمرة تكون في الآخرة، فمن غرس خيراً وجده، ومن غرس شراً حَصَّله ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يظلم سبحانه وتعالى أحداً من العباد، فلا يجازي أحداً بغير ما اكتسب، فلا يزيد للمذنب عما يستحق من العذاب، ولا ينقص ويجحف للمستحق من حقه في الخير والثواب، فالقضاء عادل لا محالة من الله تعالى، وفي هذا تأكيد الاستيفاء بنفي الظلم بعد أن ذكره تبارك وتعالى بكمال الوفاء ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾. وهو وفاء ما تستحق، كاملاً غير منقوص، ليتوافق مع ما عملت كل نفس من خير أو شر ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ فهناك توافق بين العمل والجزاء، من غير ظلم.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾
وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ

لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

فبعد التحذير والتعليم بالكشف عما يكون في يوم الحساب، ينتقل البيان الكريم إلى الوعظ والإرشاد بضرب المثل الذي يكشف حال من أنعم الله تعالى عليه بكافة النعم، ثم يقابلها بالكفر والجحود، فإن الله سبحانه وتعالى يعذبهم بما يستحقون في الدنيا، ليكون في هذا البيان المزيد من التحذير، بأن العقوبة الأولى قد تكون في الدنيا بأشد ما يكون، فيلزم الموعوظ الحذر، ولزوم الطاعة والانقياد لما جاء عن الله تعالى. فقال عزَّ وجل ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾

وبأسلوب مشوق لمتابعة المثل، والتبصر والتأمل فيه، فإنه يتصدر الآية الكريمة جملة ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ ليتشوق الْمُخَاطَب إلى محتوى المثل، وما وراءه من القصد والمعاني والدلالات، فنسب الله تعالى ضرب المثل له، ليبين مقام هذا المثل وأهميته، وعلو مكانته، ومقاصده. والمثل يحمل دلالة النظير، والشبيه، ليفيد التنبيه على التماثل بين ما يكون عليه بعض المخاطبين الواقعين فيما يحمله المثل، وبين مصير وما نال المضروب بهم المثل.

والمثل المضروب هو قرية قد امتن الله تعالى عليها بأنواع من النعم ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ والمراد بالقرية أهلها، ويقصد بها مكة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وهو الصحيح(١) وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى أن الأرجح أنها قرية غير معينة، بل كل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة، ولأن تنكير قرية يفيد ذلك، ومكة تدخل في هذا العموم دخولاً أولياً، وأيضاً يكون الوعيد أبلغ، والمثل أكمل، ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها(٢) وهذا الاختلاف هو اختلاف توافقي من حيث أن ما كان من أهل مكة، هو مماثل لكل قرية وأمة تكفر بأنعم الله تعالى، فيكون المثل المضروب من الله تعالى عام، ومن باب أولى يدخل أهل مكة فيه، باعتبار ما حصل من كفار قريش، فإنه مماثل لأهل مكة التي أنعم الله تعالى عليها بالأمن والطمأنينة والرزق بدعوة خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فجاء الاختلاف في الدلالة باعتبار قوة بيان النص الكريم وبلاغته، ليستوعب ذلك الاختلاف التوافقي، فهو قوة وإعجاز بياني في سعة دلالته.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٦٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣/١٩٩)

وقد كانت القرية ترفل في نعمة الأمن ﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ فكانت في سلامة من الخوف، الذي يمكن أن يكون من عدوها لهم، أو من أي سبب آخر، فقد جاء الأمن عاماً، ليشمله من كل وجه، سواء الأمن من العدو، أو أمن من قلة وشح فيما تحتاجه، وغيره من محققات الطمأنينة. بل وزاد التأكيد بصفة أخرى عظيمة التحق والدلالة والمعنى، وهي دلالة كلمة ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ أي في سكون، قد انتفى الازعاج عنها، فحصل لأهلها هدوء البال، وراحة النفس، لأن الطمأنينة ثمرة من ثمار تحصيل الأمن، ولا تتحقق الطمأنينة من غير تحصيل الأمن، فجاء تتابعها تأكيداً، وبلاغة بيانية، ومحصلة عظيمة. مما يفيد أنه من كان في أمن وطمأنينة فإنه في فضل عظيم من الله تعالى، فعليه أن يشكر ربه تبارك وتعالى، ويحافظ على ما هو فيه، بلزوم طاعته لله تعالى، والانقياد لأوامره، وكذلك المجتمع الذي ينعم بالأمن والطمأنينة فإنهم في نعمة جليلة، ومحصلة عظيمة.

ثم يزيد سبحانه وتعالى من البيان عن دقائق ما امتن به على أهل هذه القرية من الإنعام ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ فيأتيها الرزق بفضل الله تعالى في يُسر وسهولة، وكذلك من كل ما ليس في أرضهم وبيئتهم، فجعل تبارك وتعالى الرزق هو الذي يأتي إليها ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ بما يدل على تدفق الرزق وأسباب تحصيله، فلا مشقة عليهم في ذلك، وقد وصفه عَزَّ وجل بالرغد ﴿ رَغَدًا ﴾ أي: الواسع والطيب، فدل على الكثرة وعلى الجودة، فتتلذذ به النفوس، وتستمتع به نوعاً ومذاقاً وكثرة وحلاوة وجودة. فاستوعبت ﴿ رَغَدًا ﴾ جميع الأوصاف الكاملة لصفة الرزق الذي يحمل الخير من كل وجه، بل يأتي هذا الرزق لأهل القرية ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ فيأتيهم مما ليس في أرضهم، من غير تخصيص ولا تحديد لمكان معين ومحدد، فجملة ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ نفت تحديد المصدر للرزق، وحصره في جهة معينة ومحددة، بل إن الرزق يتوافد عليها من كل حدب وصوب، مما يدل على الكثرة والتنوع الذي قد تحقق به رغد العيش. وهذا امتنان عظيم على أهل هذه القرية بما أعطاها ومنحها سبحانه وتعالى، وسخره لها. فماذا كان منها تجاه هذه النِّعَم الجليلة الكثيرة؟

فقد قابل أهل هذه القرية ذلك النعيم بالكفر ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ فجحد أهل هذه القرية ما أنعم الله تعالى به عليهم، وأعلاه الامتناع عن توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، مما يفيد أن كفرهم شامل لجميع ما أنعم الله تعالى به عليهم، ومنها نعمة العبادة، ونعمة التوحيد، ونعمة الرسالة والرسول إليهم، ونعمة رغد العيش، ونعمة الأمن والطمأنينة، ومن كفرهم أنهم لم يشكروا الله عَزَّ وجل، فكفروا بالله تعالى، وأنكروا رسالة

الرسول. ويُستفاد من جمع القلة لكلمة ﴿بِأَنۡعُمِ﴾ من قوله تعالى ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ ما يدل على أن جميع هذه النعم العظيمة والكثيرة من الأمن والطمأنينة ورغد العيش، وإرسال الرسول إليهم، يعتبر قليل بالنسبة لما عند الله تعالى من النعيم المقيم. فمع كل ذلك النعيم تركوا ما هو أكثر منه، ولم يرشدوا بما أعطاهم في الدنيا على الكثير العظيم في الآخرة. فكان الجزاء من الله تعالى ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ فنتيجة كفرهم أذاق الله تعالى أهل هذه القرية ﴿لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ فسمى الله تعالى ذلك الجوع والخوف لباساً، لأنه يُشَكِّل فيهم المظهر الخارجي، من أثر الجوع، كالهزل وشحوب اللون، وسوء الحال. وأما الذي هو من أثر الخوف، فهو الارتباك، والقلق، وما ينجم عنهما مما يُضاد الأمن والاطمئنان، فاستعير له اسم اللباس، ليكون أوفى في الوصف وأشمل وأدق في إظهار الحال والبيان.

ومن دقائق البيان كذلك أن الله تعالى وصف ما حصل لأهل هذه القرية بالذوق والاستطعام ﴿فَأَذَٰقَهَا﴾ فدلالة الذوق لإدراك المشقة، لأن الذوق أبلغ في الشعور من جميع الحواس، فَصَوَّر أثر ما أصابهم بقوة ما يتذوقون بألسنتهم، والتي هي أدق الجوارح وأكثرها إحساساً وتأثراً. فَقَرَّب الوصف بألفاظه الدقيقة للمُخَاطَب صورة وحال وشدة ما أصابهم من قوة أثر استطعام جارحة اللسان. وهذه من بلاغة البيان العقابي، ليجتمع العقاب الحسي والعقاب المعنوي في آن واحد.

ثم يبين الله تبارك وتعالى كمال عدله، من أن ما أصابهم هو نتيجة ما صنعوه ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ فما جاءها من العذاب هو بسبب صنيعهم من الكفر والبطر. وفي هذا المثل تنويه للمخاطبين من كفار قريش، بأن ما هم فيه كمثل ما كانت عليه تلك القرية التي ضربها الله تعالى لهم مثلاً، فهم في أمن وطمأنينة، وحُرمة المكان، وجوار بيت الله تعالى، وقد جعل الله تعالى هذا البيت آمناً، فتحقق لهم الأمن بما حققه الله تعالى وقضاه لهذا البيت العتيق، وأنعم عليهم برحلة الشتاء والصيف، فيأتيهم رزقهم من كل مكان. ففي هذا المثل تشابه والتصاق بين المخاطبين ذلك الوقت وبين تلك القرية، وتتسع فائدة وسلطان هذا المثل لكل وقت، ولكل فرد. فهي موعظة عظيمة الأثر، وعظيمة الدلالة، وفيها تعليم وتحذير. ومن دقائق البيان ما ذكره الفراء رحمة الله تعالى عليه: أن كل الصفات أُجريت على القرية

إلا قوله تعالى ﴿ يَصۡنَعُونَ ﴾ تنبيهاً على أن المراد في الحقيقة أهلها[1] وهي لفتة لدقائق البيان في القرآن الكريم.

ثم يبين الله تبارك وتعالى العلاقة بين المثل المضروب وبين أهل مكة ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ فلقد جاء لأهل مكة رسول من جنسهم، فهو من أهل مكة، يعرفونه، ويعرفون أخلاقه، ويعرفون نسبه، كمثل الرسول الذي بُعِث في القرية المضروب بها المثل، فدعاهم لما ينفعهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عما يضرهم في الدنيا والآخرة. فلم يقبلوا ما جاءهم به، فكذبوه ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ فأهلكهم العذاب الذي أوقعه الله تعالى بهم، وكان أخذ العذب لهم حال ظلمهم لأنفسهم بالكفر والمعاصي، وظلمهم لغيرهم، بصدهم عن سبيل الله تعالى، فأضلوا غيرهم عن الحق الذي يحقق لهم النجاة في الدنيا والآخرة. ومن رحابة البيان أنه يصدق على أهل القرية، ويشمل ما حصل لصناديد قريش في غزوة بدر، من القتل والأسر.

ثم توجه الخطاب مباشرة من الله تعالى إلى عموم المسلمين، بأن يستمتعوا بالحلال الذي رزقهم إياه، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ فكلوا مما أفاض الله تعالى عليكم من الرزق حلالاً لا حراماً، وطيباً لا خبيثاً، ثم اشكروا الله تعالى على ما أفاض عليكم من نِعَمه سبحانه وتعالى، فإن كنتم تعبدون لله تعالى، فأطيعوا فيما أمركم به ونهاكم عنه، واشكروه جزيل الشكر على ما فاض عليكم من نِعَمِه عَزَّ وجل.

وقد دل سياق الخطاب أنه موجه للمسلمين عموماً وليس لعامة الناس، لأن الأمر جاء مقروناً بصفة الحلال والطيب ﴿ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴾ وهما صفتان لا يكترث بها غير المسلم. كما أمر التوجيه الكريم بالشكر، والشكر مخصوص به المسلم، فالكافر لا يكترث بذلك.

وورد التوجيه الكريم بصيغة الأمر ﴿ فَكُلُواْ ﴾ ليعطي دلالة العناية والاهتمام والامتنان بعباده المسلمين، وأفادت كلمة ﴿ مِمَّا ﴾ التبعيض، لكثرة نِعَم الله تعالى، التي لا يمكن أن يدرك الإنسان تحصيلها مجتمعة في وقت واحد، فكلوا منها ما تيسر لكم، وهذه دقة عميقة في البيان التوجيهي من الله تعالى. وقد نسب

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣/٢٠٠)

سبحانه وتعالى الرزق له عَزَّ وجل ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فَيُثبت سبحانه وتعالى أن الرزق منه إليكم، فما تجدونه من الرزق هو عطاء من الله تعالى، سواء في كثرته، أو تنوعه، أو في استمراره وديمومته.

ثم ذكر سبحانه وتعالى صفتين كريمتين للرزق المأمور بأكله ﴿ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ والحلال يكون على الأصل، إلا ما حرمه الله تعالى، ويكون أيضاً على استيفاء ما يجعله حلالاً، ولا يدخل فيه الحرام، سواء من حيث كسبه وتحصيله، أو من حيث استعماله وتغييره عن حِلّه، كتحويل العنب والتمر إلى خمر، فيكون خالياً من موجبات التحريم، فيكون مما أُذِن فيه شرعاً. وأما صفة الطَّيب ﴿ طَيِّبًا ﴾ أي لا شر فيه، وهو ما تتلذذ به الحواس، كحاسة الذوق، وتستطيبه النفس، وحاسة اللمس، وحاسة النظر إليه. فإن الأصل في رزق الله تعالى أنه مستطاب للنفس وللذوق والجوارح، ويشمل كذلك ما أجازه وأباحه الشرع، وما أمر به في طريقة استعماله، كالتذكية، والتسمية. فالطيب هو ضد الخبيث الذي تستكره النفس، فصفة ﴿ طَيِّبًا ﴾ زيادة على كونه حلالاً. فهما صفتان تستوفيان ما استوجبه الشرع في المأكول، وما يتعلق بسننه، وما يتعلق باستطابة النفس له. فإنها بلاغة الاستيفاء في أروع وأجمل سياق، فأعظم به من إعجاز.

ثم يقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ وهو أمر بالشكر والثناء على الله تعالى لما رزقكم من الرزق، وهيأ لكم أسباب تحصيله. فلولا تهيئة الله تعالى لكم به، لما تمكنتم منه، سواء من حيث الإيجاد، والإنبات، أو من حيث تهيئة أسباب التحصيل له، وأداء الشكر دليل على عبادتكم له سبحانه وتعالى، واعترافكم له بما أنعم ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ مما يفيد أن شكر العبد لربه تبارك وتعالى هو عبادة من العبادات التي يلزمه القيام بها، بل إنها دليل على إفراد العبد لربه تبارك وتعالى بالعبادة، لأن في شكر العبد لله تعالى اعتراف منه بأن ما هو فيه من نعمة هو من الله عَزَّ وجل. وأن أداء الشكر لله تعالى مبين لطاعة العبد لربه، واعترافه بأنه سبحانه وتعالى هو الذي أنعم عليه بما هو فيه من النعم، وأن ما يقوم به من كسب الرزق ما هو إلا من باب الأخذ بالأسباب.

كما أن الشكر شرط لتحقيق العبادة، فالمأمور به هو ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ وهو شرط لتحقق إفراد الله تعالى بالعبادة، ودلالة على صدق الشاكر في عبوديته ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فجعل الشكر شرطاً لحقيقة العبادة، والصدق فيها، فإن كنتم تعبدون الله تعالى فحققوا شرطه، الذي هو توجيه الشكر لله تعالى وحد لا شريك له. لأن الشكر اعتراف من العبد بأن ما هو فيه من نعمة فإنها من الله تعالى.

ثم يتدرج البيان من الحلال العام إلى الحرام المخصوص، ليدل على أن الأصل هو الحلال ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفي هذا الاستثناء المتعلق بالأنعام، ما يشير إلى أن من ضمن فروع الحلال الطيب هو الحيوان، باعتبار ما ورد من تخصيص الميتة والدم ولحم الخنزير بالتحريم، مما يفيد سعة دلالة النص الكريم، ليشمل عموم الرزق، مع تخصيص ما خصصه سبحانه وتعالى من التحريم. وقد فسر الطبري ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ باعتبار ما بعدها، فقال: مذكاة غير محرمة عليكم[١] وهذا الوجه باعتبار الربط بين الآيتين، وحصر دلالة الأولى بالآية الثانية، وهو نتيجة إعمال الفكر في الاستنباط، ولا تضاد بين ذلك، فالآية السابقة عامة، وخصصت من العام ما يخص المذكورات من المحرمات، وهذا بلاغة وإعجاز في البيان من الله تعالى، ليستوعبه من غير تضاد الدلالتين. فسبحان الله العظيم.

وبدأ التوجيه الكريم من الله سبحانه وتعالى بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ لتفيد اقتصار التحريم من عموم ما رزقكم الله تعالى حلالاً طيباً هذه المذكورات، فبدأ سبحانه وتعالى بالميتة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ وهي: التي ماتت حتم أنفها، ففارقتها الروح من غير ذكاة، ومن سعة دلالة الكلمة أنها بينت طريقة الموت، ولم تحديد وسيلته، لتستوعب جميع الوسائل والأسباب، ومنها ما استجد في هذا الزمن، كالصعق الكهربائي، وهذه من معجزات التوجيه الرباني في القرآن الكريم، فهذا النوع من المحرم يحتبس الدم في لحم الميتة، فيبقى لحمها مملوء بالدم الذي حرمه الله تعالى، لما فيه من الضرر على الإنسان. ويستثنى من ذلك الحوت والجراد كما جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم (أحلت لنا ميتتان: الحوت والجراد، ودمان: الكبد والطحال) [٢] كما تناولت الآية الكريمة تحريم ﴿وَٱلدَّمَ﴾ ومعنى الدم: أي المسفوح السائل، وكذلك لحم الخنزير ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ لِخُبْثِه، وكذلك ما ذُبِحَ لغير الله تعالى ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ كالتي تُذبح للآلهة، أو للشياطين. فهذه محرمة، وقد تناولتها الأحكام الفقهية بالتفصيل في كتب الفقه ولله الحمد.

ولكن من رحمة الله تعالى ولطفه بعباده أن أباح لهم في حالة الاضطرار الأَكل من تلك المحرمة بما يرفع عنهم ضرر الحاجة، فإذا خاف على نفسه الموت من الجوع، فيأكل بقدر حاجته. ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٨٧/١٤)

(٢) أحمد، المسند (١٠/١٥-١٦) برقم (٥٧٢٣) وصحيح ابن ماجه برقم (٢٦٩٥)

﴿ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيأكل بقدر حاجته. فقيد ذلك بأنه ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ أي: فإن أكله لهذه المحرمة على هذه الحال غير طالبٍ ومريد ومُبْتَغِي لِمَا حرم الله تعالى، ولا متعدي بمجاوزة الحد، فلم يكن الدافع للأكل منها إلا الاضطرار؛ وهو الخوف من هلاك النفس بسبب الجوع. فإن الله تعالى غفور رحيم تجاه هذا الاضطرار ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر ما حصل من الأكل، ورحيم بهم في إباحة ما حرم عليهم عند الاضطرار. فهذا من رحمة الله تبارك وتعالى. كما أن من فوائد الآية الكريمة: عناية الشريعة بحياة الإنسان؛ منعاً وإباحة، إذ حرم الله تبارك وتعالى عليه ما يضره، وأباح له عند الاضطرار ما يمنع عنه الهلاك من غير تجاوز. وهذا يعبر عن منزلة ومكانة النفس في الإسلام؛ والعناية بحفظها وعلاجها؛ وسد الذرائع المؤدية لهلاكها، ووجوب حفظها والعناية بها.

ثم يتوجه الخطاب من الله تعالى للمشركين، فيكشف ما يفترونه على الله تعالى من الكذب ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ينهى تبارك وتعالى عن الكذب عليه عَزَّ وجل بأسلوب الكشف عن افتراء المشركين الكذب على الله تعالى، وليحصل الحذر من الوقوع في سلوك مسلكهم، حيث حللوا وحرموا ما توافقوا عليه بآرائهم، ونطقت به ألسنتهم، من البحير والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما شَرَّعُوه وابتدعوه واخترعوه لأنفسهم نتيجة جاهليتهم الجهلاء. فيدخل في هذا كل بدعة تم اختراعها، وما قد يخترعها في قادم الأيام، لتكون قاعدة، بأن من يفتري على الله تعالى شيئاً ليس لديه فيه مستند شرعي فقد افترى على الله تعالى الكذب، سواء بإباحة ما حرم الله تعالى، أو تحريم ما حرم الله تعالى، أو بإضافة قولاً أو فعلاً جديداً في الدين ليس له مستند شرعي.

ومن فوائد مبنى السياق أنه خطاب عام، يشمل الكشف عما عليه أهل الجاهلية من الكذب والافتراء على الله تعالى، ويشمل كذلك نهي المسلمين عن هذا المسلك الجاهلي، من إدخال البدع بشتى صورها للدين. وقد ابتدأ البيان الرباني بالنهي ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ﴾ ليفيد التحريم والتحذير الشديد، ثم يذكر عَزَّ وجل المنهي عنه بصيغة الكشف عن منهج الاختراع المكذوب ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ فلا تقولوا بمنطوق ألسنتكم ما تُشَرِّعُون به من التحريم والتحليل الكاذب من عند أنفسكم. فبين النهي الكريم أن الكذب كان مصدره ما نطقت به ألسنتهم، من الوصف المخترع، والمنهجية التي افتروها للتحليل والتحريم، وإثبات أن افتراءهم ثابت عليهم بالنطق الذي تبعه العمل بالمنطوق به. ثم بين الهدف وما يؤول إليه هذا الافتراء ﴿ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ فبهذا القول تحققوا في أنفسكم اختراع الكذب

على الله تعالى، بأنه حرم هذا، وحلل هذا، وهو لم يحرمه ولم يحلله، ليكتسب صفة المصداقية والتشريف، فينسبونه إلى الله تعالى، ليكون ذلك مستنداً يَتَقوون ويتقولون به على غيرهم، فيتبعونهم فيما اخترعوه من التشريع.

ثم يزجر الله تعالى كل من يفتري عليه الكذب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ فبين الله عَزَّ وجل أن الذين يخترعون الكذب بالبدع والتحريم والتحليل، فإنه ينتفي عنهم الفلاح والفوز والنجاح، مما يعني أنهم مخذولون، فلا يحقق الله تعالى لهم أي نوع من الفلاح الذي يقصدون الوصول إليه بهذا الافتراء، فلا يفوزون بمطلوب طريقه ومساره تشريع ما لم يشرعه الله تعالى. مما يبين أن كل من يحاول أن يمتطي الدين لتحقيق مآربه بالافتراء على الله تعالى فإن مصيره الخذلان، مهما اجتهد ومهما اخترع، فإن الله تعالى له بالمرصاد. وفي هذا تحذير ونهي وتهويل لكل من يحاول أن يسلك هذا المسلك الجاهلي.

ثم يزداد النهي والتحذير بوصف النتائج التي يؤول إليها الافتراء على الله تعالى ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فأول التحصيل أنه نفع ومتاع قليل زهيد أمام متاع الآخرة العظيم الذي لا يقاس بمتاع الدنيا الفاني الزهيد، فقد اشترى الدنيا بفعله هذا، المتصف بقلة ما يتمتع به، وضعفه وهوانه واضمحلاله، مقابل متاع الآخرة العظيم المستديم الذي لا يفنى ولا ينتهي أبداً.

ومن دقائق البيان أن الله تبارك وتعالى لم ينف تحصيل النفع في الدنيا من ذلك الافتراء، بل أثبت حصوله، ولكنه مع هذا فهو زهيد ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ﴾ فكيف تذهبون للقليل الزهيد وتتركون المتاع العظيم في الآخرة، ليكشف خطأ المقاييس عند من يفتري البدع والكذب على شريعة الله تعالى. ثم يعضد هذا البيان الدنيوي بالمصير في الآخرة، فقال الله تعالى ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فلهؤلاء المخترعين الكذب على الله تعالى عذاب مؤلم عليهم من شدته وقوته. ليفيد الحذر من الكذب على الله تعالى بعد البيان للحقائق الحالية والمستقبلية.

وهي قاعدة عملية في تهذيب النفس وتربيتها على التمنع عن المحرمات، فإذا أغرت المسلم بعض الملذات المحرمة، خاطبها بقوله تعالى ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ وإذا دفعه أحد إلى محرم، قال في نفسه ولمن دفعه ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ وإذا رأى معصية من عاص قال له ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فإنها قاعدة علاجية، ووقائية للمؤمن، بل وتنمي فيه العفاف، والصبر، ومواجهة الباطل من مغريات الدنيا الفانية بالعزيمة والإرادة القوية.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ١١٩ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان حال اليهود بعد بيان حال المشركين ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ ينوه تبارك وتعالى بما كان عليه اليهود من الشدة فيما حرمه الله تعالى عليهم، ليعلم ويدرك المؤمنون ما هم عليه من السعة، ومن نعمة التشريع، فقد حرم الله تعالى على اليهود ﴿مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾ وهو ما تم ذكره في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾ فحرم على اليهود كل ذي ظفر، وهي البهائم والطير، ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبط ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖ﴾ وحرم عليهم من البقر والغنم شحومها إلا ما حملته ظهور البقر والغنم من الشحم، فَعَلِقَ بها، وكذلك الحوايا. وهو: ما تَحَوّى من البطن ﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖ﴾ أي: علق به، فهو حلال.

ثم يبين تبارك وتعالى عدله فيما حَرَّم عليهم ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ فلم يظلمهم الله تعالى فيما حرمه عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ فقد فعلوا أسباب ما يوجب ذلك التحريم، فقد كانوا ظالمين بالبغي، فاستحقوا العقوبة بما حرمه الله تعالى عليهم. مما يدل ويفيد أنه حصل منهم ما يستوجب معاقبتهم، فقد حصل منهم أسباب العقوبة، مما يفيد أن الله تعالى لا يظلم أحداً أبداً، وأن ما يصيب القوم، أو الأمة أو الفرد فإنما بسبب نابع من الْمُعَاقَب نفسه. وهذا يتطلب من كل إنسان أن يفتش في مسلكه وسلوكه إذا أصابه ما يكره. وأن على الفرد والأمة أن تراقب مسلكها، حتى لا يحصل لها ما تستحق من العقوبة. فنستغفر الله تعالى من كل ذنب، إنه هو الغفور الرحيم، ونسأله ألا يعاقبنا بما حصل ويحصل منا. وأن يعافينا ويعفو عنا.

ثم يبين الله تبارك وتعالى عفوه ومغفرته لمن تاب من ذنوبه مهما كانت جسامتها وعظمتها ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ وقد أفادت جملة ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ عظمة مصدر الامتنان، فإنه من الله تعالى، بلطفه وامتنانه وكرمه وإحسانه ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي عملوا: القبيح من القول والفعل والاعتقاد، فهو يشمل كل ما يسوء الإنسان. وهي المعاصي، وسُمّيت سوءاً لعاقبتها السيئة. فهؤلاء الذين عملوا السوء، هم الذين امتن الله تعالى عليهم بفضل ورحمته. ثم بين تبارك وتعالى حال الإنسان عند عمله للسوء ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: متلبس بجهالة. وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة. وعن قتادة رضي الله عنه، قال: اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأوا كل شيء عُصي به فهو جهالة، عمداً كان أو غيره[1] مما يفيد أن المذنب يعمل الذنب إما بجهله أنه أذنب، أو بمعرفته، ولكن بجهله لحق نفسه، وما يجب عليه تجاهها من الابتعاد بها عن الذنوب، أو بجهله لعذاب الله تعالى. لأن عمل السوء من السفه وليس من التعقل والحكمة. وقد أفاد تفسير الصحابة رضي الله عنهم: قدر ومنزلة علمهم وفهمهم لدلالة مراد الله تعالى، بما عايشوه أثناء مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم يتطلب من الذين عملوا السوء بجهالة إلى أن يبادروا إلى أمرين حتى يغفر الله تعالى لهم ما عملوا من سوء: فالأول: بالتوبة ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ وهو الاستغفار من الذنب، والرجوع إلى طاعة الله تعالى، والندم على ما حصل منهم من السوء، وأن يعزموا على عدم العودة إلى ذلك السوء. والأمر الثاني: بالإصلاح ﴿وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ بالإقبال على الطاعة المنافية لعمل السوء، فأصلحوا أعمالهم المتضمنة للسوء، فإن الله تعالى من بعد توبتهم وإصلاحهم لغفور رحيم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فإن الله تعالى من بعد توبتهم وإصلاحهم لأنفسهم، لغفور لهم، ورحيم بهم. لأن الله تعالى كثير المغفرة، وواسع الرحمة لمن أناب إليه وتاب وأصلح ما كان منه من السوء. وفي هذا دلالة على رحمة الله تعالى بعباده، وأنه ما أراد لهم المشقة، ولا الصعاب، بل تعامل معهم بما يوافق طبيعة الإنسان من الوقوع في الخطأ والزلات، ولكنه سبحانه وتعالى يقابل التوابين بالمغفرة لهم، والرحمة بهم. فلا يأس للعاصي إذا استوفى ما أبانه الله تعالى في هذه الآية الكريمة.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٥٠٧)

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان حال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وما كان عليه من الطاعة، ليكون مثالاً وقدوة، لمن أراد الخير فيتأسى به، في صبره وتوحيده وشكره وطاعته، وامتثاله لربه تبارك وتعالى، مما يفيد حاجة الإنسان للقدوة التي تتمثل بالطاعة، فقال عزَّ وجل ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة ما وصف الله تعالى به خليله ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وابتدأ الوصف الكريم بالتأكيد على تلك الصفات العظيمة الجليلة بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ كما أفاد فعل ﴿ كَانَ ﴾ الثبوت والدوام في حياته على ما وصفه الله تعالى به من الحنيفية والتوحيد والطاعة والصبر والشكر، وأول تلك الصفات التي امتدحه اللهُ تعالى بها، هي: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ أي: جامعاً لخصال الخير، وعالماً بما علمه الله تعالى، ومعلماً لما عنده من الخير والفضل، بما يفيد المبالغة والتناهي فيما وصل إليه من الصفات الحميدة، حتى أصبح قدوة يُقتَدَى به، فحاله في أفعاله ومسلكه وأخلاقه وعلمه وعمله حال أمة كاملة، وذلك لكثرة ما يكون منه من الطاعة، والتناهي فيما يحصل منه، فهي كلمة عظيمة الدلالة.

والصفة الثانية التي وصفه الله تعالى بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام: أنه كان ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ أي: طائعاً لله، خاشعاً، مطيعاً، ذليلاً مستكيناً بين يدي الله تعالى، لأن القانت هو المطيع. وقد حصر الوصف في أن القنوت كان لله تعالى، ليدل على كمال الإخلاص، فكان قنوته مقصوراً على طاعته لله تعالى. والصفة الثالثة: ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فقد تنزه عليه الصلاة والسلام عن الشرك تمام التنزه، بل نفى عنه تبارك وتعالى الوقوع في الشرك، لأن سياق النفي أفاد نفي الشرك عن حياته كلها عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فلم يسبق له الدخول في الشرك. فأفادت انتفاء الشرك منه في الماضي من حياته، مع

الاستمرار في ذلك طيلة حياته في الدنيا، لأن ﴿وَلَمْ﴾ تدخل على الفعل المضارع، فيتحول إلى معنى الماضي، وتنفيه في الماضي مطلقاً، فقد شهد الله تعالى له بالتوحيد الخالص، وأنه لم يتلبس بشيء من الشرك مطلقاً.

وهذه المحامد التي نالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام جاءت وصفاً وتزكية من الله تعالى له، فليس بعد هذه التزكية من الله تعالى أجَلَّ وأرفع منها تزكية ومدحاً وثناء. فلذلك هو خليل الله. وقد ورد ذكره في التشهد بأن يصل الله على محمد كما صلى على إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. والصفة الرابعة في الآية التي تليها: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فمن صفاته الجليلة أنه كان ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ فقد كان كثير الشكر لله تعالى على ما أنعم الله عَزَّ وجل به عليه.

ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿شَاكِرًا﴾ تفيد الكثرة والمبالغة في الشكر والثناء لله تعالى، حتى لو كانت النعمة الواحدة قليلة فإنه يستعظمها عليه الصلاة والسلام، لأن كلمة ﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾ تفيد القلة، مما يزيد قيمة الشكر من إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكثرته، التي جعلته لا يستقل شيئاً من مفردات النعمة. فقد كان يستكثر القليل من النعمة، فهو يستعظم جميع نِعَم الله تعالى، فإن قليلها مثل كثيرها في الحمد والشكر والثناء على الله تعالى، فلا يستقل منها شيئاً أبداً. ليعطي درساً وعلماً لغيره بأن لا يستقل المسلم ما قل من نعمة الله تعالى، فما يراه بعينه قليلاً، فهو عظيم فيما لو فقده، أو حُرِم منه أصلاً، فإن قطرة ماء على العطش، تعتبر نعمة عظيمة على قلتها. فإن نِعَم الله تعالى كثيرة عظيمة، وأن ورودها هنا بصيغة التقليل لإبراز وإظهار المبالغة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الشكر لربه تبارك وتعالى، وإلا نِعَم الله تعالى على إبراهيم الخليل كثيرة، ومنها النبوة والرسالة، واتخاذه خليلاً، ونجاته من النار، بل وجعلها برداً وسلاما، وفداه ربه في ابنه بذبح عظيم عن ولده إسماعيل عليهم الصلاة والسلام، وغيرها من النعم التي لا تُعد ولا تُحصى.

ومن وجه آخر تأتي دلالة القلة باعتبار أن ما أنعم الله تعالى به على إبراهيم عليه السلام يعتبر قليل بالنسبة إلى نِعَم الله تعالى الكثيرة التي لا تُعد ولا تُحصى في هذا الكون العظيم، فمهما كانت كثيرة على خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فهي قليلة باعتبار سعة نعمة الله تعالى وكثرتها. وتأتي بمعنى القلة في الدنيا قياساً على نعمة الآخرة. وبهذه المعاني والدلالات يتضح عظيم معطيات الأوجه في ألفاظ وسياقات القرآن الكريم، ليدل على إعجازه، وغزارة فوائده. وأنها لا تنتهي ما تأملها الإنسان.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فقد اختاره الله تعالى واصطفاه للنبوة من بين غيره من الناس، فاختصه بها ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وكذلك وفقه عَزَّ وجل لملة الإسلام، إلى دين الحنيفية، بعبادة ربه سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، فصراط الله المستقيم هو دينه.

وهذا يفيد حاجة الإنسان لتوفيق الله تعالى وهدايته، مما يستلزم الدعاء والتوسل إليه، والاجتهاد في الاستقامة على ما يحبه الله تبارك وتعالى، حتى يزداد بالطاعة توفيقاً وهداية، وبالدعاء تحصيلا وتثبيتاً. فما أحوج الإنسان لتوفيق ربه تبارك وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال ما امتن وأنعم به على رسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فقد أعطاه الله تبارك وتعالى في الحياة الدنيا ﴿ حَسَنَةً ﴾ أي: كمال النعمة، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي جمعنا له خير الدنيا، من جميع ما يحتاج المؤمن إليه، في إكمال حياته الطيبة(١) والتي منها النبوة، والصحة والعافية، والثناء الحسن، والولد الصالح، والصلاة عليه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في التشهد. فهذا في الدنيا ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ وأما ما أفاضه الله تعالى عليه في الآخرة، فإنه من الصالحين ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي أنه يوم القيامة ممن صلح أمره وشأنه عند الله تعالى، وحسنت منزلته، فله المنزلة العالية، قال السعدي رحمه الله تعالى: الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من الله تعالى(٢) وفيه استجابة لدعائه عليه الصلاة والسلام، كما جاء في سورة الشعراء ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ فجعله الله تعالى من الصالحين.

ثم يزداد البيان عن فضائل ومناقب خليل الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حتى أنه سبحانه وتعالى أرشد نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ثم أوحينا إليك أيها النبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي: اتبع منهج ما شرعه الله تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في توحيده وبراءته من الشرك. وقد أفادت كلمة ﴿ مِلَّةَ ﴾ أي: الشريعة التي شرعها الله تعالى لإبراهيم، كما أفادت كلمة ﴿ حَنِيفًا ﴾ الاستقامة. أي: مستقيماً غير مائل عن دين الله تعالى إلى أي باطل، بل ثابت على دين الحق. وفي ذلك تزكية وبيان لشريعة الله تعالى، ولمنزلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وما كان عليه من الشريعة العظيمة والتوحيد والاستقامة، بل إن من كماله وقوة توحيده، وعظيم طريقته وصحة منهجه أن

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٦١٢)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٩٢)

تقتدي به، وتتبع ملته، مما يفيد قوة دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقوة إبراهيم في توحيده، وتبليغه، وحكمته، وعظمة ما جاء به إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأن ما أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لا يخالف ماكان عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام في ملته.

ثم يزداد توكيد التوحيد، والخلوص من الشرك بتزكيته عليه الصلاة والسلام من الشرك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لم يتصف بالشرك نهائياً، ولم ينشأ عليه، وورد نفي الشرك عنه مرتين في هذه السورة: فالأولى قوله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فقد تنزه عليه الصلاة والسلام عن الشرك تمام التنزه، بل نفى عنه الوقوع في الشرك، والثانية ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقد أفادت دلالة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ النفي المطلق والقطعي من أن يكون وقع في الشرك عليه الصلاة والسلام، كما أن جملة ﴿وَمَا كَانَ﴾ تؤكد نفي الوقوع في الشرك فيما مضى، مع الاستمرار حتى توفاه الله تعالى عليه الصلاة والسلام. وهي تفيد الثبات والدوام في حياته على ما وصفه الله تعالى به من الحنيفية والتوحيد والطاعة والصبر والشكر، وفي هذا رد على المشركين في افترائهم بأنهم على ملة إبراهيم.

وإذا تم ربط هذا النفي مع محاجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه كما ورد في سورة الأنعام، أفاد أن ما قاله إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان من باب التدرج بهم إلى الحق، ومحاكاتهم على نمط تفكيرهم، لِيُثبت لهم بتلك المحاجة العقلية خطأهم، وفتح أذهانهم على الحق، بأنه لا معبود بحق إلا الله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ وفي هذا بيان أن ما قاله إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن اعتقاداً منه، بل تعليم عملي لقومه، بأنه لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، وأنه لا معبود بحق إلا الله عَزَّ وجل. ولذلك أكد تبارك وتعالى نفي الشرك عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فقرر براءته مما يشركون به، كما قررها إبراهيم عن نفسه في سورة الأنعام ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا

﴿تُشْرِكُونَ﴾ وهنا لم يقل تبرأت من شركي، أو من ما كنت أعبد، وإنما قال ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فنسب الشرك لهم، ولم ينسبه لنفسه، لأنه لم يكن مشركاً قط، بل كان حنيفاً مسلما. وهذه دقة بيانية في الإعجاز البياني، فسبحان الله العظيم.

وقد انتقل بهم إلى الحقيقة، بأن النجوم والقمر والشمس التي نوهتُ لكم عنها بالربوبية ما هي إلا مفردات من هذا الكون العظيم، فلا تستحق العبادة، بل الذي يستحقها هو الذي خلقها وخلق السماوات والأرض. ثم أكد توجهه لله تعالى فاطر السماوات والأرض بالإخلاص له وحده لا شريك له ﴿حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مخلصاً له تبارك وتعالى، مع نفي الانتماء لكل من أشرك. فلست من المشركين، ولست فرداً منهم. لأن ﴿مِنَ﴾ تفيد التبعيض، فلست أنا من فئة المشركين. وهذا دليل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن مشركاً قط، بل إن نعته للكوكب والقمر والشمس بالرب إنما هو تنزلاً لإقامة الحجة والبرهان على قومه، والتدرج بهم نحو بيان ضعفها وقصورها، وأنها لا تستحق أن تُعبد، وأن هناك من يغيبها بالأفول في هذا الملكوت العظيم؛ وهو خالقها سبحانه وتعالى. كما أن في قوله ﴿حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيداً للنفي الأول الذي في قوله تعالى ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وفي هذا تبرئة للنفس من الشرك، وإعلان تلك البراءة، ودفع وإزالة ما يمكن أن يتوهم الغير، مما يدل على خطورة الشرك، وأهمية إظهار التوحيد وإعلانه. وتبرئة النفس إذا تم اتهامها، أو شك في خطأ الناس في فهمه.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى الإخبار عن اختلاف اليهود على نبيهم في يوم السبت الذي جعله الله تعالى كيوم الجمعة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فقد جعل الله تعالى السبت يوم عبادة في شريعة اليهود، الذين اختلفوا وصادوا فيه، وهو محرم عليهم الصيد فيه﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ فقد جعل الله تعالى السبت يوم عبادة لهم. ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أي ما فرض الله تعالى تعظيم يوم السبت إلا على الذين اختلفوا فيه، فقال بعظهم: هو أعظم الأيام، لأن الله تعالى انتهى من خلق الأشياء يوم الجمعة، وقال آخرون: بل أعظم الأيام يوم الأحد، لأنه اليوم الذي ابتدأ الله فيه خلق الأشياء، فاختاروا تعظيمه، وتركوا تعظيم يوم الجمعة الذي فرض الله عليهم تعظيمه، واستحلوه[1] ومن

([1]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤/٣٩٨-٣٩٩)

دقائق السياق الكريم أنه ابتدأ بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ لحصر قضية السبت في الذين اختلفوا فيه، وورد البيان بأسلوب المبني الذي لم يُذكر فاعله ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ﴾ أي فُرض، ومن فوائد الفعل الذي لم يُذكر فاعله ليعطي بسياقه شد انتباه الْمُخَاطَب إلى ما وقع عليه الفعل وهو السبت. والتأمل فيما كان منهم. وكذلك لم يذكر تبارك وتعالى الذين اختلفوا فيه باسمهم ﴿ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ فلم يذكر اليهود في الآية، لبيان اشتهارهم بما اختلفوا فيه، فأغنت شهرتهم فيه عن تسميتهم باليهود، أو ببني إسرائيل. وفي هذا نفي لزعمهم بأن إبراهيم كان يهودياً، إذ لم يكن السبت يوم عبادة في ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

فقد كان اليهود يعتدون ويتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت الذي نهاهم الله تعالى عن العمل فيه. فكانوا يجمعون بين الاعتداء والتجاوز، وبين العمل والأداء والمخالفة، كما هو مفصل في سورة الأعراف. ومن ابتلاء الله تعالى لهم أن الحيتان تأتي قريبة منهم يوم السبت، بل ظاهرة على الماء، فجمع الله تعالى لهم فيها بين الظهور والبروز والقرب والدنو منهم، حتى أنه من السهل على الرجل أن يمسكها فيأخذها، فهي في متناول يده، وذكر ابن كثير عن ابن جرير: أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفاؤه عنهم في اليوم الحلال لهم صيده، ليختبرهم سبحانه وتعالى بسبب فسقهم عن طاعة الله تعالى، وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله تعالى بما قاموا به[1] مما يبين أن لله حكمة في الحكم وفي الابتلاء والاختبار، وفي إيجاد ما يستهوي النفوس، ووجود ما يمنع من الحصول على المراد، ليعلم من يخافه ويتقيه، ومن يطيعه ومن يعصيه، ليعطي بهذا درساً عظيماً، بأن على المؤمن أن يصبر عما يستهويه من المحرمات والمكروهات، ويصبر على الطاعة، ويصبر عما يريد إذا حلَّت الموانع الشرعية، وتوفرت الأسباب المحرمة، ويصبر على ما قد يصيبه من الابتلاء، فإن لله تعالى حكمة فيما يقضيه على عباده.

فإذاً هو يوم عظيم لليهود، وهو للمسلمين محل تأمل وتدبر، ولذلك لفة الله تعالى الانتباه إليه، بالفعل المبني الذي لم يذكر فاعله وهو الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ﴾ لشد انتباه الْمُخَاطَب إلى ما وقع عليه الفعل وهو السبت. الذي امتلأ بالعبر والأحداث، فاستوجب التأمل فيما كان منهم، وفيما كان من ابتلاء الله تعالى لهم، ليحذر المؤمن ويتعلم.

ثم يخبر الله تعالى عما سيكون من أمرهم يوم القيامة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فإن ربك يا محمد ﴿ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٦٧) ملخص

﴿فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ ليحكم في شأن اختلافهم في استحلال يوم السبت وتحريمه، يوم يقفون بين يديه سبحانه وتعالى يوم القيامة، فيحكم بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه.

وباعتبار الآيات التي كانت قبلها عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإن هناك ترابط بينهما، في ادعاء اليهود أن إبراهيم كان يهودياً، فإنهم أهل كذب وافتراء، كما قال تعالى في سورة آل عمران ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ فاليهود يدَّعُون أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يهودياً، والنصارى يَدَّعُون أنه نصرانياً، فنفى الله تعالى عنه ذلك، لأن اليهودية والنصرانية بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام. فيكون النص الكريم قد استجمع الدلالتين بسياق واحد، وهذا من الإعجاز في البيان، فيكون الوجهان له محله من البيان. ولا تضاد بينهما. وهنا يأتي الإعجاز في بناء السياق.

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾

ينتقل توجيه ربنا تبارك وتعالى إلى مخاطبة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بإيضاح وبيان أسس منهج الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وذلك في ترابط وتناسق بديع، مع ما سبق عن بني إسرائيل وعن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقد تضمن أسلوب إبراهيم عليه الصلاة والسلام كمال التزكية من الله تعالى له، ليكون قدوة وأسوة في الدعوة إلى الله تعالى. وأما اليهود فبين أن طبيعتهم العناد والمخالفة لما يُؤمَرُون به، ليتخذ عليه الصلاة والسلام والمؤمنون معه المنهجية التي تناسب طبيعة اليهود عند دعوتهم إلى الإسلام وإقامة الحجة عليهم. والتي ذكرها ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية المباركة العظيمة في مبناها ومعناها، وعظيم دلالاتها، فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ

أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ فبدأ التوجيه العظيم بتقرير قاعدة في الدعوة إلى الله تعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ فبدأ سبحانه وتعالى سياق هذه القاعدة الكريمة بفعل الأمر ﴿ ٱدۡعُ ﴾ لتعطي دلالة وجوب الدعوة إلى سبيل الله تعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ أي: إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام، وسبيل الله تعالى مستوفي لكل ما أنزله تبارك وتعالى من الكتاب والسنة على رسوله صلى الله عليه وسلم. ومن دقائق الآية الكريمة أن الله تعالى لم يُسم الذين يدعوهم، فورد التوجيه عاماً، ليشمل كافة الناس، من غير تحديد ولا تعيين، ليتبين ويتقرر أن الدعوة إلى سبيل الله تعالى لكافة الخلق، العرب، والعجم، ولجميع الناس في جميع بقاع الأرض، وليكون هذا منهج النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهج المسلمين مع غيرهم في شتى بقاع الأرض، وخاصة أهل العلم الذين هم ورثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد نسب سبحانه وتعالى السبيل الذي هو الطريق إلى نفسه ومقامه عَزَّ وجل ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ فيتبين أن هذا الدين الذي هو سبيل الله تعالى، هو من عند الله تعالى، وأنه هو الذي قرره بكتابه القرآن الكريم، وبسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فليس لأحد أن يزيد أو يُنقص منه شيئاً، فجملة ﴿سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ تفيد الحصر، فليست الدعوة ذاتية، ولا قبلية ولا قومية، ولا اجتهادات شخصية بشرية، بل محصورة فيما تضمنه القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة المطهرة. وقد تضمن القرآن والسنة ما تتعظ به القلوب والنفوس، وما يستقيم به الفكر والسلوك، لما فيهما من القصص والعبر والمواعظ، وضرب الأمثال، والترغيب والترهيب، وبيان الواقع للحياة الدنيا، والآخرة، وما سيؤول إليه الناس من الحساب والجزاء. وكذلك متضمنة لمنهج الإصلاح فيما كان للفرد أو المجتمع، مع ضوابط تلك العلاقة بالتشريع الحكيم المحكم، وكذلك بينت منهج علاقة العبد مع ربه تبارك وتعالى، فلا يحتاج أن يزيد فيها، ولا يُنقص منها. فتحددت الحدود الضابطة، والمرافق والمسالك الواضحة في الإيمان والعبادة، وفي كل شأن وأمر.

ثم أخبر الله تعالى ببيان واسع عظيم في دلالته عن منهج وقواعد الدعوة إلى سبيل الله تعالى، فأجملها في ثلاث قواعد متضامنة، ومترابطة، ومتعاضدة، فقال عَزَّ وجل ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ فأولها الدعوة إلى الله تعالى ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ والحكمة متضمنة للشيء المحكم من الحجج القطعية، والبراهين الصائبة المفصلة المقنعة، والخالصة والمجردة من الخطأ في المضمون، وفي الأسلوب. وهي: مجموع ما أوحاه الله تعالى من الكتاب والسنة، لأنها هي الحكمة بعينها،

إذ أن فيها الطرائق والأساليب التي يتحقق بها المراد. وأما ثاني تلك القواعد الأصلية في الدعوة إلى الله تعالى، فهو قوله عَزَّ وجل ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ وهي الإرشاد المتضمن للحق، والمستوفي للأسلوب الذي يستحسنه ويميل إليه السامع والْمُخَاطَب، فلا ينفر منه، لأنه خالص من التحقير والازدراء والأخطاء، وخالص من صنوف التنفير، ومستقطِب للفكر والتأمل. فيرى فيها السامع والمُخَاطَب الحقيقة الناصعة التي لا نجاة في الدنيا والآخرة إلا بها. وفي هذا مراعاة للطبيعة البشرية التي تنفر ممن يتعاظم عليها في الكلام والإرشاد، مما يفيد أن نهج الإسلام هو منهج علاج، وسماحة، واستقطاب، من أجل إخراج الناس من ظلام الكفر وعاقبته، إلى الدخول في نور الإسلام وجنته. ولذلك اشتمل القرآن الكريم والسنة النبوية على الحقائق التي أُوضحت وبُيِّنَت بالعبر والحقائق والأدلة والبراهين، وبالترغيب الجاذب، والترهيب الدافع للخير، والمنفر من الشر والعاقبة السيئة.

وثالث تلك القواعد الأصلية قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وحاججهم بالأفضل والأحسن من حيث الأسلوب والمقال في إقامة الحجة، فإنها متضمنة لحسن التعامل من حيث الرفق والتواضع وحسن الخطاب. وجملة ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ تفيد التفضيل، بأفضل ما تستطيع من الأساليب الحسنة في إقامة الحجة، فتترك الأدنى، وتذهب إلى الأحسن. ومن جميل التوجيه الكريم أنه حدد القاعدة، وأخلاقياتها بأنها بالتي هي أحسن، ليبتعد عن كل ما يضاد الْحُسن، وتَرَك للمُخَاطَب مساحة الأحسن، وهو النبي صلى الله عليه وسلم، ومن يتولى زمام الدعوة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فقد ترك لهم مساحة الأحسن، بما يتلاءم مع نوع الجدال، ونوع المجادلين، ومقام الذي يُجادَل، وما يتطلب الموقف من نوع الْحُسن. ليتأكد بهذا أن منهج الإسلام هو منهج رباني، إذ لا يمكن لأحد من البشر أن يستدرك في بيانه وخطابه وتقعيده مثل هذا البيان المستوفي لكل المواقف، مهما تعددت مجالاتها، وتعددت مقاماتها. بل أعطت للمتأمل قاعدة في تعاملاته الشخصية، الخاصة به، في مهنته، وفي بيته، وفي متجره، ومع أصدقائه، ومع طلابه في درسه، وفي تفاوضه في كل شأن يقوم به، بأن تكون محاجته باختيار أحسن ما يجد ويستطيع من العبارات، والألفاظ، والتقديم والتأخير، والتدرج، وأن يختار أجمل وأفضل ما اتصف بالحسن من الأساليب الموافقة للمقام.

وقد اجتمع التوجيه للْحُسن في الموعظة وكذلك في المجادلة. فقال عَزَّ وجل في شأن الموعظة ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ وقال عَزَّ وجل في شأن المجادلة ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ مما يعطي تأكيداً وبياناً لأهمية الْحُسن. كما أن في تحديد لفظة الحسن دون غيرها، ما يبين أنها أبلغ وأفضل الوصف، فليس هناك أبلغ منها في الوصف للموصوف في هذا المقام. مما يبين أن القرآن محل إعجاز في كل وجه، ومن كل وجه، ليتأكد لكل أحد أنه كلام الله تعالى، المعجز في بيانه وألفاظه وحججه وأساليبه وفي جميع مضمونه، وأنه ليس لأحد من البلغاء ولو اجتمعوا أن يستوفوا ولو شيئاً يسيراً مما في القرآن الكريم من

كمال الإعجاز في بلاغته وبيانه، وفي دلالته وحكمته، وفي قواعده، وفي أحكامه، ومنهجية تشريعه، وأساليب توجيهه، ومضمونه العظيم الحكيم، الذي لا يأتيه الباطل أبداً.

ويفيد عموم توجيه ربنا تبارك وتعالى أن هذا الدين هو دين رحمة في تعليمه وتعاليمه، ودعوته، ومخاطبته، وتعامله، وأن الدعوة إلى سبيل الله تعالى مبنية وقائمة على الإقناع وليس على الإكراه، لأن محل الإيمان في القلوب، وأن معالم الدين وحججه وبراهينه واضحة تمام الوضوح، فما أن يتم عرضها على الإنسان إلا ويجد فيها الحقيقة الناصعة، وإن جادل في مطلع الدعوة، فقد يكون للتثبت والتأكد لما لا يعرفه، وأما إن استمر في صدوده فإنما للمكابرة والعناد.

وبعد تقرير الله تعالى بوجوب الدعوة إلى سبيله وفق القواعد التي قررها تبارك وتعالى في الآية الكريمة، يُرشد سبحانه وتعالى إلى أمر قطعي، يرفع به الله تعالى الأسى والحزن الذي يُصيب الداعية بسبب إعراض من دعاهم إلى سبيل الله عَزَّ وجل، بعد أن اجتهد وإقام الحجة، فيقول تبارك وتعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ فيقرر سبحانه وتعالى أن علمه سبق بمن سيضل عن سبيله، ومن سيهتدي، فعلم الشقي والسعيد منهم، فعليك أيها النبي صلى الله عليه وسلم بدعوتهم إلى سبيل الله تعالى، وإقامة الحجة على من تدعوهم، فإن الله تعالى سابق علمه بما سيكون منهم، فهو عليم بمن يستجيب، وبمن يضل فلا يستجيب، وفي هذا تخفيف من وطأة وأثر ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى كل داعية للخير، فإنه ليس عليك هداهم، وإنما أنت بشير ونذير، فما على الرسول صلى الله عليه وسلم والداعية إلا هداية الدلالة على الخير، وبالتالي فلا تذهب نفسك حسرات على من ضل وكفر. فإن علم الله تعالى أعظم من علم ما يتوقعه الداعية إلى الله تعالى، فعلمه عَزَّ وجل أخص علماً بحالهم من علم من يتوقع، فقد يصيب وقد يخطئ الداعية في احتمال ما يتوقعه، بينما علم الله تعالى قطعي ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ الذي يفيد العلم بالحقيقة كما هي عليه، وأيضاً كما ستكون عليه قبل أن تكون. وفي هذا معالجة لما قد يتوقعه المشتغل بالدعوة إلى الله تعالى.

وقد أفاد قوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ أنه سبحانه وتعالى قد حصر العلم له جَلَّ جلاله بما سيكون من حال المدعوين قبل أن يكون، سواء ممن يستجيب أو ممن يمتنع، وليس لأحد من الخلق العلم المسبق بحال أحد من الخلق. وقد أفرد بالنص والحصر على علمه سبحانه وتعالى بالمهتدين، فلا يشاركه أحد من خلقه في ذلك ﴿ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ كما نص قبله على حصر علمه بمن ضل عن سبيله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ وفي ذلك

إبراز لحال الصنفين من الناس، وإظهاره بالتنصيص والتخصيص، بأن علمه سبحانه وتعالى سابق لما سيحدث ويكون، قبل أن يحدث ويكون.

وأكد ذلك بأداة التوكيد في مطلع النص الكريم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ولما أن ذهن الداعية للحق وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينشغل بالمدعو، وخاصة الذي لم يستجب، وذلك حرصاً ورغبة في إسلامه، فإنه ورد تقديمه على حال المهتدين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وهذا من دقائق إعجاز التقديم والتأخير في آيات القرآن الكريم، فما يقدمه سبحانه وتعالى له حكمة وعلة، وما يؤخره له سبب وحكمة، فسبحان الله العزيز الحكيم.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى تقعيد قاعدة في التعامل العقابي مع المعتدين، فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ وإن عاقبتم مَن ظلمكم، واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل ما حصل لكم منه من الظلم، من غير تجاوز في ذلك، وإن تحقق الصبر منكم عن عقوبته، واحتسبتم الأجر والمثوبة عند ربكم فهو خير لكم عند ربكم. وهذا هو دلالة الآية الكريمة باعتبار انفرادها عما سبق.

ومن رحابة سياق الآية الكريمة أنه في حال ربطها بما سبق في شأن الدعوة وما قد يحصل من المدعوين من الاعتداء، وما يكون من الاقتصاص، فإن سياقها يعالج ذلك الشأن، فيتدرج البيان من حالة الدعوة بالحكمة والموعظة والمجادلة الحسنة إلى الحال التي قد يحدث فيها ما يستوجب العقاب، فبذلك يعالج سبحانه وتعالى جميع الحالات التي يمكن أن تظهر خلال الدعوة إلى الله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فإن الله تعالى يأمر بالعدل عند الاقتصاص وأخذ الحق واسترجاعه، ويكون ذلك بالمماثلة التي ينتفي عنها ومنها التطاول عند وجود القدرة عليه، فَمَن أراد أن يسترد شيئاً أُخِذ منه، فليكن بالعدل، ومن أراد أن يقتص ممن ظلم، فعليه أن يقتص بالعدل، ولا يجور عليه. بما يقيم العدل والإنصاف معه. ثم يحث تبارك وتعالى المؤمنين إلى ما هو خير من الاقتصاص، وهو تركه بالعفو عنه ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فحث المؤمنين إلى العدول عن الاقتصاص إلى الصبر على من اعتدى، وترجيح الصبر لهم بمكتسباته ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فبينت الآيتين الكريمتين مراتب ومنهجية الدعوة، مع تقرير أخلاقياتها التي يتأكد بها أن هذا الدين هو دين السماحة، والعدل، والنصيحة للغير

بالتي هي أحسن، فإن من قَبِل سبيل الله تعالى فقد ربح، ومن تركه فقد خسر، وليس على الداعي سبيل عليهم غير هداية الإرشاد والنصح. وأنه غير مكلف بهداية التوفيق. بالدخول في الإسلام.

فيتبين من الآية الكريمة والتي قبلها أن الهدف هو الدعوة إلى سبيل الله تعالى بالتي هي أحسن، لإخراج الناس من ظلام الكفر والعذاب الشديد إلى نور الإيمان والإسلام، وإلى عظيم المثوبة ودخول الجنة والنجاة من النار، وقد يواجه الداعية إلى الله تعالى احتمالين، القبول مباشرة، أو الرفض، ولهذا الرفض صورتين أو احتمالين، أو نوعين من العناد، النوع الأول هو: الجدال الذي يهدف به صاحبه التَّثَبُّت والتأكد لمعرفة الحق، والنوع الثاني: الجدال النابع من التكبر والاستعلاء، فوجَّه تبارك وتعالى المؤمنين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنهجية في هذا الأمر، فقال تعالى ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ وأما النوع الثاني من العناد، فهو خاص بالمعتدين من المدعوين إلى سبيل الله تعالى بالتي هي أحسن، فإن حصل منهم ما يلزم من الصد والرد، فقد وضع الله تعالى لذلك ضوابطاً وحدوداً، فوجه الله تعالى إلى منهجية العدل في صد التعدي، وعدم مجاوزته للجور، فإنه حال وصول الأمر إلى تنفيذ العقوبة على مَنْ تعدى، فإنه يلزم أن لا يتجاوز المماثلة، فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فحال أنكم ارتأيتم العقوبة على من تعدى، فعاقبوا بالعدل الذي يماثل ولا يزيد عما حصل من المعتدي ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ وجملة ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ﴾ تفيد تخيير المؤمنين في الأخذ بالمعاقبة، أو في العفو عمن يستحقها ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ﴾ إن أردتم المعاقبة، أو إن أردتم العفو، فجعل تقدير الموقف للمؤمنين، ولكن ضبط المعاقبة بضوابط العدل وعدم الجور، كما يفيد التوجيه الكريم أن هناك اعتداء من المدعو، لأن المعاقبة لا تكون إلا على فعل سابق، ويستحق صاحبه العقوبة، وأنه حال وجود ما تعاقبون به المعتدي ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ فليكن العقاب مماثل لنوع وصنف ودرجة الاعتداء، من غير أن يُزاد على المعتدي.

فهذا التوجيه الكريم قَعَّدَ قاعدة عظيمة في بيانها، وفي عدل الاقتصاص، وفي منهجية الاقتصاص وأخذ الحق، ورد العدوان، وكذلك من حيث استيعابها للحدث من جميع جوانبه، فلم ينص العقاب على نوع معين، بل ترك سعة ومساحة كافية في التوجيه، ولكن مضبوطة بالعدل وعدم الجور، ليستوعب جميع أنواع وأصناف وطرائق وأساليب الاعتداء، وما يقابله من الرد، ليستوفي النوع، واختلاف الأساليب عبر الأزمان، وتظل قاعدة عملية، صالحة لكل زمان ومكان. بل ومن دقة تحرير التوجيه أنها اعتمدت العدل بالمماثلة ﴿بِمِثۡلِ مَا

عُوقِبۡتُم بِهِۦ ﴾ وحفظت حق المعتدي من التجاوز عليه في حقه، مهما كانت القوة والسلطة لصاحب الحق، فلا تدفعه قوته إلى التعدي والمجاوزة في أخذ الحق .

مما يربي في المؤمن العدل مع الخصم عند الخصومة، وعدم استغلال الضعف ليتجاوز في أخذ الحق، بل إن المماثلة واجبة، بما يفيد تحريم الزيادة في العقوبة، لأن الإباحة في العقوبة قد وردت بصيغة الأمر في الالتزام بالمماثلة ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ ﴾ فالفعل ﴿ فَعَاقِبُواْ ﴾ يفيد الأمر، الْمُقَيَّد بالمماثلة ﴿ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ ﴾ وفي هذا درء لما قد يجوش في الصدور من ألم الاعتداء والتجاوز ممن تجاوز، سواء كان من المشركين الذين حصل منهم الأذى للمسلمين، أو لِمَا قد يحدث في قادم الأحداث والأيام والسنين. فكانت قاعدة لكل زمان ومكان.

ثم من سماحة الإسلام مع غير المسلمين أنه يتعامل معهم بأحسن ما يكون، وما يمكن أن يكون من حُسن المعاملة، فأحكام الله تعالى توجه المسلمين إلى ما هو خير وأفضل، ليشعر المدعو أنه أمام أُناس راغبين في الخير لغيرهم، وأنهم بعيدون عن حظوظ النفس، ولا حتى التعامل بالمثل في العقوبة، بل يتجاوزونه إلى العفو، فإن الله تعالى يوجه المؤمنين إلى الصبر على مَن اعتدى ﴿ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ فأرشدهم إلى العفو، وهو مقابلة الاعتداء بالعفو عن المعتدي، وعدم الاقتصاص منه، وما يستلزمه من الصبر، لأن في ذلك استدفاع لقلوب المعتدين إلى التأمل في حُسن المعاملة، فهي أدعى لاستثارة القلوب ودفعها للخير. وأن مقاصد المسلمين هي مقاصد تعلو بمحبة الخير للغير، ودفع الشر عنهم.

ومن جميل الجزاء والثواب أن الله تعالى جعل مثوبة المؤمنين عامة بأوجه الخير، دون قصرها على نوع أو وجه محدد، وذلك عند عفوهم وصبرهم على من اعتدا عليهم، فحثهم على ذلك بمنحهم هذه الخيرية ﴿ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ بل من قوة المثوبة وعظمتها أنها جاءت عامة في خيريتها ﴿ خَيۡرٞ ﴾ لتفيد أنه لا يعلم هذا الخير إلا الله تعالى، وفي ذلك ترغيب على الصبر بالعفو. لأن في الصبر تحامل على النفس لضبط تصرفها، وحبس ألمها، وضبط إرادتها، وقدرتها، لتكون وفق مراد الله تعالى.

ومن دقائق البيان أن الخير ورد على وجه العموم، فلم يُحَدَّد بنوع معين، ولا بوقت محدد، ولا مكان ولا زمان مُعَيَّن، ليكون شاملاً لخير الدنيا والآخرة، وليشمل الأصناف والمقادير من غير تحديد لها، فمن ذلك أنه خير لهم باكتساب أجر الدعوة، وأجر المدعو، ورؤية من دَعَوهُم إلى الإسلام في صفوفهم، وقد أسلموا، فيدخل بذلك السرور إليهم بإسلامهم، فإن السياق يستوفي ويستوعب وجوه الخير من كل وجه، والتي لا

يعلمها من كثرتها إلا الله تعالى. فوصل السياق إلى قمة الإعجاز في بيانه ودلالته، وقمة الأخلاق في التصرف مع الغير، ومهارة اكتساب الغير.

وبعد أن وجه الله تبارك وتعالى المؤمنين وعلى رأسهم نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم إلى الصبر بأسلوب الحث، وجعل الصبر مع العفو هو الخيار الأفضل، يتوجه التخصيص إلى النبي عليه الصلاة والسلام بالصبر، وتعزيز النفس بقوة الله تعالى وتوفيقه ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ فقد عطف الله تبارك وتعالى تخصيص النبي عليه الصلاة والسلام بالصبر على عموم ما سبق من التوجيه العام للمؤمنين ﴿ وَٱصۡبِرۡ ﴾ أي: اصبر أيها النبي صلى الله عليه وسلم على ما تواجه من قومك، وعموم ما يصيبك من صُنوف الأذى، واصبر مع من يجادلك على المجادلة بالحق، واصبر على عدم الاقتصاص ممن يعاديك بالعفو، مبيناً تبارك وتعالى معيته لنبيه عليه الصلاة والسلام في صبره ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ وما صبرك الذي تصبر به على صنوف الأذى من قومك، وعفوك عمن ظلمك إلا والله تعالى معك بتثبيته لك. أي: أن الله تعالى معك أيها النبي في صبرك ومجادلتك لهم بالحق والعدل، مما يعطي صورة لحجم ما كان يواجه صلى الله عليه وسلم من عظيم الأذى، الذي لا يستطيع الإنسان الصبر عليه إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ومساندته. مما يبين أن تثبيت الله تعالى وتسديده لنبيه عليه الصلاة والسلام كان قوة له على احتمال صنوف الأذى وقوته، ليفيد شدة حاجة الإنسان لربه تبارك وتعالى، وعونه على ما يواجه في الحياة من المصاعب والمكدرات، وأن من كان الله تعالى معه سدده وأعانه ووفقه، وهوَّن عليه ما يجده، ليدل على أهمية الدعاء والاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه. كما أن في هذا البيان تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وشد لأزره، وتحفيز له نحو المزيد من الثبات.

ثم يَنْهَى الله تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام عن الحزن ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فلا تحزن على المعرضين عن الإسلام، مما يفيد أنه عليه الصلاة والسلام كان حريصاً على إسلام كُلَّ من يدعوه، وذلك لمحبته الخير للناس جميعاً، وأسفه على من لا يستجيب للخروج من الكفر إلى الإسلام، ومن الظلمات إلى النور، ومن الباطل إلى الحق.

والحزن هو ما يحصل في النفس نتيجة وقوع ما تكره، أو فوات محبوب لم تُحَصّله، وكلاهما متعلق بشيء قد حدث وصار. مما يفيد ألا تُشغل نفسك وبالك بما مضى ويمضي ويحدث مما تحب أن يكون، أو لا تحب أن يكون. لأن علم الله تعالى سابق لما سيكون قبل أن يكون، فقال عَزَّ وجل فيما سبق ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ فيقرر سبحانه وتعالى أنه سبق علمه بمن

سيضل عن سبيله، ومن سيهتدي، فعلم الشقي منهم والسعيد، فعليك أيها النبي بدعوتهم إلى سبيل الله تعالى، وإقامة الحجة على من تدعوهم، وبالتالي فلا تحزن على ما يفوت مما تحب لهم من الإسلام. مما يُعَلِّم المسلم ألا يُشغل باله ونفسه بما يحدث من امتناع ما يعارض رغباته من الخير، وسواء كان ذلك في مجال دعوته الناس للصلاح، وللإسلام، أو ما يرغب تحقيقه لنفسه فيفوت عليه تحصيله، فإن الله تعالى يعلم ما لا يعلمه الإنسان، مما يصلح وما لا يصلح، ومن يؤمن ومن لا يؤمن، وفيما هو الخير. وهذا علاج للحزن واللهم في حياة المؤمن. مما يوجب التوكل على الله تعالى، والتسليم له في القضاء والقدر بعد بذل الأسباب.

ثم يوجه تبارك وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى عدم التكدر مما يمكر به الأعداء ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ فلا تكن من مكر أعدائك لك في ضيق، فيتكدر به صفاء نفسك وانشراحها. فالضيق هو الحالة التي تقع في النفس عندما تواجه المصاعب والمكدرات، وهو عكس الانشراح، لأن كلمة الضيق تعطي الدلالة العكسية للسعة، وبالتالي تؤثر على حال الإنسان، بما تُوجِدُه من الهم والحزن.

وفي هذا البيان دلالة على قوة خداعهم واحتيالهم ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ والخداع هو: أن يُظهر المخادع خلاف ما يُبطن، ويُبطن خلاف ما يُظهر، بقصد الخديعة، من أجل إيصال المكروه لغيره من حيث لا يشعر به، وهو وصف يدل على عظمة ما كان يجده صلى الله عليه وسلم من قومه، حتى يصل إلى ضيق الصدر. ولكن معية الله تعالى تتجاوز به تلك المصاعب.

وفي هذا بيان على أهمية الأخذ بالأسباب، والاستعانة بالله تعالى، فبالرغم من معية الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم إلا أنه يأمره عَزَّ وجل بالأخذ بالأسباب، ليتحامل على نفسه بمدافعة ما يضيق به الصدر، ليعطي بذلك درساً في أهمية الأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله تعالى وسؤاله أن يمنحه ما يتقوى به على ما هو فيه من حال.

ومن دقائق البيان في قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ أنها أفادت استمرارية الضيق وتجدده في الحياة، فَتُوجِّه الآية الكريمة بمدافعة الضيق، وعدم الاستسلام له. ليكون ذلك منهج حياة، يتعلم منه المسلم أن يجتهد في مدافعة ما يضيق به صدره بالدعاء والركون إلى الله تعالى، مع مدافعة ما يكره بالأسباب المانعة، والأسباب المزيلة له، ومنها النظر إلى ما ينشرح به الصدر، من النعم التي لا تُعد ولا تُحصى، والأمل في الله تعالى وأقداره وحكمته عَزَّ وجل فيما يقضي به.

ثم يختم الله تعالى سورة النحل بتوجيه عظيم، ومحصلة عظيمة لكل من حقق مقتضاها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ فيخبر الله تعالى عن معيته المتضمنة لعونه وتسديده ونصرته

لكل من اتقاه، وجمع معها الإحسان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ فالمقتضى الأول لتحقيق معية الله تعالى وتسديده للعبد أن يتقيه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ والتقوى تتطلب، الخوف من الله تعالى، والطمع في رحمته، فيحرص العبد على طاعة لله تعالى، وعلى ترك المعاصي، رغبة فيما عند الله تعالى من الثواب، وخوفاً مما عنده من الجزاء. وهذا على وجه العموم، وباعتبار ما قبلها من التعامل مع عباد الله تعالى، فعليه أن يتقي الله عَزَّ وجل عند التقاضي، وعند الاقتصاص، وعموم التعامل مع الناس.

والمقتضى الثاني: الإحسان ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ فيشمل إحسان الأداء فيما فرض الله تعالى، والقيام بكمال الحقوق، فيعبد الله تعالى كأنه يراه، كما جاء في الحديث عن تعريف الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك)[١] ويستوعب الإحسان التفضل وكمال الاستيفاء في العبادة، وفي حسن التعامل مع الغير، وفي كمال الأداء في المهنة والمتاجرة، وفي الرفق بالضعيف، والعون للمحتاج، فهي صفة جامعة للخير، فيجتهد ويسعى في ذلك بقدر وسعه. والإحسان وباعتبار ما قبلها من قضية التعامل مع عباد الله تعالى، تكون دلالته: الشفقة على عباد الله تعالى، فإن العبد إذا حَصَّل التقوى والإحسان أعانه الله تعالى وسدده. فأنعم بها نعمة وامتنان من الله العزيز الغفار.

ومن جميل البيان ودقته أن أفرد الله تعالى التقوى، كما أفرد الإحسان، ليظهره كل واحدة منهما بتمام وكمال الظهور والاهتمام للمخاطب، فعن التقوى قال تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ ولم يعطف عليها المحسنين مباشرة، بل أفردها بجملة كاملة تامة ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ وهذا من دقائق التوجيه الكريم في القرآن العظيم. وقد تم استيفاء معنى الإحسان ودلالاته الواسعة عند شرح قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ في هذه السورة الكريمة العظيمة. فالحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله إتمام سورة النحل. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣٣/١) برقم (٥٠)